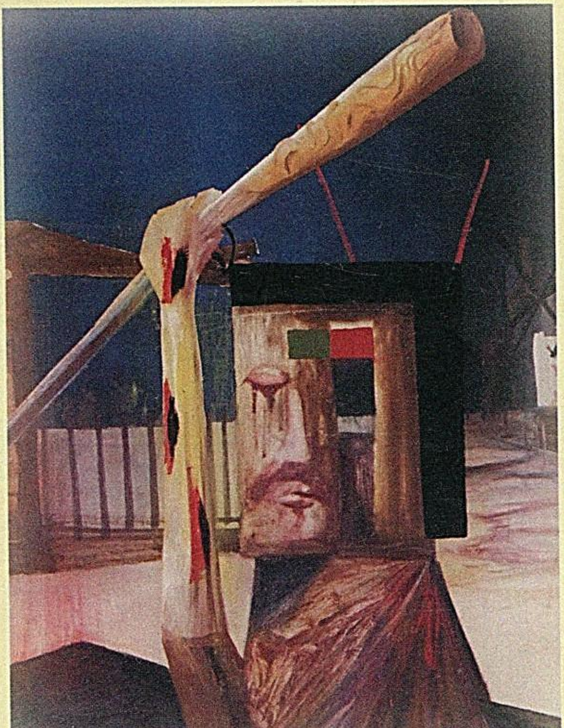
برتراند رسل

بحوث غير مألوفة



التكوين

ترجمة: سمير عبده

علي مولا

بحوث غير مألوفة

هذه ترجمة لكتاب

Unpopular Essays

تأليف

Bertrand Russell

الناشر

Simon And Schuster – New York
Fourteenth Paperback Printing, 1964

بحوث غير مألوفة

12 مغامرة في الحجة والنقاش للحائز على
جائزة نوبل للآداب سنة 1950

تأليف: برتراند رسل

ترجمة: سمير عبده

- الكتاب: بحوث غير مألوفة

- الكاتب: برتراند رسل

- ترجمة: سمير عبده

للتأليف والترجمة والنشر

دمشق – حلبوني - الجادة الرئيسية

تلفاكس 2236468 جوال 0944 330989

ص . ب : 11418

WWW.ATTAKWIN.COM

INFO@ATTAKWIN.COM

taakwen@yahoo. com

مقدمة المترجم

تكمن أهمية ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية في الأفكار غير المروضة التي أطلقها رسل في عدد من القضايا التي توضح فلسفته ونظرته إلى الحياة والكون. ولسان حاله يقول، كما سبق لاناتول فرانس في كتابه (حديقة أبيقور) أن قاله: (لو كنا ندرك أشكال النفس كما ندرك أشكال الهندسة لما خالطنا عداء لعقل ضيق إلا بمقدار ما يعادي رياضي زاوية تفتقر إلى خمس أو ست درجات لتكون لها خصائص الزاوية القائمة).

ولتوضيح مفهوم المنطق عند رسل نرى أن له جانبين يقوم كلاهما على التحليل: أحدهما جانب فلسفي والآخر رياضي. ونستطيع أن نصل إلى الجانب الأول إما عن طريق تحليل التجربة، وإما عن طريق تحليل اللغة. أما الجانب الرياضي فنصل إليه عن طريق تحليل المفاهيم والتصورات الرياضية وتحويلها إلى مفاهيم منطقية. والنظريات التي استحدثها رسل في المنطق والفلسفة نظريات حصل عليها من تحليله لعناصر التجربة الشائعة ومن تحليله للغة، سواء في ذلك اللغة العادية أم لغة العلوم.

لقد اعتقد رسل، كما اعتقد هيوم من قبل، أن من أهم وظائف الفلسفة التي تتحدى افتراضات العلم، لا بهدف الشك فيه وزلزال أركانه على نحو ما فعل هيوم، بل من أجل إبراز وجوده. والعلم في صميمه جهاز من المعرفة والقوانين، لكن المعرفة العلمية لا تقدم لنا مضمون الإدراك الحسي، وهو عبارة عما تنطبع به حاسة الشخص المدرك، بل تقدم لنا هياكل أو إطارات تصور العلاقات بين الظواهر. فليس موضوع علم الحرارة مثلاً كيفية إحساس هذا الفرد أو ذاك بلثغة الأجسام الحارة، بل موضوعه هو الموجات المعينة التي يمكن

قياسها وبناء معادلات رياضية خاصة بها. وهذه الهياكل أو الإطارات التي تقدمها لنا القوانين العلمية ليست في حقيقتها إلا مختصرات لأوصاف مجموعة من الظواهر الجزئية، أو هي عبارة عن تعميمات لخصائص معينة وجدت حول بعض الظواهر.

كان رسل فيلسوفاً حتى وهو يدعو إلى تعطيل الفلسفة حيناً من أجل التفرغ للكفاح العملي.. وعلينا جميعاً أن نتلقى منه الدرس ونعيه. فليست الفلسفة، وليس الفكر، وليست الثقافة، كلاماً أجوف يقال، أو جدالاً فارغاً يشغل السطح الخارجي من عقول الناس، وإنما هي قبل كل شيء رؤية واضحة لحقائق العالم الذي نعيش فيه، وسعي مستمر، يمتزج فيه النظر بالعمل، من أجل جعله عالماً أفضل. كل هذا يبين لنا أن فيلسوفنا كان نصيراً للعقل على الخرافة، يرى في العلم وفي الصناعة ركناً ركيناً للحضارة، وهو يحاول أن يقتلع من الإنسان كل ما قد تخلف في فطرته من الحياة الحيوانية الأولى، والتي تملأه بالرغبة الجامحة وبالشر والعدوان. أو كما قال ليوناردو دافنشي (يبدو لي الناس ذوو الأخلاق الدنيئة والشهوات الحقيرة بأنهم غير جديرين بهياكل جسمانية جميلة ومعقدة كالناس ذوي الذكاء الحاد والتأمل البعيد، إذ يكفي لديهم كيس وبفوهتين: أحدهما لتلقي الطعام، والآخر لقذفه بعيداً لأنهم ليسوا سوى ممر للطعام وأحواض لامتلاء الماء، فهم يقتصرون في الشبه بأولئك الناس على الوجه والصوت، بينما هم في كل الأشياء أسوأ من الحيوانات المفترسة).

وفي موضع آخر حول هذا الموضوع يكتب دافنشي بعد دعوة طعام في الفاتيكان قائلاً: يحدثنا سينكا الفيلسوف الروماني بصدق وهو يقول: (ينطوي في دخيلة كل إنسان إله ووحش مرتبطين بسلسلة واحدة).

إن رسل أراد من كل هذا أن يخرج إنساناً مهذباً متحضراً يسالم أخاه في سبيل إنسانية عليا. إنساناً يطفو فوق سطح حطام صفير تتقاذفه الأمواج من كل صوب، وتغمره الظلمات من كل جانب، ولا تكاد تنعكس فوقه إلا بعض أضواء خافتة تنبعث بين الحين والآخر من جانب أخوة له في الإنسانية. والحق أنه لا بد لكل فرد منا - في وسط ذلك المحيط المظلم الذي تتقاذف أمواجه العاتية

أمداً قصيراً من الزمن، أن يشق طريقه لنفسه وبنفسه، مصارعاً ومجاهداً ضد تلك القوى العاتية الغاشمة التي تتهدده باستمرار. ومعنى هذا أنه لا بد للنفس الفردية من أن تحشد كل طاقاتها الشخصية لمواجهة ذلك العالم الخارجي الذي لا يأبه - في كثير أو قليل - بكل ما لديها من آمال أو مخاوف. وحين يتسنى للنفس الفردية أن تظفر بالنصر في صراعها الدامي ضد قوى الظلم، فهناك يصبح في وسعها أن تنعم بصحة الأبطال المجيدة، ويكون في استطاعتها أن تتمتع بنشوة الوجود البشري الذي لا يخلو من جمال.

ولا شك أن هذا التلاقي الرهيب الذي يتم بين النفس من جهة، والعالم الخارجي من جهة أخرى، إنما هو المصدر الذي تتولد منه فضائل كالحكمة، والمحبة، ونكران الذات، وبالتالي فإنه الأصل في ظهور حياة إنسانية جديدة. وحين يتمكن الإنسان من استدراج تلك القوى الخارجية المعادية التي يبدو البشر مجرد ألاعيب في يدها، إلى أعماق ذاته، أو حين ينجح في تسليط أضواء الوعي عن الموت والتغير والماضي الذي لا سبيل إلى استرجاعه، والعجز البشري، أمام قوى الطبيعة الغاشمة، فهناك، وهنالك فقط، يكون قد استطاع السيطرة على الكون اللاواعي، والتحكم في القوى الخارجية الغلابة. وعلى ذلك ارتكزت فصول كتاب رسل الذي وضعته بين أيدي القارئ.

إن ترجمة عنوان الكتاب للغة العربية تحتمل مسميات عديدة، منها على سبيل المثال (مقالات لاتشوق)، ولكني آثرت أن يكون العنوان (بحوث غير مألوفة) لأن موضوعات الكتاب هي فعلاً غير مألوفة وتشوق قراءتها.

سمير عبده

ص. ب 914 دمشق

مقدمة المؤلف

تعنى معظم البحوث التالية التي حررت في أوقات مختلفة خلال الخمسة عشر عاماً الفائتة بمحاربة نمو العقائدية المتعصبة، بطريقة أو بأخرى، سواء كانت تنتمي إلى اليمين أو إلى اليسار، تلك العقائدية التي يتصف بها قرننا المأساوي. وهذه الغاية الجدية تلهم، وإن كانت تبدو أحياناً بسيطة، أولئك الصارمين والكهنوتيين بأنهم لا يمكن محاربتهم بنجاح في أن يكون المحارب أكثر صرامة بل أكثر كهنوتياً.

ثمة كلمة بالنسبة للعنوان. فقد قلت في مقدمة كتابي (المعرفة البشرية) بأنني لا أكتب فقط لأجل الفلاسفة المتهنين، وأن «الفلسفة نفسها تعالج مشاكل لها الجمهور المتعلم بشكل عام». والمراجعون عاتبون، بقولهم أنهم وجدوا أجزاء من الكتاب صعبة، وأنها تتضمن في أن كلماتي من شأنها أن تضلل الشراة. وأنا لا أود أن أعرض نفسي مرة ثانية لهذه التهمة، لذا أعترف بأن عدة جمل في الكتاب الحاضر يعدها الأطفال البلهاء الذين يبلغون العاشرة شيئاً محيراً. وعلى هذا الأساس لا أدعي بأن البحوث هي شعبية أو مألوفة وإذا لم تكن شعبية أو مألوفة فهي إذن «غير شعبية أو مألوفة».

نيسان 1950

برتراند رسل

(1)

الفيلسوف والسياسة

يتميز البريطانيون بين أمم أوروبا المعاصرة من جهة بتفوق فلاسفتهم، ومن جهة أخرى احتقارهم للفلسفة. وفي الناحيتين يبينون حكمتهم. ولكن احتقار الفلسفة إذا تطورت للدرجة التي تصبح فيها نسقية، غدت بذاتها فلسفة، وهي الفلسفة التي تعرف في أمريكا بالفلسفة «الذرائعية». وأني لأرى بأن الفلسفة، إذا كانت سيئة، فقد تصبح خطرة، ولذا تستحق تلك الدرجة من الاحترام السلبي الذي نمنحه للصاعقة وللنمور. وأنني لأترك في البرهة الحاضرة سؤالاً مكشوفاً فيما يتعلق بالناحية الإيجابية التي توصف بها الفلسفة «الجيدة».

وعلاقة الفلسفة بالسياسة التي هي موضوع محاضرتي كانت أقل وضوحاً وتبياناً في بريطانيا مما هي في أقطار القارة الأوروبية. فالمذهب التجريبي، إذا تحدثنا بصورة شاملة، مرتبط بالليبرالية، ولكن هيوم Hume كان محافظاً، وأن ما يدعوه الفلاسفة «بالمثالية» له بصورة عامة ارتباطاً مشابهاً في مبادئ المحافظين، ولكن غرين T. H. Green كان ليبرالي. أما في القارة فكانت الفروق واضحة الحدود، وكان ثمة استعداد أكبر لقبول أو رفض كتلة من العقائد بصورة كاملة دون تفحص دقيق بكل جزء منفصل منها.

وفي معظم الأقطار المتمدنة، في بعض الأحيان، كانت الفلسفة قضية، كان للسلطات فيها رأياً رسمياً، وباستثناء الأماكن التي تسيطر فيها الديمقراطية الليبرالية لا يزال الأمر كذلك. والكنيسة الكاثوليكية مرتبطة بفلسفة أكويناس Aquinas*، والحكومة السوفييتية بمذهب ماركس. أما

---

* توما الأكويني (أكويناس) - (حوالي 1225 ـ 1274) أعلن قديساً في عام 1323. أراد الأكويني أن يصل بالحجج الفلسفية إلى أعمق مستوياتها، لا أن يكدس من المواد ما يمكن تطويعه تطويعاً يندرج به في الإطار الكهنوتي كما هو قائم. المترجم

النازيون فيدعمون المثالية الجرمانية بالرغم من أن درجة الخضوع التي تعطى كنط وفيخته وهيغل بالتوالي لم تكن مستقرة الوضوح. والكاثوليك والشيوعيون والنازيون جميعاً يعتبرون وجوه نظرهم المتعلقة بالسياسة العملية مرتبطة بآرائهم في الفلسفة التجريبية التي مارسها لوك Locke. وأود أن أبحث بهذه الصلة من الفلسفات بالأنظمة السياسية كما وجدت بالفعل، وأن يتناول بحثي المدى عن مقدار القيمة في العلاقة المنطقية، وإلى أي حد تمتلك نوعاً من الحتمية النفسية. حتى ولو لم يكن ذلك منطقياً، وبقدر ما يكون كل من الصلات موجوداً، تتصف الفلسفة بأهمية عملية في هذه الحال، والفلسفة الشائعة قد يكون لها صلة حميمية بسعادة أو شقاء أجزاء كبرى من الجنس البشري.

إن كلمة «فلسفة» هي كلمة لا يحدد معناها شكل من الأشكال، وكذلك كلمة «الدين» فإن لها معنى حين يستعمل يعنى بوصف بعض مظاهر الثقافات التاريخية، وأخرى حينما تستعمل تدل على دراسة أو وضع العقل الذي يعد مرغوباً فيه في الوقت الراهن. فالفلسفة، كما تعالج في جامعات العالم الديمقراطي الغربي، هي على الأقل بالنسبة للنية والنوايا، جزء من البحث عن المعرفة، تهدف إلى نفس النوع من التجرد الفكري كما هو الحال في العلم، ولا يطلب فيها من السلطات الوصول إلى خواتيم ملائمة لسياسة الحكومة. وكثير من أساتذة الفلسفة لا يرفضون النية في التأثير على سياسة تلاميذهم فحسب، لكن يدعون إلى وجهة النظر التي تنطوي على بث الفضيلة في النفس. وهكذا قد يقولون بأنه ليس هناك سوى صلة ضئيلة في الفيلسوف، كما هو الحال بالنسبة للفيزيائي والكيميائي. فالمعرفة كما يذهبون، يجب أن تكون الهدف الأوحد للتعليم الجامعي، وأما الفضيلة، فيجب أن تترك للآباء والمعلمين والكنائس.

ولكن هذا الرأي في الفلسفة، الذي أتعاطف معه، هو رأي حديث جداً، بل هو استثنائي في العالم الحديث. وثمة رأي آخر مختلف تماماً، الذي انتشر منذ القدم والذي أضحت الفلسفة مدينة له بأهميتها الاجتماعية والسياسية.

إن الفلسفة في هذا المعنى المعتاد التاريخي، قد نشأت في محاولة تركيب العلم والدين، أو ربما بصورة أدق، دمج عقيدة تتعلق بطبيعة الكون ومكانة الإنسان فيه مع تقيّم أخلاقي أعتبر أفضل طريقة في الحياة. والفلسفة تختلف عن الدين في الحقيقة، بأنها من الوجهة الاسمية على الأقل ما كانت تروق للسلطة أو للهيئات التقليدية، فقد كانت متميزة عن العلم بالحقيقة التي تقول بأن جزءاً جوهرياً من هدفها هو أن يميز الناس كيف يعيشون. ونظرياتها الكونية والأخلاقية مترابطة ترابطاً دقيقاً. وفي حين بعض الأحيان تأثرت نظريات الفيلسوف بالحوافز الأخلاقية بالنسبة لطبيعة الكون، وأحياناً بمقدار ما قاده معرفة الكون إلى الخواتيم الأخلاقية. والآراء الأخلاقية بالنسبة لمعظم الفلاسفة تنطوي على نتائج سياسية: فالبعض يقدرون الديمقراطية، والآخرون الأوليغارشية، كما أن البعض يمتدحون الحرية، والآخرون الانضباط، وجميع نماذج الفلسفة ابتكرها اليونانيون، كما أن أساليب الجدل في يومنا هذا كانت قوية بين الفلاسفة الذين سبقوا سقراط.

والمشكلة الأساسية في الأخلاق والسياسة هي إيجاد طريقة للتوفيق بين حاجات الحياة الاجتماعية وإلحاح الرغبات الفردية. وهذا قد أنجز بمقدار ما أنجز، بواسطة مختلف المبتكرات، وحيثما توجد حكومة، فالقانون الجنائي يمكن استعماله للحيلولة دون عمل مضاد للمجتمع من قبل أولئك الذين لا ينتمون للحكومة، والقانون يمكن تدعيمه بواسطة الدين حيثما يقرر الدين بأن العصيان هو كفر. وحيثما يوجد كهنوت ذو نفوذ كاف لتنفيذ القانون الخلقي على الحكام العلمانيين، يصبح الحكام أنفسهم لحد ما خاضعين للقانون، ويوجد ثمة أمثال كثيرة على ذلك في العهد القديم وفي التاريخ القروسطي. والملاك الذين يعتقدون بحق الحكومة الألهية في العالم، وبطريقة من المكافأة والعقاب في الحياة الأخرى، يشعرون بأنهم ليسوا مطلقي القوة وغير قادرين على اقتراف الخطيئة دون عقاب. وهذا الشعور يفصح عنه الملك في رواية هاملت، حيثما يقابل بين صلابة العدالة الإلهية وخضوع القضاة الأرضيين للسلطة الملكية.

والفلاسفة، حيثما عالجوا مشكلة المحافظة على الانسجام الاجتماعي، قد بحثوا عن حلول أقل ارتباطاً بصورة واضحة بالعقيدة من تلك الحلول التي تدعمها الديانات الرسمية. ومعظم الفلسفة كانت رد فعل ضد الشكوكية أو مذهب الشك. لقد نشأت في عصور لم تكتف فيه السلطة بإيجاد الحد الأدنى الضروري اجتماعياً من العقيدة، ولذا أصبح من اللازم ابتكار حجج عقلانية لضمان النتيجة نفسها. وهذا الحافز قد أدى إلى جمود عميق أصاب معظم الفلسفة قديمها وحديثها. وقد كان ثمة خوف في الغالب، كان لا شعورياً، بأن يؤدي الفكر الواضح إلى الفوضى، وهذا الخوف أدى بالفلاسفة إلى الاختفاء وراء ضباب الأكذوبة والإبهام.

لقد كان ثمة استثناءات طبعاً، وأشهرها بروتاغوراس Protagoras* في الماضي السحيق، وهيوم في الأزمنة الحاضرة، وكلاهما كانا كنتيجة لمذهب الشك محافظاً من الوجهة السياسية. فبروتاغوراس لم يدر إذا كانت الآلهة موجودة، ولكنه كان يعتقد على كل حال بأنها يجب أن تعبد. والفلسفة في نظره لا تحتوي شيئاً يشيد في التعليم، ولإبقاء النظام الأخلاقي يجب أن نعول على فقدان التفكير بين الأكثرية وإرادتهم في الاعتقاد بما تعلموه. ولذا، فلا يجب أن يعمل شيء يضعف القوة الشعبية للتقاليد.

والشيء ذاته إلى حد ما يمكن أن يقال عن هيوم. فبعد أن بيّن نتائجه الشكوكية، التي يعترف بأنها ليست من طبيعتها أن يستطيع الرجال العيش بموجبها، ينتقل إلى بعض من النصيحة العملية التي لو اتبعت لكان من شأنها أن تمنع أي شخص من قراءته. فقال: «الإهمال وعدم الانتباه هما اللذان يقدمان لنا أي علاج، ولذا فإنني أعتمد عليهما». وهنا في هذا المجال، لا يبين الأسباب في كونه محافظاً، ولكن من الواضح بأن «الإهمال وعدم الانتباه» بينما يمكن أن يقودا إلى الموافقة على الحال الراهن، لا يستطيعان دون عون أن يؤديا بالإنسان لاقتراح هذا المشروع من الإصلاح أو ذاك.

---

* بروتاغوراس: فيلسوف سفسطائي أغريقي أزدهر في حوالي عام 450 ـ 440 قبل الميلاد. تنسب له عدة كتب في المنطق والأصول الثقافية والسلوك البشري. وقد هاجم الجمود في كل من الديانة والفلسفة اللتين سادتا في عصره. المترجم

ومع أن هوبس Hobbes أقل شكوكية من هيوم، فقد كان مقتنعاً أيضاً بأن الحكومة لا تمت إلى أصل ألهي، وقد أدى به ذلك في طريق الجمود، لاقتراح المبدأ المحافظ المتطرف.

وتلقى بروتاغوراس «الجواب» من أفلاطون، أما هيوم فتلقاه من كنط وهيغل. وفي كل حال تنفس العالم الصعداء وامتنع عن البحث بدقة كبيرة، في القيمة الفكرية «للجواب» الذي كان له في كل حال نتائج سياسية ونظرية أيضاً - مع أنه بالنسبة إلى «جواب» هيوم لم يكن كنط الحر (الليبرالي) هو الذي أتاح النتائج السياسية بل هيغل.

إلا أن الشكوكيين الكاملين، مثل بروتاغوراس وهيوم، لم يكونا أبداً ذوي تأثير، وإنما استخدما بصورة خاصة كوسائل من قبل الرجعيين لإخافة الناس ودفعهم إلى العقائدية غير العقلانية. والخصوم الأقوياء الحقيقيون الذين كان من الواجب على أفلاطون وهيغل أن يصارعوهم لم يكونا شكوكيين، بل تجريبيين، وهما ديمقريطس Democritus* في الحالة الأولى ولوك في الحالة الأخرى. وفي كل حالة اقترنت التجريبية بالديمقراطية وبتفكير أخلاقي أكثر أو أقل نفعية. وفي كل حالة، نجحت الفلسفة الجديدة بفرض نفسها كفلسفة أنبل وأعمق من فلسفة الفكر السليمة العادية التي ظلت محلها. وفي كل حالة أيضاً، باسم كل ما كان يعتبر سامياً جعلت الفلسفة الجديدة نفسها المناصرة للظلم والقساوة والمناهضة للتقدم. وبالنسبة لهيغل Hegel كان هذا معترفاً به بصورة أقل أو أكثر، أما بالنسبة لأفلاطون Plato فهو لا يزال متناقضاً، مع أنه كان موضع الدعوى اللامعة في كتاب

---

* ديموقريطس عاش في القرن الخامس ق.م وهو يعتبر مؤسساً للنظرية الذرية. وقد بقي من تأليفه عدد كبير من الشذرات، لكن لم يبق لنا منه مؤلفات كاملة، وكثير من هذه الشذرات يظهرنا بوضوح على عقل ذي جبروت وحذق، على أن هناك أيضاً مناقشات كثيرة مفيدة لفلسفته في مؤلفات من تلاه من الفلاسفة. المترجم

حديث كتبه الدكتور. ر. بوبر Dr .D. R. Popper* وأفلاطون، كما قال ديوجينس Diogenes** أعرب عن وجهة نظره بضرورة إحراق جميع كتب ديموقريطس. وقد أنجزت رغبته إذ لم يبق شيء من كتابات ديموقريطس على قيد الحياة. وأفلاطون في محاوراته، لم يذكره أبداً، أما أرسطو Aristotle فقص علينا حكاية بعض عقائده، وأبيقور Epicurus*** بسّطه، وأخيراً وضع لوكريتيوس Lucretius**** عقائد أبيقور منظومة في الشعر. فلوكريتيوس بقي حياً بالمصادفة السعيدة. أما إعادة إنشاء ديموقريطس من جدل أرسطو وشعر لوكريتيوس فليس بالأمر السهل، وهو في الغالب يشبه القول بإمكان إعادة إنشاء أفلاطون من دحض لوك للأفكار الفطرية أو قول فوغان Vaughan***** «رأيت الخلود في تلك الليلة» ومع ذلك فيمكن العمل الكافي لإيضاح غضب أفلاطون والتنديد به.

أما ديموقريطس فقد اشتهر بصورة رئيسة (بالاقتران مع لوقيبوس) ****** بأنه مؤسس نظرية الذرة، التي اقترح قبولها بالرغم من اعتراضات الميتافيزيقيين

---

* المجتمع المفتوح وأعداؤه، والموضوع نفسه مؤيد في كتابي تاريخ الفلسفة الغربية.

** ديوجينس عاش في اليونان في القرن الرابع ق. م، ومن رأيه أن تحقيق الفضيلة ـ وهي وحدها ما ينتج السعادة ـ يتم عن طريق بلوغ الاكتفاء الذاتي، والوسيلة إلى الاكتفاء الذاتي هي أن يتحرر الإنسان من أي قيد خارجي من قيود الأسرة، أو قيود المجتمع، أو من أي اختلال داخلي في الرغبات أو الانفعالات أو المخاوف. المترجم

*** أبيقور (342 ـ 270ق.م) أثيني المولد نشأ في ساموس. وأشهر ما يعرف به هو نظريته الخلقية في مذهب اللذة، وأنه شارح للنظرية الذرية، وإن لم يكن ذا أصالة في أي من الميدانين. المترجم

**** لوكريتيوس (98 ـ 55ق.م) شاعر روماني، يقال أنه جن بجرعة من الحب، وأنه ألف عدة كتب في الفترات التي كان يثوب فيها إلى رشده، وانتحر في سن الرابعة والأربعين. المترجم.

***** يقصد الشاعر الإنكليزي هنري فوغان 1662 ـ 1687 المترجم

****** لوقيبوس عاش في حوالي منتصف القرن الخامس ق. م في اليونان، كان يجري على سنة الفلاسفة الملطيين الذين جمعوا بين الفلسفة والعلم، وهو أول من وضع تفسيراً ميكانيكياً صرفاً دون الالتجاء إلى فكرة الغاية أو المبادئ الغائية. المترجم

ـ وهي الاعتراضات التي تكررت من قبل خلفائهم حتى شملت ديكارت Descartes وليبنتز Leibniz. ونظرية الذرية مع ذلك، كانت جزءاً من فلسفته العامة. فقد كان مادياً جبرياً ومفكراً حراً ونفعياً، وكان يمقت جميع العواطف القوية، وهو مؤمن بالتطور سواء كان فلكياً أو بيولوجيا.

ومثله كمثل رجال من ذوي الآراء نفسها في القرن التاسع عشر، فقد كان ديموقريطس ديمقراطياً متحمساً، قال: «الفقر في الديمقراطية أفضل بكثير مما يدعى ازدهار تحت حكم الطغاة كنسبة الحرية إلى العبودية». لقد كان معاصراً لسقراط Socrates وبروتاغراس، وينتمي إلى نفس المدينة التي ينتمي إليها الأخير، وقد ازدهرت فلسفته خلال السنين الأولى للحرب البلوبونيزية Peloponnesian، ولكن ربما داهمه الموت بل قبل أن تنتهي. وتلك الحرب قد حصرت النضال الذي كان قائماً خلال العالم الهليني بين الديمقراطية والأوليغارشية. فإسبارطة كانت تمثل الأوليغارشية، وهكذا كانت عائلة أفلاطون وأصدقائه أن أدى بهم الأمر أن يصبحوا خونة. وتعتبر خيانتهم السبب الذي أدى إلى هزيمة أثينا. وبعيد الهزيمة، شرع أفلاطون في ترتيل المدائح للمنتصرين بإنشاء مدينة فاضلة استوحى أهم صفاتها أو تقاطيعها من دستور اسبارطة. وكانت مهارته الفنية، مع ذلك، سبباً جعل الأحرار أن لا يلاحظوا ميوله الرجعية حتى جاء تلميذاه لينين وهتلر يزودونهم بتفسير عملي*.

إن جمهورية أفلاطون يجب أن تكون موضع الإعجاب من ناحيتها السياسية، من قبل الناس اللبقين، إذ أنها ربما كانت أعجب مثل للظرف الأدبي في جميع أزمان التاريخ. ولنحقق في بضع نقاط من هذا المنشور الكلي. فالغاية الرئيسية للتعليم التي يجب أن يخضع كل شيء آخر لها، هي تحصيل الشجاعة في المعركة. وتحقيقاً لهذه الغاية يجب أن يكون ثمة رقابة شديدة للأقاصيص التي تحكيها الأمهات والمربيات لأطفالهن الصغار، ويجب أن يمتنع الناس عن

---

* في سنة 1920 قارنت بين الدولة السوفيتية وجمهورية أفلاطون مما أثار غضب الفريقين الشيوعيين والأفلاطونيين معاً.

قراءة هوميروس Homer ، لأن هذا النظام يجعل الأبطال ينضبون والآلهة يضحكون، ويجب منع الدراما لأنها تحوي أشراراً ونساء، والموسيقى يجب أن تكون من أنواع خاصة فقط، التي تعادل في زمننا المعاصر «احكمي يا بريطانيا» و«الأبطال البريطانيون». أما الحكومة فيجب أن تبقى في أيدي أوليغارشية ضئيلة، التي يجب أن تمارس الاحتيال والكذب ـ كالاحتيال في إخراج أوراق الاقتراع لغايات تتعلق بتحسين النسل، وتفضيل الكذب ليقنع الناس بأن هنالك فروقاً بيولوجية بين الطبقات العليا والدنيا. وأخيراً يجب أن يجري قتل الأطفال على قياس واسع حينما تلد الأمهات أطفالاً تخالف نتائج الغش الذي تمارسه الحكومة في سحب أوراق الاقتراع.

أما أن يكون الناس سعداء في هذا المجتمع فمسألة غير هامة، كما أخبرنا، لأن التفوق ينطوي في الكل، لا في الأجزاء. ومدينة أفلاطون هي نسخة عن المدينة الخالدة التي وضعت أسسها في السماء، ولربما استطعنا في السماء أن نتمتع بنوع من الوجود الذي تعرضه لنا، ولكن إذا لم نستطع التمتع به على سطح الأرض فهذا أسوأ النتائج.

وهذا النظام يستمد قوته المقنعة من التزاوج بين التفرض الارستقراطي و«الفلسفة الإلهية»، وإذا ما حذفت الفلسفة الإلهية، تصبح قباحته واضحة. والكلام العذب عن الخير وعن غير المتغير تجعل القارئ مخدراً بالنسبة لقبول العقيدة التي تقول بوجوب حكم الحكماء، وأن غايتهم يجب أن تكون المحافظة على الحالة الراهنة، كالحالة المثالية في السماء. وكل إنسان ذو عقائد سياسية قوية ـ واليونان كانوا على جانب مدهش من العواطف السياسية الحماسية ـ يتضح له بأن «الخير» يكون دائماً بجانب حزبه. وأنهم إذا استطاعوا أن يؤسسوا الدستور الذي يرغبون به فلا تبقى حاجة أخرى ضرورية. هكذا فكر أفلاطون، ولكنه بإخفاء تفكيره في ضباب ميتافيزيقي أكسبه مظهراً نزيهاً وغير شخصي مما أدى إلى خداع العالم عصوراً كثيرة والمثالية بالكمال الثابت الذي استمده أفلاطون بدا وتجسد في نظريته في الأفكار، وهو المثال الذي يعترف بصورة كاملة بأن من غير الممكن تطبيقه في الشؤون البشرية.

والإنسان حيوان قلق، لا يكتفي كما تكتفي البواء Boa (حية كبيرة) بوجبة جيدة مرة في الشهر والنوم بعد ذلك بقية الوقت. والإنسان لا يحتاج في سبيل سعادته إلى التمتع بهذا أو ذاك من الأمور، بل بالأمل والنشاط والتغيير. وكما يقول هوبس: «السعادة تنطوي على ممارسة الترفيه لا بالرفاهة المنجزة». وبين الفلاسفة المعاصرين قد استعيض عن مثل السعادة التي لا تنتهي ولا تتغير بنظرية التطور، التي تنطوي على تقدم نظامي نحو هدف لم يتوصل إليه العالم تماماً أو على كل حال لم يتوصل إليه في سعادة حين تحرير هذا النص. وهذا التغير في وجهة النص هو جزء من استبدال الروح الديناميكية بالثوابت والذي بدأ منذ غاليليو، والذي أثر بصورة متزايدة في شامل الفكر الحديث سواء كان علمياً أو سياسياً.

فالتغيّر شيء والتقدم شيء آخر. فـ «التغيّر» علمي و«التقدم» خلقي، والتغيّر لا ريب فيه، بينما يكون التقدم موضع الجدل. دعنا نتأمل أولاً بالتغيّر كما يبدو في العلم.

بعد زمن غاليليو، اعتقد الفلكيون بعد أرسطو، بأن كل شيء في السماء من القمر وما فوق، ثابت لا يتغير ولا يتطرق إليه الفساد. ومنذ مجيء لابلاس Laplace، لم يعد يؤمن بهذه النظرية أي فلكي مرموق. فالنجوم السديمية والكواكب، قد نمت تدريجياً، كما نؤمن الآن. وبعض النجوم، مثلاً كرفيق الشعري أصبحت «ميتة»، وقد عانت في زمن ما كارثة أنقصت بصورة هائلة كمية الضوء والحرارة اللذين ينبثقان منها. أما كوكبنا، الذي يميل الفلاسفة أن يهتموا به اهتماماً إقليمياً ومفرطاً، فقد كان في الزمن الغابر أكثر حرارة من أن يتحمل وجود الحياة، وسيصبح مع مضي الزمن بارداً جداً. وبعد عصور أنتجت فيها الأرض بعض الحشرات والفراش غير المؤذي، تقدم التطور إلى نقطة أنتج بعدها مجموعة كـ نيرون وجنكيزخان وهتلر. وكان هذا مع ذلك كابوساً عابراً، وستصبح الأرض مع مضي الزمن غير قادرة أيضاً على احتمال الحياة، ويعود السلام إليها.

ولكن هذا الصعود والهبوط غير الفائي، الذي يمكن للعلم أن يقدمه لم يرضِ الفلاسفة. فقد بشروا باكتشاف دستور التقدم، مبينين بأن العالم سيصبح بالتدريج تكوينه أكثر انطباقاً على هواهم. ووصفه فلسفة من هذا النوع هي بسيطة، فالفيلسوف يقرر أولاً ماهية الظواهر للعالم الكائن الذي يبعث فيه السرور والصفات التي تسبب له الألم، وهو بعد ذلك باختيار ماهر بين الحقائق، يقنع نفسه بأن الكون خاضع لقانون شامل يؤدي إلى ازدياد ما يراه هو مسراً ونقص ما يجده مسيء. وبعد ذلك، أي بعد تكوين قانون التقدم هذا، يلتفت إلى الجمهور ويقول: «لقد كتب في لوحة القدر بأن العالم يجب أن يتقدم كما أقول، ولذا فإن أولئك الذين يريدون أن يكونوا في الصف الرابح ولا يبالون بإشهار حرب عقيمة ضد المحتوم الذي لا مناص منه سينضمون إلى حزبي». وأولئك الذين يعاكسونه يندد بهم كأصحاب نظرة غير فلسفية وغر علمية، وقد أكل الدهر عليها وشرب، بينما يكون أولئك المتفقون معه يشعرون بالتأكيد من الظفر، لأن الكون هو من طرفهم، وفي الوقت نفسه يمثل الجانب الرابح بأسباب تظل نوعاً ما مبهمة لجانب الفضيلة.

والرجل الأول الذي طوّر هذه النقطة من هذه النظرة بصورة كاملة كان هيغل. وفلسفة هيغل هي غريبة لدرجة حتى ليحسب المرء ألا ينتظر التفاف أحد من العقلاء حوله في قبولها، ولكنه قد ربح بعضه. وشرع في كتابته بكثير من الغموض حتى ظن الناس أن هذا يعود إلى عمق التفكير. وكان من السهل تماماً تفسيرها بوضوح في كلمات ذات مقطع واحد ولكن عقمها يبدو آنئذ واضحاً. وما يلي ليس صورة هزلية، مع أن الهيغليين سيؤيدون بأنها كذلك دون شك.

إن فلسفة هيغل بإيجاز، هي كما يلي: الحقيقة الواقعية لا زمن لها، كما فكر في ذلك بارمندس Parmenides* وأفلاطون، ولكن ثمة حقيقة ظاهرة

---

* بارمندس فيلسوف يوناني من آليا في جنوبي إيطاليا، ولد حوالي 515 قبل الميلاد. كانت بعض أدلته ضد اللاوجود قد وجهت بصفة خاصة إلى ثنائية فيثاغورس. لكنه هو نفسه أوجز فلسفة كونية مؤداها أن العالم يتركب من جوهرين أو من صورتين متضادتين هما النار والليل. المترجم

أيضاً تتطوي على عالم كل يوم في المكان والزمان. وصفة الحقيقة الواقعية لا يحدد إلا بالمنطق فقط، إذ أن هنالك نوعاً من الحقيقة الممكنة التي لا تتصف، وهذه تدعى «الفكرة المطلقة». ويحددها بقوله هي عبارة عن: «الفكر كوحدة للفكرة الذاتية والموضوعية معاً وهي رأي الفكر وهو رأي ـ غايته هي الفكرة كما هي، وهذه الغاية هي الفكرة ـ وهي غاية تضم جميع الصفات في وحدتها». وإنني لأمقت أن أفسد هذا الوضوح اللامع لهذه الجملة بأي تعليق، ولكن الشيء نفسه يمكن الإعراب عنه في الواقع بالقول: «إن الفكرة المطلقة هي التفكير الصافي في تفكيره للفكر الصافي». وهيغل قد برهن بما يرضي نفسه بأن الحقيقة كلها هي فكر، ويترتب على ذلك أن الفكرة لا يمكن أن يفكر بها إلا في الفكر، إذ ليس ثمة شيء يمكن التفكير به. وبعض الناس قد يجدون في هذا القول، شيئاً من البلادة، ويمكن أن يقولوا: «أود أن أفكر في كيب هورن Cape Horn والقطب الجنوبي وقمة إفرست وسديم أندروميدا Andromeda العظيم، وإنني لأجد متعة في التأمل بالعصور التي كانت الأراضي فيها آخذة في البرودة بينما كان البحر يغلي والبراكين ترتفع وتهبط بين ليل وصباح. وإنني لأجد رأيك بوجوب امتلاء ذهني بتعقيدات الأساتذة الذين ينسجون الكلام والتي هي تافهة بصورة لا تحتمل، والواقع، إذا كانت هذه هي «نهايتك السعيدة»، فلا أظن من الجدير الخوض في كل هذا الكلام الهادر الذي أدى إليه». وبهذه الكلمات قد يقولون وداعاً للفلسفة ويعيشون سعداء بعد ذلك.

ولكننا إذا اتفقنا مع هؤلاء الناس فإننا نظلم هيغل، مما يمنعه الله. لأن هيغل قد يدلنا على أن المطلق، كإله أرسطو، لا يفكر بشيء أبداً لا في ذاته، لأنه يعرف بأن كل شيء آخر هو وهم، ومع ذلك فنحن المجبرون على العيش في عالم الظواهر كعبيد لسير الزمن نرى الأجزاء ولا نشعر بالكلي إلا بصورة مبهمة في هنيهات الاستبصار الصوفي، ونحن النتاج الوهمي للوهم مجبرون على التفكير وكأن كيب هورن ممكن أن يكتفي بذاته وليس فقط فكرة في العقل الإلهي. حينما نفكر بكيب هورن، وما يحدث في الواقع فإن المطلق يدرك فكرة الكيب هورن. وفي الواقع أنه يحوز على هذا الفكر أو على مظهر من الفكرة الواحدة التي تفكر خارج نطاق الزمن، وهذه هي الحقيقة الوحيدة التي

تنتمي إلى كيب هورن، ولما كنا لا نستطيع بلوغ هذه الذُرى فإننا نبذل الجهد بأن نفكر فيها بالطريقة الجغرافية العادية.

ولكن، قد يقول أحدهم، ما علاقة كل هذا القول بالسياسة؟ ولأول وهلة ربما يبدو أن العلاقة ضئيلة. ولكن بالنسبة لهيغل، مع ذلك، فالعلاقة واضحة، ويترتب على نظريته الميتافيزيقية في أن تنطوي الحرية الحقيقية على الطاعة لسلطة تعسفية، وأن القول الحر هو الشر، وأن الملكية المطلقة هي خير، وأن الدولة البروسية كانت أفضل دولة موجودة في الزمن الذي كان يكتب فيه آرائه، وأن الحرب خير، وأن إيجاد منظمة دولية لحل الخلافات بصورة سلمية سيكون كارثة.

من الممكن لبعض من قرائي أن لا يروا فوراً كيف تتابع هذه النتائج، ولذا أرجو السماح لي بالقول بضع كلمات عن الخطى الوسيطة.

مع أن الزمن غير حقيقي، فإن سلسلة المظاهر التي يتكون منها التاريخ لها صلة غريبة بالحقيقة. فهيغل قد اكتشف طبيعة الواقع بأسلوب منطقي بحت دعاه بـ «الجدلية» الذي يتألف من اكتشاف التناقض في الأفكار المجردة وتصحيحها بجعلها أقل تجريداً. وكل فكرة مجردة من هذه الأفكار يمكن تصورها كمرحلة في نمو «الفكرة» فتصحب المرحلة الأخيرة «الفكرة المطلقة».

ومن الغرابة بما فيه الكفاية بسبب لم يكشف هيغل الستار عنه أبداً، فإن السير الزمني للتاريخ يكرر النمو المنطقي للجدلية. ويمكن أن يتصور المرء، بما أن الميتافيزيق يعلن انطباقه على الحقيقة الواقعية كلها، فإن السير الزمني الذي يوازيه قد يكون كونياً لأجزاء منه، فهو أرضي بصورة صرفة، مقتصر على التاريخ المسجل و(بمقدار ما يبدو قابل للتدقيق يبدو هذا قابلاً للتصديق) وعلى التاريخ الذي صدف أن عرفه هيغل نفسه. لقد تجسدت مراحل الفكرة في مختلف الأمم وفي مختلف الأزمان، في النقطة التي وصلت إليها الجدلية في تلك الأزمان. وبالنسبة للصين، كانت موجودة لهيغل ولذا فالصين تمثل مقولة الوجود الصرفة. أما الهند فقد عرف هيغل فقط بأن البوذيين كانوا يؤمنون بالنيرفانا Nirvana، ولذا فالهند كانت تمثل مقولة الفناء أو الاندثار. أما اليونانيون

والرومانيون فقد ساروا قدماً في قائمة المقولات، ولكن المراحل الأخيرة تركت للألمان الذين كانوا عند سقوط روما، جملة اللواء الوحيدين للفكرة، وحققوا قبيل سنة 1830 تقريباً الفكرة المطلقة.

إن كل إنسان لا زال يخامره الأمل بأن الإنسان هو أكثر أو أقل حيوان عاقل، فإن نجاح هذا الخليط من الهذيان لا بد أن يكون مذهلاً. وفي زمنه، قبلت طريقته من سائر أفراد الطبقة المثقفة أكاديمياً من الشباب الألمان تقريباً، والتي يمكن تفسيرها بأنها تدغدغ الاعتبار الذاتي في الألمان، ولكن ما هو أكثر عجباً هي نجاح هذه الفكرة خارج ألمانيا. فحينما كنت شاباً كان معظم أساتذة الفلسفة في الجامعات البريطانية والأمريكية هيغليين، حتى أنني بقيت إلى أن قرأت هيغل، مفترضاً بأن هنالك شيئاً من الحقيقة في هذه الطريقة، ولكنني شفيت مع ذلك باكتشاف أن كل ما قاله عن فلسفة الرياضيات كان هذياناً واضحاً.

واعجب من هذا كله كان تأثيره على ماركس، الذي استمد منه معظم آرائه الوهمية، لاسيما الاعتقاد بأن التاريخ يتقدم بموجب خطة منطقية، وكان معنياً كجدلي مجرد صرف، أن يجد طرقاً لتجنب التناقض الذاتي. وفي جزء كبير من سطح الأرض ستصبح قابلاً للتصفية إذا شككت بهذه العقيدة، ورجال العلم البارزين في الغرب، الذين يتعاطفون سياسياً مع روسيا، يبينون عاطفتهم باستعمال كلمة «تناقض» بطرائق لا يستطيع أن يوافق عليها أي منطقي يحترم نفسه.

وبتتبع العلاقة بين السياسة والميتافيزيق في رجل كهيغل، يجب علينا أن نكتفي ببعض السمات العامة لبرنامجه العملي، وقد كان تمجيد هيغل لبروسيا ضرباً من المصادفة، وفي سنيه الأولى قد أعجب بنابليون بحماس، وأصبح وطنياً ألمانياً فقط حين غدا موظفاً في الدولة البروسية، وحتى في الجزء الأخير من فلسفته في التاريخ، مازال يذكر الإسكندر، وقيصر، ونابليون لأناس بلغوا من العظمة مقداراً يجعل لهم الحق أن يعتبروا أنفسهم معفيين من واجبات القانون الأخلاقي. وما أجبرته فلسفته على الإعجاب لم يكن بألمانيا ضد فرنسا، بل

بالنظام، والتنسيق، والترتيب وشدة المراقبة الحكومية. وتأليهه للدولة قد يكون باعثاً على الصدمة لو كانت الدولة المعنية هي نظام نابليون المطلق الاستبدادي. وفي رأيه أنه كان يعرف ما يريده العالم، مع أن معظم الناس لا يعرفون لحكومة قوية تستطيع أن تجبر الناس على فعل الأفضل، الأمر الذي لا تستطيع أن تفعله الديمقراطية أبداً. وهرقليطس Heraclitus* الذي كان هيغل مديناً له بعمق، يقول: «كل حيوان يساق إلى المرعى بالسياط»، ودعنا على كل حال، نتأكد من هذه السياط، فأن قيادة هذه الحيوانات إلى المرعى هو أمر ذو أهمية صغرى إلا فيما يعني البهائم والحيوانات دون شك.

من الواضح أن طريقة الحكم المطلق التي اقترحها هيغل أو تلك التي يقترحها تلاميذ ماركس في هذه الأيام، هي مبررة فقط على أساس عقيدة لا يتطرق إليها الشك. إذا عرفت بالتأكيد غاية الكون بالنسبة للحياة الإنسانية، وما الذي سيحدث، وما هو خير للناس حتى ولو لم يفكروا في ذلك، وإذا كنت تستطيع، كما فعل هيغل، أن تقول بأن نظريته في التاريخ هي: «نتيجة لما صدف أن عرضه، لأنني اجتزت الحقل بكامله» ـ فحينئذ ستشعر بأن الضبط مهما كان ليس كبيراً بالقدر الزائد، بشرط أن يؤدي إلى الهدف.

والفلسفة الوحيدة التي تعرض تبريراً نظرياً للديمقراطية، والتي تتفق مع الديمقراطية في مزاجها العقلي، هي الفلسفة التجريبية. فلوك الذي قد يعتبر بالنسبة للعالم الحديث، كمؤسس للفلسفة التجريبية، أوضح مقدار توثق هذه الصلة مع آرائه في الحرية والتسامح، وفي مخاصمته للملكية المطلقة. ولم يتعب أبداً من التوكيد على عدم صحة أغلب معرفتنا، لأبنية شكوكية كما هو الحال في هيوم، بل بنية جعل الناس مدركين بأنهم قد يكونون على خطأ، وأن يأخذوا هذا في الحسبان في كل ما يعالجونه من آراء مع رجال يختلفون عنهم في تلك الآراء، ولقد رأى الشرور التي حصلت من «حماس» الطائفيين، ومن عقيدة

---

* هرقليطس من أفسوس، ازدهر حوالي عام 500ق.م. انسحب من المجتمع وهاجم أهل المدينة والناس عامة لغبائهم هجوماً توسل له بعبارات اشتهرت بغموضها. المترجم

الحق الإلهي للملوك معاً وقدم مقابل هذه العقيدة نظرية سياسية متدرجة ومنقحة يجب أن تجرب في كل نقطة في نجاحها العملي.

وما يمكن أن يدعى، في معنى واسع من نظرية الليبرالية في السياسة هو محصول مكرر للتجارة. وأول مثل معروف لذلك كانت المدن الإيونية Ionian في آسيا الصغرى، التي كانت تعيش من تجارتها مع مصر وليبيا. وحينما أصبحت اثينا في عصر بيركليس Pericles تجارية، أصبح الأثينيون ليبراليين. وبعد كسوف طويل عادت الأفكار الليبرالية إلى الانتعاش في المدن اللومباردية Lombard في العصور الوسطى، وانتشرت في إيطاليا حتى أخمدها الأسبانيون في القرن السادس عشر. ولكن الأسبانيين فشلوا في إعادة غزو هولندا أو إخضاع إنكلترا، وقد كان هذان القطران هما سادة الليبرالية وقادة التجارة في القرن السابع عشر. أما في عهدنا الحاضر فقد انتقلت الزعامة إلى الولايات المتحدة.

إن أسباب ارتباط التجارة بالليبرالية واضحة. فالتجارة تحمل الناس على الاتصال بالعادات القبلية المختلفة عن عاداتهم، وبذلك تهدم التعصب في غير المسافرين والصلة بين البائع والشاري هي صلة مفاوضات بين طرفين كلاهما حر، وإذا استطاع الشاري أو البائع فهم وجهة النظر الأخرى يصبح الأمر أكثر فائدة. وهنالك طبعاً تجارة إمبريالية، يجبر فيها الناس على الشراء برؤوس الحراب، ولكن هذه التجارة ليست بالنوع الذي يولد فلسفات ليبرالية، التي ازدهرت إلى أقصى حد في المدن التجارية التي تحوز على ثروة دون أن تمتلك كثيراً من القوة الحربية. وفي اليوم الراهن، تعد أقرب المدن التجارية مضاهاة للمدن التجارية القديمة والقرون الوسطى تلك الموجودة في الأقطار الصغرى كسويسرا وهولندا وأسكندينافيا.

والعقيدة الليبرالية هي في الواقع العملي أن تعيش وأن تدع الآخرين يعيشون، وهي التسامح والحرية بقدر ما يسمح بهما النظام العام وبالاعتدال وانتفاء التعصب في البرامج السياسية. وحتى الديمقراطية نفسها حينما تصبح متعصبة كما أصبحت بين تلاميذ روسو في الثورة الأفرنسية، تتوقف عن ليبراليتها، والواقع أن اعتقاداً تعصبياً في الديمقراطية يجعل المؤسسات

الديمقراطية مستحيلة، كما ظهرت في إنكلترا تحت حكم كرومويل Cromwell وفي فرنسا تحت حكم روبسبير Robespierre والليبرالي الحقيقي لا يقول: «هذا حقيقي» بل يقول: «أنا أميل للتفكير بأن هذا الرأي في الظروف الراهنة هو الأرجح بل أفضل الآراء»، وفي نطاق هذا المعنى المحدود غير العقائدي فقط يمكن أن ندافع عن الديمقراطية.

ما علاقة الفلسفة النظرية في القول بأن هذا ملائم لقيمة النظرة الليبرالية أو غير ذلك؟

إن الجوهر في النظرة الليبرالية لا يقوم على ماهية الآراء المعتقدة، بل كيف يجري الاعتقاد فيها: فبدلاً من أن تكون مقبولة مذهبياً، تكون مقبولة تجريبياً، وبوعي بأن برهاناً جديداً قد يؤدي في أي برهة إلى هجر هذا الرأي. هذه هي الطريقة التي تجري عليها الأمور في العلم وهي معاكسة للطريقة التي تجري عليها الأمور في اللاهوت. وقرارات مجمع نيسيا Council of Nicaea* لا تزال ذات سلطة، ولكن في العلم لم تعد آراء القرن الرابع ذات وزن أو قيمة. وفي الاتحاد السوفييتي أصبحت املاءات ماركس في الجدلية المادية لا يتطرق إليها الشك، حتى غدت تساعد علماء الوراثة لتقرير النظريات في كيفية الحصول على أفضل أنسال الحنطة[1]، مع أن الأمر في الأماكن الأخرى يجري على أساس الفكرة بأن التجربة هي الطريقة الصحيحة لدراسة هذه المشاكل. والعلم تجريبي، اختباري، وغير عقائدي، وكل عقيدة لا تقبل التغيير هي غير علمية. فالنظرة العلمية، لذلك، هي المقابل الفكري لما يعد في النطاق العملي وجهة النظر الليبرالية.

---

* عنى رسل هنا مجمع نيسيا الأول 325م، وهو أول أربع مجامع للكنائس المسيحية كاملة. وعقد المجمع الثاني عام 787. المترجم

(1) راجع كتاب: نظريات علم الوراثة المدنية في الاتحاد السوفييتي، بقلم هدسون وريشينز. مدرسة الزراعة، كمبردج 1946.

ولوك الذي نما لأول مرة بتفصيل نظرية المعرفة التجريبية، كان يبشر أيضاً بالتسامح الديني، وبالمؤسسات التمثيلية وبتجديد سلطة الحكومة في نظام التفتيش وإعادة التوازن. وقليل من عقائده كانت جديدة، لكنه نماها بطريقة قوية ذات وزن في الوقت الذي كانت الحكومة الإنكليزية مستعدة لقبولها تماماً. وهو كغيره من رجال 1688 كان متمرداً بكراهة منه، فكان يمقت الفوضى كما كان يمقت الاستبداد. ففي الشؤون الفكرية والعملية كان يقف إلى جانب النظام دون السلطة، وهذا يمكن أن يتخذ شعاراً لكل من العلم والليبرالية، فهو يتعلق بوضوح بالمصادقة أو الموافقة. وفي العالم الفكري ينطوي هذا الرأي على معايير من الأدلة التي يترتب بعدها على النقاش الملائم في أن تؤدي إلى قدر من الاتفاق بين الخبراء. وفي العالم العملي تتضمن خضوعاً للأكثرية بعد أن تسنح الفرصة لكل الأحزاب الأخرى بعرض وجهة نظرها.

وفي كلا الناحيتين كانت البرهة التي مر بها برهة حسنة الحظر. فالجدل العظيم بين النظامين البطليموسي Ptolemaic والكوبرنيكي Copernican قد تقرر ولم يعد في الإمكان أن تحل المشاكل العلمية باللجوء إلى أرسطو. وأن إشارات نيوتن تبدو بأنها كانت تبرر التفائل العلمي غير المحدود. وفي العالم العملي كانت الحروب الدينية التي استمرت قرناً ونصف قرن غير مؤثرة في التوازن والتغير في القوى بين البروتستانت والكاثوليك. فالرجال المستيرون شرعوا ينظرون إلى المناقشات اللاهوتية كأمور تافهة، كما صوّر سويفت Swift في كاريكاتور كتابي ممثلة في الحرب بين الانتهائيين الكبار والانتهائيين الصغار. والمذاهب البروتستانيتية المتطرفة، باعتمادها على النور الداخلي، جعلت ما يسمى بالتجلي يتحول إلى قوة فوضوية. فالمشاريع المدهشة، سواء كانت علمية أو تجارية، دعت الرجال النشيطين أن ينصرفوا عن الخصومة العقيمة. ولحسن الحظ قبلوا الدعوة ونجم عن ذلك قرنان من التقدم لا مثيل لهما.

ونحن الآن أيضاً في عصر من الحروب الدينية، ولكن هذا الدين يسمى «إيديولوجيا أو عقائدية». وفي تلك البرهة، أخذ الناس يشعرون بأن الفلسفة الليبرالية كثيرة المرونة وأصبحت في عمر وسيط: ثمة نظرة مثالية لشيء أكثر

صرامة في صفاته وهو شيء يحوز على جواب حاسم لكل أسئلتهم، والذي يدعو لنشاط رسالي ويمنح الأمل بأن يجلب العصر الذهبي عن طريق الغزو. وباختصار، فإننا انغمرنا في عصر مستجد من الإيمان. ومع الأسف فأن القنبلة الذرية هي أكثر تهديماً للناس من الحريق، ولا يمكن أن يسمح بها بأمان في السياق الطويل. ويجب علينا ان نأمل بأن من الممكن أن تسود نظرة أكثر عقلانية لأننا نستطيع فقط بإحياء التجربة الليبرالية والتسامح بأن نجعل العالم باقياً على قيد الحياة.

فالنظرة التجريبية للمعرفة ـ التي اعتقد بها مع بعض التحفظات ـ هي في منتصف الطريق بين العقائدية والشكوكية. فتقريباً، نعتقد بأن كل المعرفة إلى درجة ما قابلة للشك، مع أن الشك، إذا كان ثمة شك، هو أمر ضئيل فيما يتعلق بالرياضيات الصرفة وحقائق الإدراك الحسي اليومي. والشك فيما يعتبر معرفة، هو قضية درجة، وبالقراءة الحديثة لكتابه عن الغزوة الأنجلوسكونية Anglo-Saxon لبريطانيا، أصبح معتقداً موجهاً للهنجست Hengist ووجد شاك بوجود الهورسا Horsa. ونظرية اينشتين العامة في النسبية هي في الأرجح حقيقة، ولكنك حين تأتي لحساب مساحة الكون يمكننا أن نسامح انفسنا بأن تأتي الدراسات المتأخرة فيما بعد بنتيجة مخالفة. والنظرية الحديثة للذرة هي حقيقة براغماتية لأنها مكنتنا من بناء قنابل يدوية: ونتائجها هي ما يسميه الذرائعيون بظن أمراً مرضياً. ولكن ليس من غير المحتمل بأن نظرية أخرى مختلفة قد توجد مع الزمن وتعطي تفسيراً أفضل للحقائق المشاهدة. والنظريات العلمية هي مقبولة كفرضيات مفيدة توحي بالقيام بتنقيب أقصى، وأن فيها عنصراً من الحقيقة تستطيع بواسطته أن توحد أو تدغم المشاهدات الموجودة، ولكن ليس ثمة رجل عاقل يعتبرها كاملة بصورة ثابتة.

أما في مجال السياسة العملية فسينجم عن هذا الموقف نتائج هامة. وفي المكان الأول، ليس من الجدير أن تحدث أمراً سيئاً حالياً ونسبياً في سبيل مستقبل حسن نسبياً. فإذا كان اللاهوت في الأزمان السابقة صحيحاً تماماً، إذاً فمن الجدير أن يحرق عدد من الناس في المحارق لكي يستطيع الباقون على قيد

الحياة أن يذهبوا إلى الجنة، ولكن إذا كان من المشكوك به أن يذهب الضالون أو الهراطقة إلى جهنم فإن الحجة في التعذيب لا تساوي أي قيمة. وإذا كان من المؤكد أن تصبح دولة النبوءات الماركسية حقيقية وذلك حينما يلغى الرأسمالي الخاص حالاً فسنكون لذلك فيما بعد أسعد حالاً. إذاً، من الصحيح أن نحقق هذه الغاية بواسطة الدكتاتوريات، ومعسكرات الاعتقال، والحروب العالمية، ولكن إذا كانت النتيجة مشكوك بها أو أن الوسائل لتحقيقها غير مؤكدة يصبح الشقاء الحالي حجة لا تقاوم ضد المناهج الصارمة. ولو كان من المؤكد أن يتحول العالم إلى جنة بخلوه من اليهود فلن يبقى اعتراضاً ذا قيمة لمعسكرات أوشفتز Auschwitz، ولكن إذا كان من المرجح أكثر بكثير أن يكون العالم الناشئ عن مناهج كهذه جهنماً، فإننا نستطيع أن نسمح للتكيف بحرية بمعاكستنا الإنسانية ضد القساوة.

وبكلام أوسع، بما أن النتائج البعيدة للأعمال هي أكثر عرضة للشك من النتائج المباشرة، فمن النادر أن نبرر الشروع في سياسة على أساس أنها قد تكون مؤذية في الوقت الراهن، لكنها ستصبح مفيدة في السياق الطويل. وهذا المبدأ، ككل المبادئ الأخرى التي يعمل بها التجريبيون يجب أن لا يحتفظ به بصورة مطلقة، وثمة حالات تكون فيها نتائج المستقبل لسياسة معينة مؤكدة تقريباً وغير مسرة، بينما تكون النتائج الأخرى وإن كانت ليست مسرة قابلة للاحتمال بسهولة، وهذا ينطبق مثلاً على ادخار الطعام لأجل فصل الشتاء، واستثمار رأس المال في بناء المعامل وهلمجرا. ولكن حتى في هذه الحالات فلا يجب أن نقصي عن نظرنا عدم التأكد. وفي حالات ازدهار ماكينز من الاستثمار ينتهي بصورة غير مريحة أو مجزية، فالاقتصاديون المعاصرون يعترفون بأن عادة الاستثمار ممكن تنفيذها بشكل واسع أكثر من الاستهلاك.

ومن المعروف تحريضاً أن حرباً بين الليبراليين والمتعصبين تنتهي بالتأكيد بانتصار المتعصبين، وذلك بالنظر لإيمانهم الراسخ في صحة قضيتهم. وهذا الرأي لا يموت بسهولة مع أن التاريخ كله، وبما في ذلك السنين الأخيرة، هي ضد هذا الاعتقاد. والمتعصبون قد فشلوا مراراً وتكراراً، لأنهم حاولوا المستحيل، أو لأن

الهدف الذي يرمون إليه وإن كان ممكناً فقد كان هؤلاء بعيدين عن الأسلوب العلمي في اختيار الوسائل الصحيحة، وقد فشلوا أيضاً لأنهم قد أثاروا أعداء أولئك الذين أرادوا أن يسيطروا عليهم. وفي كل حرب هامة منذ سنة 1700، كان المنتصر هو الطرف الديمقراطي. ويعود هذا جزئياً لأن الديمقراطية والتجريبية (وهما متشابكان بصورة حميمية) لا يتطلبان تشويهاً في الحقائق لصالح النظرية. وإن روسيا وكندا، اللتان تحوزان على ظروف مناخية متشابهة إلى حد ما كلاهما مهتم بالحصول على أنسال أفضل من الحنطة، وفي كندا تتحقق هذه الغاية بالطرق التجريبية، ولكن في روسيا بالنصوص الماركسية.

إن الطرائق المذهبية التي لا ترتكز إلى دعامة تجريبية كاللاهوتية القروسطية، والماركسية، والفاشية تمتاز بإنتاج درجة كبيرة من التناسق الاجتماعي بين تلاميذها. ولكنها تحوز على نقيصة تنطوي في تعذيب أجزاء ثمينة من السكان. فإسبانيا قد تهدمت بطرد اليهود والعرب، وفرنسا تعذبت عند هجرة الهوجينوتز Huguenots بعد مرسوم نانتس Nantes، ويرجح أن ألمانيا قد تكون الأولى في حقل القنبلة الذرية لولا بغض هتلر لليهود. وللإعادة نقول: أن الأساليب العقائدية لها نقيصتان إضافيتان لاحتوائها على العقائد الكاذبة المتعلقة بالشؤون الواقعية الهامة من الوجهة العملية، وبإثارتها العداء العنيف في أولئك الذين لا يشاطرونها تعصبها. ولهذه الأسباب المختلفة، ليس من المأمول في السياق الطويل أن الأمم المدمنة بالفلسفة العقائدية ضرورية للتناسق الاجتماعي حينما ينادى لتحقيق هذا التناسق، وليس من أمة بينت مقداراً أكبر من هذا التحقيق مما أبدته الأمة البريطانية سنة 1940.

وأخيراً يمكن أن تمتدح التجريبية، لا على أساس حقيقتها الأوفى، ولكن على أسس أخلاقية أيضاً. فالعقائدية تتطلب سلطة أكثر مما تطلب فكراً ذكياً كمصدر للرأي، وهي تتطلب التعذيب للهراطقة والعداء لغير المؤمنين، كما تطلب من طلابها أن يقمعوا اللطف الطبيعي لصالح البغض المنهجي. وبما أن الحجة غير معترف بها كوسيلة للوصول إلى الحقيقة، فإن أنصار العقائد المتخاصمة ليس أمامهم منهج إلا الحرب لكي يستطيعوا أن يصلوا

عن طريقها إلى المرحلة الحاسمة. والحرب في عصرنا العلمي تعني، عاجلاً أو آجلاً، الموت الشامل.

كما أختتم كلامي بأننا في أيامنا هذه كما كان في زمن لوك، فأن الليبرالية التجريبية (والتي هي لا تتعارض مع الاشتراكية الديمقراطية) هي الفلسفة الوحيدة التي يمكن اختيارها لرجل يريد من جهة برهاناً علمياً لعقائده، ومن جهة أخرى يرغب في السعادة البشرية أكثر من تفوق هذا أو ذاك من الأحزاب والعقائد. وأن عالمنا المضطرب والصعب يحتاج إلى أشياء كثيرة إذا أريد له أن ينجو من الكارثة، وبين هذه الأشياء الأكثر ضرورة أن الأمم التي لا تزال تتمسك بالعقائد الليبرالية يجب أن تصبح هذه العقائد لها حميمية في القلب وعميقة، لا مدافعة عن العقائديات في اليمين أو اليسار، بل مقتنعة بعمق بقيمة الحرية، والتحرر العلمي، والاحتمال المتبادل بين الناس؛ لأنه بدون هذه الحقائق يصبح من المتعذر أن يكون كوكبنا هذا الموحد تقنياً والمنقسم سياسياً أن يبقى على قيد الحياة.

* * *

(2)

الفلسفة لغير الأخصائيين

منذ أن ظهرت مجتمعات حضارية، جوبه الإنسان بمشاكل من نوعين مختلفين. فمن جهة واحدة كانت مشكلة إخضاع القوى الطبيعية، واكتساب المعرفة والمهارة المطلوبة لإنتاج أدوات وأسلحة ولتشجيع الطبيعة على إنتاج حيوانات ونباتات نافعة. وهذه المشكلة، عولجت في العصر الحديث بواسطة العلم والتقنية العلمية، وقد دلت التجربة على أنك إذا أردت أن تعالجها بشكل ملائم من الضروري تدريب عدد كبير من الأخصائيين ذوي الاختصاص الضيق نوعاً ما.

ولكن ثمة مشكلة أخرى، أقل دقة، ويعتبرها البعض خطأ غير هامة ـ وأعني بذلك المشكلة التي تنطوي على كيفية استعمال قيادتنا لهذه القوى في الطبيعة. وهذه تتضمن مشاكل حادة كالديمقراطية أزاء أو ضد الدكتاتورية، والرأسمالية ضد الاشتراكية، والحكومة الدولية ضد الفوضى الدولية، والتأمل الحر ضد العقيدة السلطوية. وفي هذه المشاكل لا يستطيع المخبر أن يمنحنا أي إرشاد حاسم. ونوع المعرفة الذي يساعدنا في الأكثر على حل هذه المشاكل هي مسح واسع للحياة الإنسانية، في الماضي وفي الحاضر أيضاً، وتقدير لمصادر الشقاء أو الاكتفاء كما يظهر في التاريخ. وسيظهر بأن زيادة المهارة لم تؤمن، بذاتها، أي زيادة في سعادة الإنسان أو رفاهيته. وحينما تعلم الناس في البدء أن يزرعوا الأرض، استعملوا معرفتهم ليؤسسوا عبادة قاسية ترتكز إلى التضحية البشرية. والناس الذين جعلوا الحصان أليفاً لأول مرة استخدموه للنهب ولاستعباد الشعوب المسالمة. وحينما كانت الثورة الصناعية في طفولتها، اكتشف الناس كيفية صنع السلع القطنية بواسطة الآلة، وكانت النتائج مرعبة. فحركة جفرسون Jefferson لتحرير العبيد في أمريكا، التي

كانت على وشك النجاح، فتلت في مهدها، وعمل الأطفال في المصانع في إنكلترا وصل إلى نقطة مخيفة من القساوة، والإمبريالية الظالمة في أفريقيا قد دفعها في عملها الأمل بأن يصبح الأناس السود مقتنعين بأن يتسربلوا بألبسة قطنية. وفي يومنا هذا أنتج اتحاد العبقرية العلمية والمهارة التقنية القنبلة الذرية، ولكنها بعد أن انتجت أصبحنا كلنا وجلين، ولا ندري ما نفعل بها. وهذه الأمثلة المستمدة من أزمنة مختلفة بصورة واسعة من التاريخ، تبين لنا بأن اللازم استخدام شيء أكثر من المهارة، شيء يمكننا أن ندعوه «الحكمة» وهذا شيء يجب تعلمه إذا أمكن ذلك بواسطة دروس أخرى مختلفة.، عما تحتاجه دراسة التقنية العلمية. وهو شيء نفتقر إليه الآن أكثر مما كان في أي زمن مضى، لأن النمو السريع للتقنية قد جعلت عادات الفكر والعمل أقل ملاءمة مما كانت عليه في أي وقت مضى.

و«الفلسفة» تعني «حب الحكمة»، والفلسفة في هذا المعنى هو ما يجب على الناس أن يكتسبوه إذا أريد ألا تفوص القوى المخترعة من قبل التقنيين، والمعطاة من قبلهم لكي لا تجعل الإنسانية تفوص في كارثة أو هزة مرعبة. ولكن الفلسفة التي يجب أن تكون جزءاً من التعليم العام ليست هي نفس الشيء كفلسفة الأخصائيين. وليس الأمر كذلك في الفلسفة فحسب، بل في كل فروع الدراسة الأكاديمية أيضاً، يوجد فرق بين ما ينطوي على قيمة ثقافية وما يحوز على أهمية مهنية فقط. والمؤرخون قد يبحثون عما حدث في حملة سنحاريب Sennacherib غير الناجحة سنة 698 قبل الميلاد، ولكن أولئك الذين لا ينتمون إلى المؤرخين لا يحتاجون إلى معرفة الفرق بينها وحملته الناجحة قبل ثلاث سنين. والإغريق المهنيون قد يناقشون بصورة نافعة قراءة مختلف عليها في رواية أسخيلوس Aeschylus، ولكن هذه القضايا لا تخص الإنسان الذي يرغب، بالرغم من حياته المليئة بالعمل، أن يكتسب بعض المعرفة لما أنجزه الإغريق. كذلك فالناس الذين يكرسون حياتهم للفلسفة يجب أن ينظروا في المسائل التي يحق للجمهور المتعلم بصورة شاملة أن يتجاهلها، كالفروق بين

نظرية الكليات لاكويناس وفي دانزسكوتس Duns Scotus*، أو الصفات التي يجب أن تتحلى بها لغة إذا أريد لها المقدرة أن تعرب عن أشياء عن نفسها، دون سقوط في حمأة الثرثرة. فهذه المسائل تنتمي إلى المظاهر التقنية للفلسفة، ومناقشتها لا يمكن أن تكون جزءاً من عطائها للثقافة العامة.

والتعليم الأكاديمي يجب أن يهدف، كمقوّم للتخصص الذي بزيادته للمعرفة جعل هذه المعرفة لا مناص من غموضها، وذلك بمقدار ما يسمح الوقت من أن تنطوي الدراسات في التاريخ، والأدب والفلسفة على قيمة ثقافية فيه. ويجب أن يصبح من السهل لشاب لا يلم أي إلمام باللغة اليونانية أن يحصل واسطة التراجم على بعض الفهم، مهما كانت غير ملائمة، والتي تدل على ما أنجزه اليونان. فبدلاً من أن يدرس الملوك الأنجلوسكسون مراراً وتكراراً في المدرسة، يجب أن تجري محاولة لإعطاء نظرة عن التاريخ العالمي، فتصبح مشاكلنا الراهنة على صلة بالمشاكل التي كان يعالجها القسس المصريون، والملوك البابليون، ورجال الإصلاح الأثينيون، وأن تكون على صلة أيضاً بكل عوامل الأمل واليأس في القرون بين العهدين. ولكنني أريد أن أكتب الفلسفة فقط، معالجة من وجهة النظر المشابهة.

فالفلسفة كانت تهتم منذ أيامها الأولى بهدفين مختلفين اللذين كان يعتقد الفلاسفة بأنهما متراحمين. فمن جهة واحدة، كانت تهدف إلى فهم نظري لتركيب العالم، ومن جهة أخرى، جربت أن تكتشف وأن تركز افضل طريقة للحياة. ومن عهد هيرقليطس Heraclitus إلى هيغل، بل حتى إلى ماركس،

---

* دانزسكوتس هو أحد رجال الدين الذي قام بينه وبين أنصار أكويناس جدل كبير، ككل رجال الدين في اجتهاداتهم المختلفة، كل واحد منهم يريد أن يثبت وجهة نظره الصحيحة، فكان من أنصار أكويناس الذين يسمون توميس أن عنوا باسمه (دانز) الأبله أو الجاهل لمخالفته رأيهم، وبذلك كسبت اللغة الإنكليزية كلمة جديدة وهي دانز Dunce وتعني، كما أسلفنا، الأبله أو الجاهل. المترجم

وضعت كلاً من الهدفين نصب عينها، فلم تكن نظرية صرفة فقط ولا عملية صرفة، بل بحثت عن نظرية للكون يمكن أن ترتكز إليها فلسفة أخلاق عملية.

لقد أوثقت صلات الفلسفة بالعلم من جهة، وبالدين من جهة أخرى. فلننظر أولاً لصلتها بالعلم. حتى القرن الثامن عشر كان العلم منطوياً بما كان يسمى «بالفلسفة» بصورة شائعة، ولكن منذ ذلك الحين انحصرت كلمة «فلسفة» من الناحية النظرية في أكثر المواضيع تأملاً وشمولاً، وذلك في المواضيع التي يعالجها العلم. وكثيراً ما يقال بأن الفلسفة غير تقدمية، ولكن هذا إلى حد كبير أمر لفظي: فحالما يوجد طريق للوصول إلى معرفة محدودة تتعلق بموضوع قديم تعتبر المعرفة الجديدة بأنها تنتمي «للعلم»، وأن «الفلسفة» هي محرومة من كل فضل بذلك. وفي العصور الإغريقية وحتى زمن نيوتن، كانت نظرية الكواكب تنتمي إلى «الفلسفة»، لأنها كانت غير مؤكدة وتأملية، ولكن نيوتن عزل الموضوع عن ملاك أعماله الفرضية وجعله مرتبطاً بنموذج مختلف من المهارة عما كان يقتضيه، حينما كان لا يزال عرضة للشكوك الأساسية. وأناالكسيمندر Anaximander في القرن السادس قبل الميلاد أخرج نظرية في التطور وقرر بأن الناس قد تولدوا من السمك. وهذه كانت فلسفة لأنها كانت مجرد تأمل لا تدعمه البراهين المفصلة، ولكن نظرية داروين كانت علماً، لأنها ارتكزت إلى تتابع أشكال الحياة كما وجدت في المستحثات، وكذلك كانت ترتكز إلى توزيع الحيوانات والنباتات في كثير من أجزاء العالم. والإنسان يمكنه أن يقول، وهو ينطق بالحقيقة الكافية لتبرير نكته: «العلم هو ما نعرف، والفلسفة هي ما لا نعرف». ولكن يجب أن يضاف إلى ذلك بأن التأمل الفلسفي فيما لا نزال لا نعرف قد بيّن بأنه ذا قيمة أولية للمعرفة العلمية المضبوطة. فظنون الفيثاغورسيين في الفلك، وأناكسيمندر في التطور البيولوجي، وديموقريطس في تركيب المادة الذري، زود رجال العلم فيما بعد من الأزمنة بفرضيات، كانت لولا الفلسفة متعذرة الوصول إلى أفهامهم. ويمكننا القول بأن الفلسفة من الناحية النظرية على الأقل، جزئياً، تنطوي على وضع أطر للفرضيات الشاملة الكبرى الذي لم يستطع العلم حتى الآن تجربتها وقياسها، ولكن حين يصبح في الإمكان تجربة هذه الفرضيات، تصبح عندما يتم تحقيقها، جزءاً من العلم ولا تعود محسوبة «كفلسفة».

واستعمال الفلسفة من الناحية النظرية، لا ينحصر في التأملات التي نأمل بأن نراها مؤكدة أو مدحوضة من قبل العلم في زمن قياسي محدود. وبعض الناس يتأثرون مما يعرفه العلم بدرجة ينسون بعدها ما لا يعرفه، وآخرون هم أكثر اهتماماً بكثير مما لا يعرفه العلم مما يعرف، حتى أنهم يقللون من إنجازاته. وأولئك الذين يحسبون العلم كل شيء يصبحون راضين ومزهوين، ويندّدون بكل اهتمام في المشاكل التي لا تتحلى بالتحديد اللازم للمعالجة العلمية. وفي المسائل العملية هم ينزعون إلى التفكير بأن المهارة قد تحل مكان الحكمة، وأن قتل الواحد للآخر عن طريق آخر وسائل التقنية هو أكثر تقدمية، ولذا فهو أفضل، من إبقاء الواحد للآخر حياً بالطرق العتيقة. ومن جهة أخرى، أولئك الذين يسخرون من العلم ينقلبون، كقاعدة عامة، إلى خرافة قديمة ومؤذية. ويرفضون قبول الحقيقة التي تبين، بأن الزيادة الهائلة للسعادة البشرية تجعلها التقنية العلمية، إذا استعملت بحكمة، ممكنة. وكلا الموقفين يؤسف لهما، والفلسفة هي التي تبين الموقف الصحيح بإيضاحها مدى المعرفة العلمية وحدودها في آن واحد.

إذا تركنا جانباً، في البرهة الحاضرة، جميع القضايا التي لها مساس بالأخلاق أو القيم، فثمة عدد من القضايا النظرية الصرفة، ذات اهتمام عاطفي دائم، لا يستطيع العلم أن يجيب عليها، على الأقل في الوقت الراهن. فهل نظل على قيد الحياة بعد الموت في أي معنى من المعاني، وإذا كان الأمر كذلك، فهل نظل على قيد الحياة لزمن محدود أو إلى الأبد؟ وهل يستطيع العقل أن يسيطر على المادة، أو تسيطر المادة تماماً على العقل، أو هل لكل واحد منهما، استقلال معين محدود؟ هل الكون غائي؟ أو له غاية؟ أو هو مندفع بقوة الضرورة العمياء أو هل هو مجرد فوضى وتشويش، اللذين تكون فيها القوانين الطبيعية التي نظن أننا وجدناها هي مجرد وهم يولده حبنا الخاص للنظام؟ وإذا كان ثمة نظام كوني، فهل للحياة أهمية في هذا الكون أكثر مما يجعلنا أو يقودنا إلى حسبانه علم الفلك، أو أن توكيدنا على الحياة هو مجرد شعور فئوي وأهمية ذاتية؟ إنني لا أعرف الجواب على هذه الأسئلة، ولا أظن أحداً يعرف الجواب عليها، ولكنني أظن بأن الحياة الإنسانية ستغدو فقيرة إذا نسيت هذه

المشاكل، وإذا قبلت إزاءها أجوبة دون دليل ملائم. ولكي يبقى الاهتمام حياً في هذه المشاكل، وللتدقيق في الأجوبة المستلهمة، كل هذا هو من وظائف الفلسفة.

إن أولئك الشغوفين لأجوبة سريعة ولتوازن مضبوط في الجهد والمكافأة قد يشعرون بفراغ الصبر في الدراسة، التي لا تستطيع في الحالة الراهنة لمعرفتنا، أن تصل إلى الحقائق المؤكدة والتي تشجع ما يحسب بالتزجية أوقات الفراغ بتأملات لا نتيجة منها في مشاكل غير قابلة للحل. وأنا لا أشاطر في هذا الرأي أي درجة من الدرجات. إن شيئاً من الفلسفة هي ضرورة للجميع ما عدا أولئك الذين خلوا من كل فكر، وفي غياب المعرفة تصبح هذه الفلسفة بصورة أكيدة فلسفة حمقاء. ونتيجة ذلك فأن الجنس البشري يصبح منقسماً إلى فئات متخاصمة من المتعصبين، وكل فئة مقتنعة بثبات بأن طابعها من الهذيان هو الحقيقة المقدسة، بينما طابع الآخرين هو الضلال الذي يندد به. فالآريون والصليبيون والبروتستانت واتباع البابا والشيوعيون والفاشيست قد ملؤوا أجزاء كبيرة من 1600 سنة الأخيرة بنضال عقيم، بينما كانت الفلسفة ممكن أن تبين لكل الأطراف في هذه الخصومات بأن لا سبب لأي واحد منها أن يعتقد بأن في ذاته على صواب. الدوغماتية أو التعصب Dogmatism هي عدو للسلام وحاجز لا يمكن تجاوزه ضد الديمقراطية. وفي الوقت الراهن، كما في الأزمنة السابقة على الأقل، أصبح التعصب أكبر عقبة ذهنية للسعادة البشرية.

والبحث عن اليقين هو أمر طبيعي في الإنسان ولكنه مع ذلك عيب فكري. فلو أخذت أطفالك في نزهة في يوم مشكوك فيه، فإنهم يطلبون جواباً جازماً عقائدياً فيما يكون الطقس حسناً أو رطباً، وسيصابون بالخيبة إذا لم تستطع أن تكون متأكداً. ونفس هذا النوع من التأكد مطلوب، في الحياة التالية، من قبل أولئك الذين يأخذون على عاتقهم لقيادة الشعوب للأرض الموعودة. «صفي الرأسماليين ومن يبقى بعدهم لتتمتع بالسعادة الأبدية». «أبد اليهود وكل شيء سيصبح فاضلاً». «اقتل الكروات ودع الصليبيين يحكمون». أو «أقتل الصربيين ودع الكروات يحكمون». هذه نماذج وشعائر اكتسبت قبولاً

واسعاً شعبياً في زمننا. وحتى لو كان لدينا جزءاً ضئيلاً من الفلسفة لأصبح من المستحيل أن نقبل هذا الهذيان المتعطش للدماء، وطالما ظل الناس غير متدربين أن يمتنعوا عن الحكم في غياب البرهان فسيظلون منقادين من قبل الأنبياء المزهويين، ومن المرجح أن يكون قادتهم إما متعصبين جهلاء أو دجاجلة غير شرفاء. واحتمال الحياة بدون تعين هو أمر صعب، ولكن معظم الفضائل الأخرى هي من هذا النوع. ولتعلم كل فضيلة يجب أن تقترن بانضباط ملائم، ولتعلم الحكم المؤجل فخير انضباط هو الفلسفة.

ولكن إذا أريد بالفلسفة أن تخدم هدفاً إيجابياً، فلا يجب أن تلقى الشكوكية، إذ أن المتعصب الدوغماتي إذا كان مضراً، فالشكوكي عقيم لا فائدة منه. والدوغماتية المتعصبة والشكوكية كلاهما، في معنى من المعاني، فلسفات مطلقة، أحدهما واثق من المعرفة، والآخر واثق من عدم المعرفة. وما يجب أن تبدده الفلسفة هو التأكيد، سواء للمعرفة أو للجهل. فالمعرفة ليست تصوراً دقيقاً كما يظن بصورة عامة. فبدلاً من أن نقول «أنا أعرف هذا»، يجب أن نقول «أنني أعرف أقل أو أكثر شيئاً أقل أو أكثر كهذا». وحقاً فإن هذا الشرط قلما يكون ضرورياً فيما يتعلق بجدول الضرب، ولكن المعرفة في الشؤون العملية لا تحوز على التوكيد أو الدقة كالحساب. لنفترض أنني أقول «الديمقراطية شيء حسن»، فيجب أن أوافق، أولاً، على أنني أقل تأكداً في ذلك في حين أقول بأن اثنان زائد اثنان هي أربعة، وثانياً، أن «الديمقراطية» هي نوعاً ما عبارة غامضة التي لا أقدر أن أحددها بدقة. فيجب أن نقول بذلك: «إنني متأكد تقريباً بأن من الشيء الحسن إذا كانت الحكومة تحوز على بعض الخصائص الشائعة في الدستورين الأمريكي أو البريطاني»، أو شيء من هذا القبيل. ومن أهداف التعليم وجوب جعل هذا الرأي أكثر تأثيراً إذا أدلي به من منبر من النموذج المعتاد للشعار السياسي.

إذ ليس كافياً أن نعترف بأن كل معرفتنا هي إلى درجة، أكثر أو أقل، غير مؤكدة وغامضة، بل من الضروري في الوقت نفسه، أن نتعلم العمل على أساس أفضل الفرضيات بدون إيمان عقائدي فيها. ولنعد إلى النزهة: حتى ولو

قبلت أو وافقت على أن السماء قد تمطر، شرعت مع ذلك في أن تفكر باحتمال تحسن الطقس على أن تفسح مكاناً للإمكان المعاكس بحملك المعطف المطري. فإذا كنت دوغماتياً تترك المعطف في البيت. وهذه المبادئ نفسها تنطبق على قضايا أكثر أهمية. فقد يقول أحدهم بشكل واسع: كل ما يعتبر معرفة يمكن تركيبه بسلم من درجات اليقين، فيكون الحساب وحقائق الإدراك على رأس هذه الأشياء. وكون اثنان واثنان يساويان أربعة، وأنني أنا جالس في غرفتي أكتب هي حقائق، يصبح بعدها أي شك جدي من جهتي أمراً مرضياً. أنا متأكد تقريباً بأن نهار الأمس كان لطيف المناخ، ولكن ليس كل التأكيد، لأن الذاكرة تلعب أحياناً حيلاً غريبة. والذكريات البعيدة هي أكثر باعثاً على الشك لاسيما إذا كان ثمة سبب عاطفي للتذكر الخاطئ، مثلاً، الشيء الذي جعل جورج الرابع يتذكر بأنه حضر معركة واترلو. والقوانين العلمية قد تكون مقاربة جداً لليقين، أو أنها مرجحة رجحاناً طفيفاً وفقاً لطبيعة الدليل.

وحينما تعمل بموجب فرضية تعرف بأنها غير مؤكدة، فيجب أن يجري عملك بصورة لن يكون من جرائها نتائج مؤذية إذا كانت فرضيتك خاطئة. أما ما يتعلق بالنزهة، فيمكن أن تجازف بالابتلال مع رفاقك إذا كنتم جميعاً أقوياء الجسد، وليس إذا كان واحداً منهم رقيق الجسم فيغامر بالإصابة بمرض ذات الرئة. أو افترض أنك لقيت موجليتونيان **Muggletonian** فإن هناك ما يبرر بأن تناقشه، بأنه لا يترتب على هذه المناقشة الكثير من الأذى فيما إذا كان المستر موجليتون كان في الواقع رجلاً عظيماً كما يزعم مريدوه، ولكنك تكون مجرداً من أي تبرير بحرقه في محرقة، لأن الشر الناجم عن حرق الإنسان حياً هو أكثر توكيداً من أي رأي لاهوتي. وطبعاً إذا كان الموجليتونيين كثيرو العدد ومفرطون في التعصب حتى يجب أن يقتلوا أو تقتل أنت فتصبح القضية آنئذ أكثر صعوبة. ولكن المبدأ العام يبقى، بأن فرضية غير مؤكدة لا يمكن أن تبرر شراً مؤكداً إلا إذا كان ثمة شر مواز مؤكد أيضاً في الفرضية المعاكسة.

وللفلسفة، كما قلنا، هدفان نظري وعملي معاً. وقد حان الوقت للنظر في الآخر.

لقد كان الكثيرون من فلاسفة الماضي يرون رابطة وثقة بين نظرة إلى الكون وعقيدة تتناول أفضل طريقة في الحياة. وبعضهم أسس أخويات التي تشبه بعض الشبه المناصب الكهنوتية في الأديرة في الأزمنة المتأخرة. وكان سقراط وأفلاطون قد صدما آزاء السفسطائيين لأنه لم يكن لهم أهداف دينية. وإذا أريد للفلسفة أن تمثل دوراً جدياً في حياة الناس الذين هم ليسوا من الاختصاصيين، فيجب ألا تنقطع عن التبشير بطريقة من طرق الحياة. وبهذا العمل تقوم بعمل شيء قام به الدين، ولكن مع بعض الاختلافات. وأعظم فرق هو أن ليس هنالك طلباً للجوء إلى المراجع، سواء كانت من التقاليد أو في كتاب مقدس. والفرق الهام الثاني هو أن الفيلسوف يجب ألا يحاول تأسيس كنيسة جرب بها ولكنه فشل كما كان يستحق. والفارق الثالث هو أن يجري التوكيد على الفضائل الفكرية أكثر مما اعتاده الناس منذ انحطاط الحضارة الهلينية.

وثمة فرق هام بين التعاليم الأخلاقية للفلاسفة القدماء وتلك الملائمة لعصرنا. والفلاسفة القدماء وجهوا دعوتهم إلى سادة البطالة والفراغ الذين كانوا يستطيعون أن يعيشوا كما يحلو لهم والذين يستطيعون إذا اختاروا، أن يؤسسوا مدينة مستقلة لها قوانينها التي تتجسد فيها عقائد السيد. والأكثرية الساحقة للناس المثقفين المعاصرين لا تحوز على هذه الحرية، وعليهم أن يكسبوا عيشهم في الإطار الحاضر للمجتمع، ولا يستطيعون أن يحدثوا تغيرات هامة في طريقتهم في الحياة قبل أن يضمنوا بادئ ذي بدء تغيرات هامة في النظام السياسي والاقتصادي. والنتيجة فإن من الواجب أن يفصح عن عقائد الإنسان الأخلاقية أكثر من الدعوى السياسية، وأقل في ذلك سلوك خاص، أكثر مما كان عليه الحال في الماضي السحيق. وفكرة طريقة طيبة للحياة يجب أن تكون تصوراً اجتماعياً أكثر منه فردياً. حتى من قبل القدماء، فقد تصور بهذه الطريقة أفلاطون في جمهوريته، ولكن الكثيرين منهم كان لهم تصور أكثر فردية عن أهداف الحياة.

وبهذا الشرط، دعنا نرى ماذا يجب أن تقوله الفلسفة عن موضوع الأخلاقيات.

لنبدأ بالفضائل الفكرية: إن متابعة الفلسفة يرتكز إلى الاعتقاد بأن المعرفة خير، حتى ولو عرف أنها مؤلمة. والرجل الذي تملأه الروح الفلسفية، سواء أكان فيلسوفاً بالمهنة أم لم يكن، يود أن تكون عقائده صحيحة بمقدار ما يستطيع أن يجعلها، وفي قياس مساوٍ، يحب أن يعرض، ويبغض أن يكون على خطأ. وهذا المبدأ له مجال أوسع مما يبدو لأول وهلة. فعقائدنا تنجم عن أسباب مختلفة كثيرة: فهنالك ما نلقنه في شبابنا من قبل آبائنا وأساتذتنا، وما تخبرنا عنه المنظمات القوية لتجعلنا نعمل كما ترغب هي، وهنالك ما تنطوي عليه مخاوفنا أو ما يخففها، وما يخدم اعتبارنا الذاتي، وهلمجرا. وأي واحد من هذه الأسباب قد يقودنا إلى عقائد حقيقية، ولكن يرجح أكثر أن يقودنا إلى اتجاه عكسي، ولذلك، فالهدوء الفكري سيدفعنا لتفحص عقائدنا بدقة، بغية اكتشاف أي واحد منها جدير بالاعتقاد الحقيقي. فإذا كنا حكماء، سنطبق نقداً حاسماً وبخاصة بالنسبة للعقائد التي نجد الشك بها مؤلماً أشد الألم. ولتلك التي يرجح أن تجعلنا ننغمس في خصومة عنيفة مع أُناس يؤمنون بعقائد مخالفة، ولكنها أيضاً عقائد لا ترتكز على أساس، فإذا أصبح هذا الوضع مشتركاً يصبح الربح في نقص هذه الخصومات غير خاضع لعدد لا يمكن إحصاؤه.

وثمة فضيلة فكرية أخرى، تتمثل بالشمولية أو عدم التميز، وأنني أنصح بالتمرين التالي: حين تعثر على جملة تعرب عن رأي سياسي، فهي تتضمن كلمات تثير مشاعر قوية ولكنها مختلفة في مختلف القراء، فحاول أن تستعيض عنها بالرموز آ، ب، ت وهلمجرا، وأن تنسى المعنى الخاص للرموز، ولتفترض بأن (آ) هي انكلترا و(ب) هي ألمانيا و(ت) هي روسيا. وطالما كنت تتذكر ما تعنيه الحروف، فمعظم الأشياء ستعتقد بأنها متعلقة فيك إذا كنت إنكليزياً، ألمانياً أو روسياً، وهو أمر لا أهمية له من الوجهة المنطقية. وحينما تقوم في الجبر الابتدائي بإيجاد مسائل تتعلق بـ (آ) و(ب) و(ت) وهم صاعدون إلى الجبل، فليس لك أي اهتمام عاطفي للسادة المومى إليهم، وتبذل جهدك لإيجاد حل ينطوي على صحة غير شخصية، ولكنك إذا حسبت (آ) نفسك، و(ب) خصمك البغيض، و(ت) المعلم والمدرس الذي وضع السؤال، فإن حساباتك ستنحرف، وستكون متأكداً بأن تجد أن (آ) كان الأول و(ت) كان الأخير. في التفكير للمشاكل

السياسية لا بد من وجود هذا التميز العاطفي للحاضر، وليس من سبيل سوى العناية والمران اللذين يمكناك من أن تفكر تفكيراً موضوعياً كما تفعل في المشكلة الجبرية.

إن التفكير في عبارات مجردة ليس الطريق الأوحد لإنجاز شمول أخلاقي، فمن الممكن أن يتم إنجازه كذلك، وربما بصورة أفضل، إذا استطعت أن تشعر بعواطف شاملة. ولكن هذا الأمر صعب بالنسبة لمعظم الناس. فإذا كنت جائعاً، فستبذل أقصى الجهد، إذا اضطررت، للحصول على الطعام، وإذا كان أطفالك جائعين، فقد تشعر بحاجة أكثر إلحاحاً. وإذا كان صديقك جائعاً، فمن المرجح أن تبذل الجهد لتفرج كربته. ولكنك إذا سمعت بأن بعض الملايين من الهنود والصينيين هم في خطر الموت من سوء التغذية، فالمشكلة هي واسعة بدرجة وقضية تجعلك تنسى كل ما يتعلق بها إذا لم يكن لك مسؤولية رسمية. ومع ذلك، إذا كنت تملك الكفاءة العاطفية للشعور بشدة آزاء الشرور البعيدة، فإنك تستطيع أن تنجز شمولاً أخلاقياً بواسطة الشعور. أما إذا لم تحز هذه الموهبة النادرة نوعاً ما فإن عادة النظر إلى المشاكل العملية بصورة تجريبية وحسية هي أفضل بديل متاح.

والصلة المترابطة بين الشمولية المنطقية والعاطفية في الأخلاق هي موضوع شيق. «احب جارك كما تحب نفسك» عبارة تنقص في الذهن شمولاً عاطفياً، و«العبارات الأخلاقية يجب أن لا تضم أسماء خاصة» وبذلك تنطوي على شمول منطقي. والفكرتان تبدوان مختلفتين وتكادان أن لا تتميزان في الأهمية العملية. فالمحسنون من الرجال يفضلون الشكل التقليدي، والمنطقيون يفضلون الشكل الآخر. ولا أكاد أدري أي طبقة من الناس أصغر حجماً وأي شكل من العبارتين إذا قبلها السياسيون واستساغها الناس الذين يمثلونها ستؤدي بسرعة إلى العصر الألفي. فاليهود والعرب قد يجتمعون معاً ويقولون: «دعنا نرى كيف يمكننا أن نجلب أعظم مقدار من الخير لكلينا، دون أن نبحث بدقة كيف يجري توزيعها بيننا». ومن الواضح أن كل فريق يود أن يحصل لقدر من السعادة أكثر بكثير مما يحصل عليه كليهما في الوقت الحاضر. وهذا ينطبق على الهندوس

والمسلمين، وعلى الشيوعيين الصينيين وأنصار شان كاي تشيك، والإيطاليون واليوغوسلاف، والروس والديمقراطيون الغربيون، ولكن لسوء الحظ! فلا المنطق ولا الإحسان ينتظر أن يحلا في كلا الطرفين في أي من هذه الخصومات.

ولا يظن أحد بأن الشباب والشابات العاكفين على تحصيل معرفة متخصصة ذات قيمة يستطيعون أن يوفروا وقتاً لدراسة الفلسفة، ولكن حتى بالنسبة لهذا الوقت الذي يمكن توفيره بسهولة دون إيذاء المهارات التقنية التعليمية، فإن الفلسفة تستطيع أن تمنح بعض الأشياء التي ستزيد كثيراً من قيمة الطالب ككائن بشري وكمواطن، فهي تستطيع أن تمنحه عادة التفكير الدقيق المعتنى به، لا في الرياضيات والعلم فحسب، بل في القضايا ذات الأهمية العملية. فهي قادرة أن تمنح سعة ومدى غير شخصيين للمفهوم الغائي في الحياة. وتستطيع أن تعطي الفرد قياساً مضبوطاً عن نفسه في صلته بالمجتمع، وفي قياس الرجل الراهن لرجل الماضي ولرجل المستقبل، وكذلك لتاريخ الإنسان بكامله بالنسبة إلى الكون. وبتوسيع غايات فكره يزود نفسه بعلاج مضاد لأسباب القلق والإزعاج في الوقت الراهن، ويجعل من الممكن أقرب نمو في الزمن الذي يسود فيه الصفاء المتاح لعقل حساس في عالمنا المعذب والسائر على غير الهدى.

* * *

(3)

مستقبل الجنس البشري

ما لم تحصل أشياء لا يمكن التنبؤ بها قبل نهاية القرن الحاضر، فإن أحد الاحتمالات الثلاثة سيتحقق. وهذه الاحتمالات الثلاثة هي:

1ـ نهاية الحياة البشرية، وربما الحياة كلها على سطح هذا الكوكب.

2ـ الردة إلى البربرية بعد نقص فاجع في سكان الكرة الأرضية.

3 ـ توحيد العالم تحت سلطة حكومة واحدة، تحوز على احتكار جميع أسلحة الحرب الضخمة.

وإنني لا أزعم بأنني أعرف أي منها سيحدث، بل لا أعرف أي أكثر رجحاناً. ولكن ما أناقشه،دون أي تردد، هو أن نوع النظام الذي اعتدنا عليه قد لا يمكن أن يستمر.

إن الاحتمال الأول، وهو انقراض الجنس البشري، لا يؤمل أن يحصل في الحرب العالمية المقبلة، إلا إذا أجلت لوقت أطول مما يبدو مرجحاً الآن. ولكن إذا كانت الحرب العالمية المقبلة غير حاسمة، أو إذا كان المنتصرون مجردين من الحكمة، وإذا ظلت الدول المنظمة على قيد الحياة بعدها، فإن حقبة من النمو التقني المحموم ينتظر أن تتبع خاتمة هذه الحقبة. وبواسطة الطاقة النووية المستعملة والأقوى بكثير مما عليه الآن، يظن الكثيرون من رجال العلم الرصينين، بأن سحباً مشحونة بالإشعاع المندفعة حول العالم، قد تفتت النسيج الحي في كل مكان. ومع أن الأخير من الناس الباقي على قيد الحياة قد يعلن نفسه إمبراطوراً، فإن حكمه سيكون قصيراً ورعاياه ستكون جثثاً. وبموته ينتهي الفصل العسير من الحياة، والصخور المسالمة ستظل دائرة دون تغير حتى تنفجر الشمس.

ولربما اعتبر شاهد غير متحيز ذلك أعظم إنجاز مرغوب فيه، نظراً لسجل الإنسان الطويل الحافل بالحماقة والقساوة. ولكننا نحن الممثلين في هذه الدراما المسرحية المنطوين في شبكة العواطف الخاصة والآمال العامة، نكاد لا نأخذ هذا الوضع بصورة أمينة. وحقاً، لقد سمعت أناساً يقولون أنهم يفضلون نهاية الإنسان على الخضوع للحكومة السوفييتية، ولا شك أن هنالك في روسيا أناساً قد يقولون الشيء نفسه على الخضوع للرأسمال الغربي. ولكن هذا إنما هو فصاحة فارغة في جو مصطنع من البطولة. ومع أنه يجب أن يعتبر كادعاء مزيف فهو خطر، لأنه يجعل الناس أقل نشاطاً في التفتيش على طرق لتجنب الكارثة التي يدعون أنها لا تخيفهم.

أما الإمكان الثاني، فهو العودة إلى البربرية، وقد يسمح بالانفتاح والاحتمال للعودة إلى الحضارة، كما جرى بعد سقوط روما. والانتقال الفجائي، إذا حدث، فسيكون مؤلماً للغاية لأولئك الذين يمارسونه، وستبقى الحياة طيلة قرون متعددة بعد ذلك شاقة وباهتة. ولكن على كل حال سيبقى هناك مستقبل للبشرية، وإمكانية الأمل العقلاني.

وأظن أن نتيجة كهذه تنجم عن حرب عالمية علمية حقيقية لن تكون غير محتملة الوقوع. تصور أن كل جانب هو في وضع يمكنه من تحطيم المدن الرئيسية ومراكز الصناعة للعدو، وتصور فناءً تاماً تقريباً للمخابر والمكاتب، مصحوباً بضحايا بنسبة فادحة بين رجال العلم، وتخيل المجاعة التي تعزى لرشاش العناصر المشعة، والأوبئة التي تقذفها الحرب الجرثومية: أترى أيظل التماسك الاجتماعي بعد هذه الشدائد؟ ألا يخرج هناك أنبياء ليقولوا للشعوب التي جن جنونها بأن مصائبهم تعزى كلها للعلم، وأن انقراض جميع الناس المتعلمين قد يجلب للبشرية الفردوس الموعود؟ والآمال القصوى تتولد من التعاسة الكبرى، وفي عالم كهذا لا تكون الآمال إلا آمالاً غير معقولة. وأظن أن الدول الكبرى التي اعتدنا عليها ستتحطم، وأن القلة الباقية على قيد الحياة ستعود إلى حياة الاقتصاد القروي البدائي.

والإمكان الثالث هو تأسيس حكومة واحدة للعالم كله، قد يحقق بوسائل مختلفة: إما بانتصار الولايات المتحدة في الحرب العالمية المقبلة، أو بانتصار الاتحاد السوفييتي، أو بالاتفاق بينهما من الوجهة النظرية. أو ـ وأظن أن هذا أكثر القضايا انطواءاً على الأمل المرجح بأي درجة من الدرجات ـ بتحالف للأمم الراغبة في إقامة حكومة دولية، تصبح في النهاية، قوية لدرجة تجعل روسيا لا تجرأ في مقاومتها. وهذا كله يمكن أن نتصور إنجازه بدون حرب عالمية أخرى، ولكنه يتطلب إدارات سياسية شجاعة وقوية التصور في عدد من الأقطار.

هنالك حجج متنوعة تستعمل ضد مشروع حكومة واحدة للعالم كله. وأكثر هذه الحجج شيوعاً هي التي تقول بأن المشروع طوباوي ومستحيل. وأولئك الذين يستخدمون هذه الحجة، هم كأولئك الذين يقترحون إيجاد حكومة عالمية، يفكرون بحكومة عالمية تنشأ عن الاتفاق. وأظن من البدهي أن الشبهات المتبادلة بين روسيا والغرب قد تجعل من العقيم الأمل في أي مستقبل قريب، لعقد اتفاق حقيقي. وأي سلطة شاملة مزعومة يمكن للفريقين بموجبها أن يتمكنا من الاتفاق، كما هو واقع الحال، محكوم عليها بالزيف والبطلان كهيئة الأمم المتحدة. تأمل المصاعب التي جوبهت بالمشروع الأكثر اعتدالاً للمراقبة الدولية المفروضة على الطاقة الذرية الذي لا توافق عليه روسيا إلا إذا خضع للنقض، ولذا فهو مهزلة. وأظن أننا يجب أن نقبل بأن الدولة العالمية يجب أن تفرض بالقوة.

ولكن كثيراً من الناس سيقولون ـ ولماذا كل هذا الحديث عن الحكومة العالمية؟ فالحروب قد جرت منذ أن انتظم الناس في وحدات أكبر من العائلة، ولكن البشرية مع ذلك ظلت على قيد الحياة. ولماذا لا تستمر في بقائها في الحياة حتى لو استمرت الحروب بالحدوث من وقت لآخر؟ وفضلاً عن ذلك، فإن الناس يحبون الحرب، وسيشعرون بالإحباط دونها. وبدون الحرب لن تكون ثمة فرصة ملائمة للبطولة والتضحية الذاتية.

وهذه النظرية ـ التي هي نظرية عدد لا يحصى من الرجال المسنين بما فيهم حكام روسيا السوفيتية ـ يفشلون بأن يدخلوا في حسابهم الإمكانيات التقنية الحديثة. وأظن أن الحضارة ستظل على قيد الحياة في الأرجح بعد حرب عالمية أخرى، بشرط أن تنشب قريباً بشكل معقول وأن لا يطول أمدها. وإذا لم يجر التباطؤ في معدل الاكتشاف والاختراع، وإذا ظلت الحروب الكبرى مستمرة في التكرار، فالخراب المنتظر حتى لو قصر عن إفناء الجنس البشري هو لا شك سينجح نوعاً من العودة إلى النظام الاجتماعي البدائي الذي تحدثت عنه منذ هنيهة. وهذا سيتضمن نقصاً هائلاً في السكان وليس من جراء الحرب فحسب، ولكن بنتيجة ما ينجم عنها من مجاعة وأوبئة، وأن الذين سيبقون على قيد الحياة لا بد أن يصبحوا شرسين أو على الأقل لمدة طويلة، مجردين من الصفات المحبوبة لإعادة بناء الحضارة.

وليس من غير المعقول، الأمل، بأنه إذا لم يجر في معالجة الأمر وسائل ناجعة، فالحروب مع ذلك لن تحدث. وقد حدثت دائماً بين حين وآخر، وستنفجر بصورة واضحة ثانية آجلاً أو عاجلاً ما لم تختار البشرية نظاماً آخر تجعلها مستحيلة، ولكن النظام الوحيد في هذا الصدد هو حكومة واحدة تملك احتكار القوى المسلحة.

إذا سمح بالأشياء أن تنساب، فمن الواضح أن الخصام بين روسيا والدويلات الغربية سيستمر حتى تمتلك روسيا مخزوناً عظيماً من القنابل الذرية، وحينما يحين الوقت ستكون حرباً ذرية. وفي هذه الحرب، حتى لو أمكن تجنب أسوأ النتائج، فإن أوروبا الغربية، بما في ذلك بريطانيا العظمى، ستنقرض بالنتيجة. فإذا ظلت أمريكا والاتحاد السوفييتي على قيد الحياة كدولتين منظمتين، فسيتحاربا مرة ثانية فوراً. وإذا انتصر الجانب الواحد فسيحكم العالم، وأن حكومة موحدة من البشرية ستظهر إلى عالم الوجود، وإلا فقد تفنى البشرية أو الحضارة على الأقل. وهذا لا بد أن يحدث إذا افتقرت الأمم وحكامها إلى الرؤية البناءة.

وحينما أتحدث عن «رؤيا بناءة»، لا أعني فقط التحقيق النظري بأن الحكومة العالمية مرغوب فيها. وأكثر من نصف الأمة الأمريكية طبقاً لاستفتاء غالوب، تأخذ بهذا الرأي، ولكن معظم أنصار هذا الرأي تفكر فيه كشيء يمكن تقديره بالمفاوضات الودية، وهم يمتنعون عن أي إيحاء لاستعمال القوة. إنني أعتقد أنه في هذا الصدد يخطئون. وأنا على يقين بأن القوة، أو التهديد بها، سيكون ضرورياً. وآمل أن يكون التهديد بالقوة كافياً، ولكن إذا لم يكن ذلك بالإمكان فالقوة الحقيقية يجب أن تستخدم.

إذا فرضنا أن احتكاراً للقوة المسلحة يقرره أو يوطده انتصار أحد الفريقين في حرب بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي فأي نوع من العالم سينجم عن ذلك؟

في كلا الحالين، سيكون عالماً يستحيل فيه ظهور تمرد ناجح. ومن الطبيعي، أن يحتمل حدوث قتل بين حين وآخر، فإن حصر جميع الأسلحة الهامة في أيدي المنتصرين ستجعلهم لا يقاومون وبذا يصبح السلام مضموناً. وحتى لو خلت الأمة المسيطرة تماماً من روح الغيرية، فإن أفرادها البارزين على الأقل، سيبرزون مستوى عالياً من الرفاه المادي، وسيتحررون من طغيان الخوف. ومن المرجح بعد ذلك، أن يصبحوا بالتدريج ألطف طبيعة وأقل ميلاً للتعذيب. وكالرومانيين، سيمنحون، بمرور الزمن، مواطنتهم للمهزومين. حينئذ ستظهر دولة عالمية حقيقية، وسيصبح بالإمكان أن ينسى الناس بأن هذه الدولة مدينة في أصلها للغزو. وأي واحد منا، خلال حكم لويد جورج **Lloyd George**، شعر بالإذلال بالمقارنة مع أيام إدوار الأول **Edward I**.

فإمبراطورية عالمية سواء ألفتها الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتي هي بذلك أفضل من نتائج استمرار الفوضى الدولية الراهنة.

ومع ذلك، فثمة أسباب هامة لتفضيل انتصار أمريكا. وأنني هنا لا أجادل بأن الرأسمالية هي أفضل من الشيوعية، وأظن أن ليس من المستحيل، أن أمريكا لو كانت شيوعية وروسيا رأسمالية، لظللت مستمراً بجانب أمريكا. والسبب الذي أتزرع به لتحيزي إلى أمريكا هو أن هنالك في تلك البلاد احتراماً

أكثر مما في روسيا للأشياء التي أقدر ثمنها في طريقة حياة متمدينة. والأشياء التي تجول في ذهني هي حرية الكلام، حرية البحث، حرية النقاش، والشعور الإنساني الرحيم. وما قد يعنيه انتصار روسيا تمكن مشاهدته في بولندا، فقد كان هنالك جامعات مزدهرة فيها تضم رجالاً بارزين من ناحية الفكرة أشد البروز. ولحسن الحظ، فإن بعض هؤلاء الرجال، قد نجوا والباقي قد اختفوا. والتعليم تحول الآن إلى دراسة الصيغ الستالينية المستقيمة، وهذا التعليم مفتوح فقط (بعد المرحلة الابتدائية) إلى الشباب أو إلى الفتيان الذين لا يتصف آباؤهم بأي شائبة من الناحية السياسية، وهذا التعليم لا يهدف إلى إنتاج مواهب عقلية إلا تلك التي تتناول التكرار المعاد للشعارات الحقيقية الصحيحة والفهم السريع للجانب الذي كسب المناصب الرسمية. وفي نظام تربوي كهذا لا يمكن أن تنشأ أي قيمة فكرية.

في أثناء ذلك انقرضت الطبقة الوسطى بواسطة النفي الجماعي، أولاً في سنة 1940، ومن ثم بعد طرد الألمان. وقد جرى تصفية السياسيين للأحزاب الأكثرية، وسجنوا، أو أجبروا على الفرار. والوشاية بالأصدقاء للشرطة، أو اليمين الكاذب حينما يمثلون أمام المحكمة، هي الطريقة الوحيدة لبقاء أولئك الذين أثاروا شبهات الحكومات على قيد الحياة.

ولا أشك، بأن هذا النظام إذا ظل قائماً لجيل واحد، سينجح في أهدافه. فالعداء البولوني لروسيا سيتلاشى وسيستعاض عنه بالاستقامة المذهبية الشيوعية. وسيصبح العلم والفلسفة، والفن والأدب، وسائل معينة على النفاق للحكومة، وهي وسائل، باهتة، ضيقة، وبلهاء، ولا يبقى فرد يفكر، أو حتى يشعر بنفسه، بل سيكتفي كل واحد بالانتماء إلى وحدة في الجمهور. وانتصار روسيا، سيجعل مع الزمن، هذه العقلية عالمية الانتشار. ولا شك بأن الرضا الذي ينجم عن النجاح سيؤدي بالنتيجة القصوى إلى تراخي الرقابة، ولكن هذا السير سيكون بطيئاً، وإعادة الحياة لاحترام الفرد سيكون مشكوكاً به. ولهذه الأسباب فإنني أنظر إلى النصر الروسي ككارثة مخيفة.

وانتصار من جانب الولايات المتحدة قد تكون له نتائج أقل نجاعة بكثير. ففي الدرجة الأولى، لن يكون نصراً للولايات المتحدة منفردة، بل تحالفاً يصر فيه الأعضاء الآخرون على أن يحتفظوا بجزء كبير من استقلالهم التقليدي. ولا يكاد الإنسان أن يتصور بأن الجيش الأمريكي سيقبض على الأساتذة الكبار في اكسفورد وكامبردج ويرسلهم إلى الأشغال الشاقة في الاسكا. ولا أعتقد أيضاً بأنهم سيتهمون المستر اتلي Mr. Attlee بالتآمر ويجبروه على الفرار إلى موسكو. ومع ذلك فإن هذه هي خطوط دقيقة للمقارنة بالأشياء التي فعلها الروس في بولندا. فعقيب النصر للتحالف الذي تقوده سيبقى ثمة ثقافة بريطانية، وثقافة أفرنسية، وثقافة إيطالية، و(آمل) أيضاً ثقافة ألمانية، ولذا فلن يكون هنالك نفس الرتابة الميتة التي قد تنجم عن السيطرة السوفييتية.

ثمة فرق هام آخر، وهو الاستقامة المذهبية هي أكثر شمولاً في نفاذها من تلك التي تقول بها واشنطن. وفي أمريكا، لو كنت من علماء الوراثة، فيمكنك أن تتمسك بأي وجهة نظر عن المندلية الذي يجعلك تعتقد بأنها أكثر الأمور رجاحة، وفي روسيا، إذا كنت من علماء الوراثة الذين يختلفون مع ليسنكو Lysenko، فأنت عرضة للاختفاء بصورة خفية. وفي أمريكا، يمكنك أن تكتب كتاباً تندد به بلينكولن Lincoln إذا شعرت بأن هذا الأمر يروق لك، أما في روسيا، إذا كتبت كتاباً يندد بلينين Lenin، فلن ينشر وستجري تصفيتك. وإذا كنت اقتصادياً أمريكياً يمكنك أن تعتقد أو لا تعتقد بأن أمريكا سائرة نحو أزمة اقتصادية، أما في روسيا، فلا يجرأ اقتصادي أن يشك بأن الأزمة الاقتصادية الأمريكية هي وشيكة الوقوع. وفي أمريكا، إذا كنت أستاذاً للفلسفة يمكنك، أن تكون مثالياً، أو مادياً أو برغماتياً، أو من أنصار الإيجابية المنطقية، أو أي شيء تشغف به، وفي المؤتمرات يمكنك أن تناقش أناساً يختلفون في آرائهم عنك، ومصفين يستطيعون أن يصدروا حكماً أفضل من هؤلاء. وفي روسيا يجب أن تكون مادياً جدلياً، ولكن في بعض الأحيان يرجح عنصر المادية على عنصر الجدلية، وفي أحيان أخرى يجري العكس بذلك. وإذا فشلت اتباع تطورات المتيافيزيقيات الرسمية برشاقة كافية، فويل لك ثم ويل. وستالين في كل الأزمات يدرك الحقيقة عن الميتافيزيق، لكن يجب عليك

أن تفرض بأن الحقيقة هذه السنة ليست هي كما كانت في السنة الماضية.

والعقل في عالم كهذا يجب أن يصبح آسناً، بل أن تقدم التكنولوجيا لا بد أن يصل إلى الانتهاء قريباً.

الحرية، من النوع الذي يمقته الشيوعيون، هي مهمة لا للمثقفين المفكرين فحسب بل للأقسام الأكثر حظاً في المجتمع. وبالنظر لغيابها أو انعدامها في روسيا، استطاعت الحكومة السوفيتية أن توطد درجة أعظم من عدم المساواة الاقتصادية مما يوجد في بريطانيا العظمى، أو حتى في أمريكا. والاوليغارشية التي تسيطر على جميع وسائل الإعلام تستطيع أن تقترف كثيراً من المظالم والقساوات التي تكاد أن لا تكون ممكنة لو عرفت بشكل واسع. ولا تستطيع سوى الديمقراطية والإعلام الحر أن تمنع الممسكين بقيادة السلطة من تأسيس دولة تتصف بالعبودية مع حياة تتصف بالكماليات للقلة والفقر المدقع للكثرة الكارثة. وهذا ما تفعله الحكومة السوفيتية حينما تكون في سيطرة مضمونة. ولا شك أن هنالك، عدم مساواة اقتصادية في كل مكان، ولكنها في ظل نظام ديمقراطي تنزع إلى النقص، بينما تكون تحت ظل فئة أوليغارشية ميالة للزيادة. وحيثما كانت هناك أوليغارشية مسيطرة، تكون عدم المساواة الاقتصادية مهددة بالبقاء دائماً نظراً للاستحالة العصرية في قيام تمرد ناجح.

وأبتدئ الآن بالسؤال التالي: ماذا يجب أن تكون سياستنا، نظراً للمخاطر المتنوعة التي تتعرض لها الإنسانية أو إذا أوجزنا الحجج المذكورة آنفاً: فيجب علينا أن نكون حذرين ضد ثلاثة مخاطر:

1 ـ نهاية أو انقراض الجنس البشري

2 ـ الردة إلى البربرية.

3 ـ تأسيس دولة كلية من العبيد تنطوي على شقاء الأكثرية الساحقة، واختفاء كل تقدم في المعرفة والفكر.

وسواء كان الخطر الأول أو الثاني من هذه الكوارث فكليهما مؤكد تقريباً ما لم يقض على الحرب نهائياً بسرعة. والحروب الكبرى يمكن أن تنتهي

إذا حصرت القوة المسلحة في سلطة فريدة واحدة، وهذا الحصر لا يمكن أن يحصل بالاتفاق بسبب معارضة روسيا السوفيتية، ولكن يجب أن يحصل مع ذلك بصورة من الصور.

والخطوة الأولى ـ وهي الخطوة التي ليست الآن صعبة جداً ـ هي إقناع الولايات المتحدة والكومنولث البريطاني بالضرورة المطلقة لتوحيد العالم حربياً. وحكومات الأمم المتكلمة بالإنكليزية عليها أن تعرض على الأمم الأخرى الخيار في دخول حلف ثابت، يتضمن جمع الموارد الحربية وكذلك الدفاع المتبادل ضد العدوان. وفي حالة وجود أمم مترددة، كإيطاليا مثلاً، يجب أن تعرض الكثير من المغريات الكبيرة، اقتصادية كانت أو عسكرية، لتنتج تعاونها.

وفي مرحلة معينة حينما يكتسب الحلف قوة كافية، فإن أي دولة عظمى ما تزال رافضة للالتحاق بهذا الحلف يجب أن تهدد بوصفها خارجة عن القانون، وإذا تصلبت في رأيها، يجب أن تعتبر عدواً عاماً. والحرب الناجمة عن ذلك، إذا حدثت بصورة سريعة تقريباً، فمن المرجح أن تبقي البناء الاقتصادي والسياسي للولايات المتحدة ثابت غير متغير، وسيمكن الحلف المنتصر بتقرير احتكار للقوة المسلحة، وبذلك تجعل السلام مضموناً، ولكن ربما إذا كان الحلف يمتلك قوة كافية لن تكون ثمة حاجة إلى الحرب، والدول الكارهة قد تفضل أن تدخل في هذا الحلف لدول متساوية، أكثر من أن تخضع بعد حرب فظيعة كالأعداء المهزومين. وإذا حدث ذلك، فقد يخرج العالم من أخطاره الحالية بدون حرب عظمى. وإنني لا أرى أي أمل في هذا المخرج السعيد لأي طريق آخر. ولكن فيما إذا كانت روسيا تستسلم حين تهدد بالحرب فهذه قضية لا أغامر بإبداء رأي فيها.

لقد كنت أعالج بصورة رئيسية المظاهر المظلمة للوضع الحالي للبشرية. ومن الضروري أن أفعل ذلك، لكي أقنع العالم لاختيار الإجراءات المضادة للعادات التقليدية للفكر والأهواء المغروزة في النفس. ولكن خلف هذه المصاعب المآسي المرجحة في المستقبل القريب هنالك إمكانية نشوء خير لا يحد، ورفاه أعظم من أي رفاه أصاب حظ الإنسان. وهذا ليس إمكاناً فحسب، ولكنه

أرجحية، إذا كانت الديمقراطية الغربية ثابتة وسريعة في التنفيذ. ومنذ تحطم الإمبراطورية الرومانية حتى يومنا هذا، أخذت الدول تزداد في حجمها بصورة مستمرة تقريباً. ويوجد الآن فقط دولتان مستقلتان تمام الاستقلال وهما أمريكا وروسيا. والخطوة التالية في هذه المسيرة التاريخية الطويلة يجب أن تخفض الدولتين إلى دولة واحدة، وبذلك نضع نهاية لعصر الحروب المنظمة، والتي بدأت في مصر قبل 6000 سنة مضت. وإذا أمكن تجنب الحرب بدون تأسيس نظام طغيان طاحن فسيرفع العبء الثقيل عن عاتق الروح الإنسانية، وتتطهر البشرية من المخاوف الجماعية العميقة، وكلما نقص الخوف تأملنا أن تنقص القساوة أيضاً.

والاستعمال الذي وضع الناس سيطرتهم المتزايدة على القوى الطبيعية عجيب. وفي القرن التاسع عشر قد كرسوا أنفسهم بصورة رئيسية إلى ازدياد أعداد المتعلمين، لاسيما في الجنس الأبيض. وفي القرن العشرين تابعوا، حتى الآن، بالعكس، الهدف المضاد تماماً. فبالنظر للإنتاج المتزايد للطبقة العاملة، أصبح من الممكن تخصيص نسبة مئوية أكبر من الناس للحرب. وإذا أتيح للطاقة الذرية أن تجعل الإنتاج أسهل، فإن النتيجة الوحيدة، كما هي الحال الآن، أن تجعل الحروب أسوأ من الماضي إذ أن إنتاج الضروريات سيحتاج إلى عدد أقل من الناس. وما لم نعالج مشكلة إلغاء الحرب، فليس ثمة سبب يجعلنا نبتهج في تقنية توفير العمل، بل العكس هو الصحيح تماماً. ومن جهة أخرى، إذا أزيح خطر الحرب، فإن التقنية العلمية تستطيع أخيراً أن تستعمل لتحقيق السعادة الإنسانية. فليس ثمة سبب تقني بعد الآن لاستمرار الفقر، حتى في بلاد كثيفة السكان كالهند والصين. فإذا لم تعد الحرب تشغل أفكار وطاقات الناس، نستطيع خلال جيل أن نضع نهاية لكل فقر جاد في جميع أنحاء العالم.

لقد تحدثت عن الحرية كخير، ولكنها ليست خيراً مطلقاً. وكلنا نعترف بالحاجة إلى ردع القتلة، بل من المهم أكثر من ذلك أن نردع الدول القاتلة. فالحرية يجب أن تحدد بالقانون، وأعظم أشكالها قيمة لا توجد إلا ضمن إطار القانون فحسب. وأن أكثر ما يحتاجه العالم هو قوانين فعالة لمراقبة العلاقات

الدولية. وأول خطوة وأصعبها في إيجاد قانون كهذا هو إيجاد عقوبات ملائمة، وهذا ممكن فقط بإيجاد قوة مسلحة واحدة تسيطر على العالم بأسره. ولكن هذه القوة المسلحة، كقوة شرطة بلدية، ليست هدفاً في ذاتها، بل هي وسيلة لنمو نظام اجتماعي يحكمه القانون، حيث لا تكون القوة امتيازاً لأشخاص معينين أو لدول خاصة ولكنها تمارس من قبل سلطة محايدة وفقاً للقوانين الموضوعة سلفاً. وثمة أمل بأن القانون، لا القوة الخاصة، هو الذي يمكن أن يتحكم بصلات الأمم خلال القرن الحالي. فإذا لم يتحقق هذا الأمل فإننا سنواجه كارثة مطلقة، أما إذا تحقق، فإن العالم سيصبح أكثر بكثير من زمن ماضٍ في تاريخ الإنسان.

* * *

(4)

الحوافز الغائية للفلسفة

ـ 1 ـ

الميتافيزيق وفقاً لأقوال ف. هـ. برادلي D. H. Bradley ، «هو إيجاد أسباب سيئة لما نعتقد عن الغريزة». ومن الغريب أن نجد هذا الشعار الواخذ في بداية كتاب طويل يتناول موضوع ميتافيزيقا جديدة، بل وناعمة، التي تؤدي بعد نقاش كثير حاد إلى النتيجة النهائية: «خارج الروح لا يوجد، ولا يمكن أن توجد، أية حقيقة، وكلما كان الشيء روحياً، كلما كان أكثر واقعية حقيقية بكثير». إن برهة نادرة من معرفة الذات قد أوحت لهذا المثل الأولي، والذي أصبح محتملاً لدى مؤلفه في شكله نصف الفكاهي، ولكن خلال البقية من جهوده قد سمح لنفسه أن يكون سوقاً للغريزة التي «تفتش عن أسباب سيئة». وحينما كان جاداً كان سفسطائياً، وفيلسوفاً نموذجياً، وحين سخر، تمكن من الاستبصار ونطق بحقيقة غير فلسفية.

ولقد حددت الفلسفة بأنها «محاولة عنيدة خارقة للتفكير بوضوح»، وإنني لأفضل أن أحددها «بأنها محاولة ذكية بصورة خارقة للتفكير بخطأ». ومزاج الفيلسوف نادر الوجود، لأنه يجب أن يضمن صفتين متضاربتين إلى حد ما: من جهة رغبة قوية للاعتقاد برأي شامل عن الكون أو الحياة الإنسانية، ومن جهة أخرى، العجز عن الاعتقاد بصورة مقنعة إلا فيما يظهر بأنه من الأسس الفكرية. وكلما كان الفيلسوف عميقاً، لا بد أن تصبح أكاذيبه أكثر تعقداً ومهارة وذلك لكي تحدث فيه حالة القبول الفكري المرغوب فيها.. ولهذا السبب كانت الفلسفة غامضة.

إن العقائد الشاملة بالنسبة لغير المفكر تماماً، ليست هامة، وبالنسبة لرجل العلم، هي فرضيات يجب أن تمتحن كتجريبة، بينما هي بالنسبة للفيلسوف عادات عقلية يجب أن تبرر نوعاً ما إذا أراد أن يجد الحياة محتملة. والفيلسوف النموذجي يجد بعض العقائد لازمة من الوجهة العاطفية، ولكنها صعبة من الوجهة الفكرية، ولذا فهو يمضي في سلاسل طويلة من التفكير، وخلال هذا السير، عاجلاً أو آجلاً، يسمح نقص آني أو مؤقت من اليقظة لأكذوبة أن تظهر غير مكتشفة. وبعد الخطوة الكاذبة تحمله رشاقته الذهنية بسرعة بعيداً إلى مستنقع الكذب.

يمثل ديكارت أبو الفلسفة الحديثة، بشكل تام، هذا المزاج الذهني الخاص. وهو ما كان أبداً ـ كما يؤكد لنا ـ أن يساق لبناء فلسفته لو كان لديه معلم واحد فقط، لأنه كان يمكن أن يصدق آنئذ ما أخبره به ذلك المعلم، ولكنه لما وجد أساتذة مختلفين مع بعضهم بعضاً، فقد أرغم على الاستنتاج بأن ليس هناك عقيدة مؤكدة. ولما كان يملك رغبة عاطفية حادة للوصول إلى اليقين شرع في العمل بالتفكير بمنهج جديد لإنجاز ذلك اليقين. وكخطوة أولى، عزم على أن يرفض كل شيء استطاع أن يشك فيه، كالأشياء اليومية ـ معارفه، الشوارع، الشمس والقمر، وهلمجرا ـ قد تكون كلها أوهام، لأنه رأى أشياء مماثلة في الأحلام، ولم يكن متأكداً بأنه ما كان يحلم دائماً. والبراهين في الرياضيات قد تكون خاطئة، لأن الرياضيين اقترفوا أخطاء في بعض الأحيان. ولكنه لم يستطع أن يشك في وجوده لأنه لو لم يكن موجوداً، لما استطاع التشكك في أمر. وهنا أخيراً، لذلك، استطاع بوجود مقدمة لا شك فيها أن يعيد البناء العقلي الذي نبذه شكه السابق.

وإلى هذا الحد، كان الأمر حسناً، ولكن منذ تلك البرهة يخسر عمله بما ينطوي عليه من حصافة نقدية وهو يقبل مجموعة من المثل القروسطية التي لا يوجد شيء يذكر بصددها سوى تقاليد المدارس القروسطية. ويعتقد بأنه موجود، وهو يتساءل، لأنه يرى كذلك بوضوح وتميز تامين، فيختتم بذلك قوله، وذلك لكي يمكني، «أن آخذ كقاعدة عامة بأن الأشياء التي نتصورها

هي بمنتهى الوضوح والتمييز وكلها حقيقية». ثم يأخذ بعد ذلك بتصور كل أنواع الأشياء «في وضوح وتميز تامين»، مثلاً كأن تكون النتيجة لا تستطيع أن تتصف بالكمال أكثر من سببها. ولما كان يستطيع أن يشكل فكرة عن الله - يعني كائن أكثر كمالاً منه - ولذا فإن هذه الفكرة لا بد أن تكون سبب غير سببه، وهو أنه لا يمكن أن يكون سوى الإله، ولذا فالله موجود. ولما كان الله خيراً، فهو لن يخدع ديكارت، بصورة دائمة، ولذا فالأشياء التي يراها ديكارت حيثما يكون يقظاً لا بد أن تكون موجودة في الحقيقة.. وقس على ذلك. فكل تحفظ فكري طرح في الهواء، وقد بدا وكأن الشك الأول كان خطأ مجرد تزويق لفظي، مع أنني لا أعتقد بأن هذا هو صحيح من الوجهة النفسانية. والشك الأول لديكارت كان بما اعتقد، حقيقياً بمقدار ما يكون كذلك في رجل أضاع طريقه، ولكنه كان يقصد به أيضاً أن يحل محله اليقين في أقرب برهة ممكنة.

إن الرجل الذي تكون قواه العقلية جيدة، تصبح لديه الحجج الخاطئة كدليل على التميز. وحينما كان ديكارت شكوكياً، كان كل ما يقوله جاداً ومعقولاً، وحتى خطوته البناءة الأولى، ودليل وجوده، ينطوي على شيء كثير مما يقال لصاحبه. ولكن كل شيء عقب ذلك كان منحلاً ومزلقاً ومتسرعاً، فيفضي بذلك أن يفوز التأثير المشوه للرغبة. وثمة شيء يمكن أن يعزى إلى حاجة الظهور مستقيماً لكي ينجو من العذاب، ولكن هنالك سبباً أكثر صميمية كان ولا شك يفعل فعله العميق. إنني لا أظن بأنه كان يبالي بشغف بحقيقة أو واقعية الأشياء المحسوسة، أو حتى بالله، ولكنه كان يهتم بحقيقة الرياضيات. وهذا في طريقة يمكن تقريره بأن يبرهن أولاً عن وجود وصفات الألوهية. وطريقته من الناحية السيكولوجية كانت كما يلي: إذا لم يكن ثمة إله، فليس ثمة هندسة، ولكن الهندسة لذيذة، فالله إذاً موجود.

وليبنتز Leibniz الذي ابتكر عبارة «هذا هو أفضل عالم بين كل العوالم الممكنة»، كان نوعاً مختلفاً كإنسان عن ديكارت Descartes. كان يميل إلى الراحة، ولا يميل إلى العنف، وكان مهنياً، ولم يكن هاوياً، وكان يكسب

عيشه بكتابة حوادث بلاط هانوفر House of Hanover، واشتهر بالفلسفة السيئة. وقد كتب أيضاً فلسفة جيدة، ولكنه لم يعبأ بنشرها، لأنها كانت يمكن أن تكلفه الموارد التي كان يتلقاها من مختلف الأمراء. ومن أهم آثاره الشائعة، كتاب الثوديسه Theodicee، وقد كتبه لأجل الملكة صوفي شارلوت Sophie Charlotte ملكة بروسيا (وابنة الناخبة صوفي)، وكان هذا الكتاب مضاداً لشكوكية معجم بيل Bayle's Dictionary، وفي هذا الأثر يبين بأسلوب، كأسلوب فولتير Voltaire الصادق في أثره دكتور بانغلوس Dr. pangloss أسباب التفاؤل، وهو يعتقد بأن هنالك كثيراً من العوالم الممكنة منطقياً، التي يمكن أن يكون الله قد خلقها أو برءها، وأن بعض هذه العوالم لا تحتوي على الخطيئة ولا الألم، وأن في هذا العالم الواقعي يزيد على المدانين كثيراً وبصورة لا تقارن عن عدد الناجين ولكنه يظن بأن العوالم التي لا تنطوي على الشر تحتوي على خير أقل بكثير مما يوجد في هذا العالم الذي اختار الله إبداعه. وبذلك يزيد الخير زيادة طفيفة على الشر الذي يحويه. وليبنتز والملكة صوفي شارلوت اللذين ما كانا يعتبرا أنفسهما على الأرجح بين المدانين وجدا في الظاهر هذا النموذج من التفاؤل مرضياً.

وخلف الأمور السطحية مشكلة أعمق ناضل في سبيلها لايبنتز طيلة حياته، وقد أراد أن يتملص من الضرورة القاسية التي كانت تتصف بها الدنيا الجبرية، دون إحداث نقص في مملكة المنطق. فالعالم الواقعي، فيما كان يظن، ينطوي على الإرادة الحرة، وفضلاً عن ذلك، فإن الله قد اختاره تفضيلاً له عن أي عالم ممكن آخر. ولكن بما أن هذه العوالم هي أقل خيراً من العالم الواقعي، فاختيار أحدها لا يتسق مع خير الله، فهل لنا، إذن، أن نستنتج بأن الله لم يكن خيراً بالضرورة؟ وليبنتز يكاد أن لا يقدر على قول ذلك، لأنه، كالفلاسفة الآخرين، يعتقد من الممكن اكتشاف أشياء هامة، كطبيعة الله، بمجرد الجلوس الهادئ والتفكير، فهو يبتعد، مع ذلك، عن الجبرية التي تتضمنها هذه النظرة. ويأخذ ملاذاً له في الغموض والإبهام وبمهارة عظيمة يتجنب التناقض الحاد ولكن على حساب الفوضى المنتشرة التي تنفذ إلى كامل طريقته.

- 2 -

وابتكر الأسقف اللطيف باركلي منهجاً جديداً في دعاوى الدفاع عن المسيحية، الذي هاجم الماديين في زمنه بحجج أحياها، في وقتنا هذا، السير جيمس جينز Sir James Jeans، وغايته كانت مزدوجة. الأولى، هي البرهان على أن ليس ثمة شيء يسمى بالمادة، وثانياً: أن نستنتج من هذا الرأي السلبي الوجود الضروري لله. وفي النقطة الأولى، لم تجر أجوبة مطلقاً على حججه، ولكني أشك مما إذا كان يعبأ بتقديمها لو لم يعتقد بأنها كانت تؤلف دعامة للاستقامة اللاهوتية أو الدينية.

وإذا حسبت بأنك ترى شجرة، فباركلي يشير إلى أن ما تعرفه في الحقيقة هو ليس شيئاً خارجياً، بل تحولاً بنفسه، أو إحساس، أو كما يدعوه هو، «فكرة»، وأن كل ما تعرفه مباشرة ينقطع، إذا أغمضت عينيك. وكل ما تدركه كائن في ذهنك، وليس شيئاً مادياً خارجياً. فالمادة، إذن، هي فرض غير ضروري. والحقيقة في هذا الصدد عن الشجرة هي إدراك أولئك الذين يفترض أن «يرونها»، والباقي ليس سوى وهي قطعة ميتافيزيقا غير ضرورية.

إلى هذا الحد تعد حجة باركلي سليمة وذات قيمة كبيرة، ولكنه يغير لهجته خشية، وبعد، أن يعرض تناقضاً جريئاً يعود إلى الأهواء غير الفلسفية كأساس لتفكيره التالي. وهو يشعر بأن من العقم الظن بأن الأشجار والبيوت، الجبال والأنهار، الشمس والقمر والنجوم، موجودة فقط حينما ننظر إليها، وهذه كما توحي به علينا حججه السابقة وهو يعتقد أنه لا بد أن يكون هنالك ديمومة في الأشياء المادية، وشيئاً من الاستقلال بالنسبة للكائنات البشرية. ويضمن هذا اعتقاده بأن الشجرة هي فكرة حقيقية في ذهن الله، ولذا فهي تستمر في الوجود حينما لا يوجد أحد ينظر إليها. والنتائج المترتبة على تناقضه، إذا قبله، تجربة قد تبدو له مخيفة، ولكن هو ينقذ الاستقامة وأجزاء من الفطرة السليمة بانعطاف فجائي.

والوجل نفسه في قبول النتائج الشكوكية بحجته قد أظهرها جميع اتباعه، باستثناء هيوم، وأكثر تلاميذه عصرية، لم يتقدم في هذا الصدد أبداً عليه. إن أحداً لا يستطيع احتمال قبول القول بأنني إذا عرفت فقط «الأفكار» فهي أفكاري أنا التي أعرفها، ولذا فليس لدي سبب أن أعتقد بوجود أي شيء سوى حالاتي الذهنية. وأولئك الذين تقبلوا قيمة هذه الحجة البسيطة جداً لم يكونوا من تلاميذ باركلي، لأنهم وجدوا هذه الخاتمة غير مستساغة ولذا جادلوا بالقول بأن ما نعرف ليس «أفكاراً فحسب»*.

وهيوم طفل الفلسفة الرهيب، كان يتميز بأنه لا يحوز على دوافع غائية ميتافيزيقية. فقد كان مؤرخاً وباقياً كما كان فيلسوفاً، وكان له مزاج هادئ، وربما كان يستمد السرور بإزعاج مقترفي الأكاذيب كما أنه كان يستمد الأشياء بابتكار أكاذيب من صنعه. ومع ذلك، فالنتيجة لنشاط أعماله هو الحافز لإيجاد نوعين جديدين من الأكاذيب، الواحد في إنكلترا والآخر في المانيا. والنوع الجرماني هو أكثر اهمية.

---

* جانبان في فلسفة باركلي يتمثلان بالمقطوعتين العاديتين:

لقد كان ثمة إنسان يقول، «الله
يجب أن يظن من الغرابة القصوى
إذا وجد بأن هذه الشجرة
تستمر في الوجود
بينما لا يوجد أي شجرة في الباحة»
رونالد نوكس
سيدي العزيز،
إن دهشتك غريبة،
فأنا موجود دائماً في الباحة.
ولذا فالشجرة
ستستمر بالبقاء
ما دامت تشاهد،
من صديقك المخلص
الإمضاء الله

وأول ألماني اهتم بهيوم كان عمانويل كنط Immanuel Kant الذي كان مكتفياً حتى سن الخامسة والأربعين، بالتقليد العقائدي المستمد من ليبنتز. وكما قال، هو نفسه، لقد أيقظني هيوم «من سباتي العقائدي». وبعد التأمل مدة اثني عشر عاماً، أنتج كتابه الرئيسي العظيم، نقد العقل الخالص The Critique of Pure Reason، وبعد سبع سنين، حينما بلغ الرابعة والستين من عمره، أنتج كتابه نقد العقل العملي The Critique of Practical Reason، الذي استأنف فيه سباته العقائدي بعد ما يقرب من عشرين سنة من اليقظة القلقة، وكانت رغباته الأساسية منحصرة في رغبتين: أراد أن يكون متأكداً من نظام لا يتغير، وأراد أيضاً أن يؤمن بالمثل الخلقية التي تعلمها في طفولته. أما هيوم فكان مزعجاً في الاتجاهين، لأنه أكد بأننا لا نستطيع أن نثق بقانون السببية، وألقى ظلاً من الشك على حياة المستقبل، وبذا لن يكون من المؤكد أن يكافئ الرجل الخير في الجنة. والاثنا عشر سنة الأولى من تأملات كنط في هيوم خصصت لقانون السببية، وأنتج في النهاية حلاً بارزاً، وقال حقاً، نحن لا نستطيع أن نعرف بأن ثمة أسباباً في العالم الحقيقي، ولكننا لا نعرف مع ذلك أي شيء عن العالم الحقيقي. وعالم الظواهر، وهو العالم الوحيد الذي نستطيع أن نمارسه، يحوز على كل الخصائص التي نضيفها عليه بأنفسنا، وهذا مثل رجل يحوز على نظارتين خضراوتين لا يستطيع أن ينزعهما عن عينيه فمن المؤكد أن يرى الأشياء خضراء. فالظاهرات التي نجربها لها أسباب، وهذه الأسباب هي ظاهرات أخرى، وليس علينا أن نقلق إذا كان ثمة سبب في الحقيقة الكامنة وراء الظواهر، لأننا لا نستطيع أن نختبرها. وكان كنط يمشي في نزهة في الوقت ذاته تماماً كل يوم، ويتبعه خادمه يحمل له المظلة، والاثنا عشر سنة التي قضاها في وضع كتابه نقد العقل الخالص أقنع الرجل المسن، أن السماء إذا أمطرت، فالمظلة ستحول دون شعوره بالابتلال مهما كان قول هيوم عن قطرات المطر الحقيقية.

وقد كان ذلك مريحاً، ولكن هذه الراحة قد اشتراها بسعر مرتفع. فالمكان والزمان، التي تحدث فيها الظاهرات هما غير حقيقيان: فآلية التفكير النفساني عند كنط هي التي صنعتهما، فهو لم يكن يعرف الكثير عن

المكـان، إذ لم يـسافر مطلقـاً أكثـر مـن عـشرة أميـال خـارج كونجـسبرغ Konigsberg ، وربما لو سافر لشك بـأن يكون كل مـا ابتدعـه ذاتيـاً مـساوياً لاختراع أو ابتكار الجغرافيا فيما رأى. ومن المبهج، مع ذلك، أن يتأكد الإنسان من حقيقة الهندسة، لأنه بعد أن صنع المكان بنفسه، كان متأكداً تماماً بأنه قد جعله اقليدسا Euclidean، وكان متأكداً من ذلك دون النظر خارج ذاته، وبهذه الطريقة أصبحت الرياضيات سالمة تحت المظلة.

ولكن بالرغم من أن الرياضيات كانت سالمة، فالأخلاق كانت لا تـزال في خطـر. وفي كتابه نقد العقل الخالص يعلمنا كنط بأن العقل الخالص لا يستطيع أن يثبت حياة المستقبل ولا وجود الله، ولذا فهو لا يستطيع أن يؤكد لنا بأن ثمة عدالة في العالم. وفضلاً عن ذلك، كان هنالك صعوبة فيما يتعلق بالإرادة الحرة. فأعمالي، كما أستطيع مشاهدتها، هي ظاهرات، ولذا فإن لها أسباباً. أما عن ماهية أعمالي في ذاتها، فلا يستطيع العقل أن يخبرني بشيء عنها. وهكذا فإنني لا أعرف إذا كانت حرة أو ليست حرة. ومع ذلك، فالعقل «الخالص» ليس هو النوع الوحيد، فثمة عقل آخر ليس ـ «غير خالص»، (وهذه المقدمة المنطقية، طبعاً، تحتاج إلى قناع، فقد أدخلت إلى المجتمع الفلسفي تحت اسم «الأمر المطلق»). ويترتب على ذلك بأن الإرادة حرة، لأن من اللغو أن تقول «عليك أن تفعل كذا وكذا» ما لم تكن تستطيع فعله، ويترتب على ذلك أيضاً بأن ثمة حياة في المستقبل، لأن الخير دون ذلك لن يجد مكافأته اللائقة، ولا الشرير عقابه الملائم. ويترتب أيضاً بأن ثمة ضرورة لوجود الله لتنسيق هذه الأشياء، وربما أصاب هيوم بالهزيمة العقل «الخالص»، ولكن القانون الخلقي جدد في النهاية انتصار الميتافيزيقيين. وهكذا فقد مات كنط سعيداً، وقد كان موضع تكريم منذ ذلك الحين، وعقيدته قد أعلن عنها بأنها الفلسفة الرسمية للدولة النازية.

- 3 -

الفلاسفة، في معظمهم، جبناء في تربيتهم، ويكرهون غير المنتظر. وقليل منهم يكونون حقاً سعداء كقراصنة أو لصوص منازل. ووفقاً لذلك فإنهم يبتكرون أنظمة تحيل المستقبل قابلاً للحساب، على الأقل في خطوطه الرئيسية. والممارس المتفق في هذا الفن كان هيغل. فكان سير المنطق وسير التاريخ متماثلين بصورة واسعة. والمنطق في نظره، يحتوي على سلاسل من محاولات تصلح ذاتها في وصف العالم. فلو كانت محاولتك الأولى جد بسيطة، كما هي من المؤكد أن تكون، فإنك ستجد بأنها تناقض نفسها، ومن ثم تجرب الرأي المضاد، أو «الطباق»، ولكن هذا يناقض ذاته أيضاً. فيقودك ذلك إلى «تركيب»، يضم شيئاً من الفكرة الأصلية وشيئاً من عكسها، ولكنها أكثر تعقيداً وأقل تناقضاً ذاتياً من كليهما. وهذا الرأي الجديد، مع ذلك سيقيم الدليل على أنه غير ملائم وسيناسبه بفعل نقيضه، إلى تركيب جديد. ويستمر هذا السير حتى تصل إلى «الفكر المطلق» الذي لا تناقض فيه والذي يصف بذلك العالم الحقيقي.

ولكن العالم الحقيقي، في هيغل وفي كنط، ليس العالم الظاهري. فالعالم الظاهري يمضي في تطورات هي نفس التطورات التي يقطعها رجل المنطق إذا ابتدأ من الوجود الخالص ورحل بعد ذلك مستمراً حتى الفكر المطلق. والوجود الخالص يتمثل في الصين القديمة التي يعرف هيغل عنها فقط بأنها كانت موجودة، وأما الفكر المطلق فيتمثل بالدولة البروسية، التي منحت هيغل أستاذية في برلين. أما لماذا يجب أن يمضي العالم في هذا السير المتمثل بالتطور المنطقي فليس من الأمور الواضحة، ويميل الإنسان للظن بأن الفكر المطلق لم يدرك نفسه أولاً، واقترف أخطاء حينما جرب أن يجد نفسه في حوادث. ولكن هذا، طبعاً، ليس ما كان يريد أن يقوله هيغل.

لقد أرضت طريقة هيغل غرائز الفلاسفة بصورة أوفى من أي طريقة لأسلافه. وكانت غامضة بدرجة لا يستطيع هاو أن يأمل فهمها. لقد كانت متفائلة، لأن التاريخ هو تقدم في مراحل انتصار الفكرة المطلقة. ولقد بينت بأن الفيلسوف، الجالس في مكتب دراسته متأملاً في الأفكار المجردة، يستطيع أن يعرف عن العالم الواقعي أكثر مما يعرف رجل الدولة السياسي أو المؤرخ أو رجل العلم. أما بالنسبة لهذا، فيجب الاعتراف بأنه كان ثمة حادثة غير سعيدة. وهيغل أذاع برهانه بأن لا بد أن يكون هنالك سبعة كواكب تماماً وذلك قبل أسبوع من اكتشاف الكوكب الثامن. وقد لزم الصمت عن القضية وأعدت بسرعة نسخة منقحة جديدة، ومع ذلك، فكان هنالك أناس قابلوا الأمر بالسخرية. ولكن، وبالرغم من هذه النكسة، ظلت طريقة هيغل منتصرة إلى حين ما في ألمانيا. ولما أصبحت منسية تقريباً في وطنه أخذت تسيطر على الجامعات في بريطانيا وأمريكا. والآن، مع ذلك، أضحى المؤمنون بهذه النظرية من الناس قلة ويؤلفون فئة تتناقص بسرعة. ولم تحل محلها طريقة فيما بعد في الذهن الأكاديمي، وقليل من الناس الآن يتجرؤون على القول بأن الفيلسوف، يستطيع بمجرد التفكير دون مشاهدة، أن يكتشف أخطاء رجل العلم.

وخارج الجامعات، مع ذلك، انبثقت طريقة عظيمة أخيرة من رماد نظرية هيغل، وجعلت الإيمان السعيد في قوة الفكر حية في دوائر واسعة وهي القوة التي أضاعها أساتذتنا. وهذه النظرية الحية الأخيرة الباقية على قيد الحياة من بقايا نوع منقرض تقريباً هي عقيدة كارل ماركس. وقد استمد ماركس من هيغل اعتقاده بالجدلية - يعني بالنمو المنطقي بالموضوع، للموضوع والموضوع المضاد والتركيب من الموضوعين الذي تبين من خلال التاريخ الإنساني وليس في الفكر المجرد فحسب. وهيغل، وهو على رأس مهنته محترماً من مواطنيه، قال من الممكن اعتبار الدولة البروسية كالهدف الذي كانت تنزع نحوه جميع الجهود السابقة، ولكن بالنسبة لماركس، الفقير، المريض، والمنفي، كان من الواضح بان العالم لم يصبح بعد كاملاً. فدورة إضافية لعجلة الدولاب الجدلي - يعني ثورة أخرى ضرورية قبل الوصول إلى العصر الألفي. ولا شك بأن هذه الثورة سوف تحدث لأن ماركس، كهيغل، يعتبر التاريخ سيراً منطقياً، وبذلك تكون

مراحله غير قابلة للشك كالحساب، فالإيمان والأمل إذاً يجدا مكاناً في العقيدة الماركيسية.

ومعظم نظريات ماركس مستقلة عن هيغل، ولكن العنصر الهيغلي هو عنصر هام، لأنه يؤدي إلى تأكيد النصر والشعور بالوجود في جانب القوى الكونية التي لا تطاول. ومن الوجهة العاطفية، يكون الإيمان بالجدلية الهيغلية، حينما ينطوي وجوده في نفوس أولئك الذين تكون ظروفهم الراهنة غير سعيدة، هي مضاهية للإيمان المسيحي في العودة الثانية، ولكن أساسها المنطقي من المفروض أن يمنحها سيطرة على الرأس كما يمنحها السيطرة على القلب. وسيطرتها على الرأس يجابه الخطر لا بالكثير من الأهواء البرجوازية أكثر من الطبع التجريبي العلمي الذي يرفض القول بأننا نستطيع المعرفة عن الكون بقدر ما يظن الميتافيزيقيين. وربما كان الاعتدال التجريبي صعباً لدرجة لا يستطيع الناس أبداً الاحتفاظ به إلا إذا كانوا سعداء. فإذا كان الأمر كذلك فأن صنوف المعتقدات غير العقلية في زماننا هذا هي نتيجة طبيعية لما فرضناه على أنفسنا من أنواع الشقاء، وعصر جديد من الميتافيزياق قد توحي به كوارث جديدة.

- 4 -

الفلسفة هي مرحلة في النمو الفكري، وهي لا تنسجم والنضوج العقلي. ولكي يمكن ازدهارها، يجب الاستمرار في الاعتقاد بعقائد تقليدية، ولكن ليس بدرجة ثابتة من اليقين لا تحمل على التنقيب عن الحجج التي تدعمها، فيجب أن يكون ثمة اعتقاد بأن الحقائق الهامة يمكن أن تكتشف بمجرد التفكير، بدون مساعدة من المشاهدة. وهذا الاعتقاد هو حقيقي في الرياضيات الخاصة، التي ألهمت كثيراً من الفلاسفة العظماء. وهي حقيقة في الرياضيات لأن تلك الدراسة هي في جوهرها شفهية، وليست حقيقية في مكان آخر، لأن الفكر وحده لا يستطيع أن يقرر واقعاً غير شفهي. والمتوحشون والبرابرة يعتقدون

بالصلة السحرية بين الأشخاص وأسمائهم التي تجعل من الخطر السماح للعدو أن يعرف ما يسمون. والفرق بين الكلمات وما تدل عليه هي فن الأشياء الصعبة التي يمكن تذكرها دائماً، والميتافيزيقيون، كالمتوحشين، هم قابلين لتخيّل صلة سحرية بين الكلمات والأشياء، أو على كل حال بين القواعد والبناء العالمي. والجمل لها مبتديات وأخبار (جمع خبر)، ولذا فالعالم يحتوي على أشياء مادية وصفات معنوية. وظلت هذه الحجة قائمة حتى قبل زمن قصير جداً لدى معظم الفلاسفة تقريباً، أو بالأحرى، سيطرت على آرائهم تقريباً دون علم منهم.

وفضلاً عن الخلط بين اللغة وما تعنيه، هنالك مصدر آخر للاعتقاد بأن الفيلسوف يستطيع أن يكتشف الحقائق بمجرد التفكير، وهذه هي العقيدة التي تجعل العالم راضياً من الوجهة الأخلاقية. ودكتور بانفلوس في دراسته يستطيع أن يتأكد من أن أي كون هو الكون الأفضل، الممكن بالنسبة لطريقته في التفكير، ويستطيع أن يقنع نفسه، مادام مقيماً في مكتبه الدراسي في أن الكون يعني إرضاء مطالبه الأخلاقية. وبيرنارد بوسانكيه Bernard Bosanquet، الذي ظل حتى موته أحد زعماء الفلسفة البريطانية المعترف بهم، قد بيّن في كتابه المنطق، بصورة واضحة المستند إلى أسس منطقية، أن «من الصعب أن يعتقد المرء، مثلاً، في احتمال ظهور كارثة تتغلب على الحضارة التقدمية كحضارة أوربا المعاصرة ومستعمراتها». والمقدرة على الاعتقاد بأن «قوانين الفكر» لها نتائج سياسية مريحة هي دليل على التحيز الفلسفي. فالفلسفة على عكس العلم تصدر، عن نوع من التوكيد الذاتي: الاعتقاد على أن غايتنا لها علاقة هامة بغايات الكون، وأن مجرى الحوادث سيصبح بالضرورة بشكل عام، كما نشتهي. والعلم قد هجر هذا النوع من التفاؤل، ولكنه اتجه إلى تفاؤل آخر: بواسطة ذكائنا، نستطيع أن نجعل العالم متطوراً بشكل مرضي، لنسبة كبيرة من رغباتنا. وهذا أمر عملي، آزاء ذلك الأمر الميتافيزيقي، أو التفاؤل. وإنني لآمل بأن هذا لن يبدو للأجيال المقبلة رأياً أحمقاً كما هو كذلك الذي حدثنا عنه دكتور بانفلوس.

* * *

(5)

الفضيلة السامية للمظلومين

إن إحدى وسائل الخديعة المستمرة في البشرية تقوم على أن بعض أقسام الجنس البشري هي خلقياً أفضل أو أسوأ من الأقسام الأخرى. وهذا الاعتقاد الذي يتمثل في مختلف الأشكال، لا يحتوي أي واحد منها على قاعدة عقلانية. ومن الطبيعي أن نظن حسناً عن أنفسنا، وذلك إذا كانت طرقنا العقلية بسيطة، في المبنى، الطبقة، الأمة، والعصر. ولكن بين الكتاب، ولاسيما الذين يعانون كتابة الأخلاقيات منهم، فأن ما يسود هو إفصاح أقل مباشرة من الاعتبار الذاتي السائد بينهم. فهم ينزعون إلى التفكير تفكيراً سيئاً بجيرانهم ومعارفهم، ولذلك فهم يظنون حسناً بأقسام البشرية التي ينتمون إليها بذواتهم. لقد كان لو - تسي معجباً «بالرجال القدامى الصافين»، الذين عاشوا قبل مجيء السفسطة الكونفوشية. وتاسيتوس Tacitus ومدام ستيل Madame. de Stel أعجبا بالألمان لأنهم لم يكن لهم إمبراطور ما. ولوك كان يظن ظناً حسناً «بالأمريكي الذكي» لأنه لم يضل طريقه بالسفسطات الكارتيزينية Cartesian.

وثمة شكل غريب بالأحرى من الإعجاب بين الفئات التي لا ينتمي إليها المعجب وهي الاعتقاد بالفضيلة السامية للمظلومين: أي الأمم الخاضعة، الفقراء، النساء، والأطفال. في القرن الثامن عشر، حينما جرى انتزاع أمريكا من الهنود، وتحويل القرويين إلى حالة العمال الفقراء، وإدخال القساوات التي كانت تنطوي عليها الحركة الصناعية الأولى، ساد حب التعاطف على «النبيل المتوحش» و«الإحداث البسيطة للفقراء». والفضيلة، كما قيل، لم تكن لتوجد في البلاطات: ولكن سيدات البلاط استطعن تقريباً أن يضمنوها بتخفيهن كراعيات. أما بالنسبة للجنس المذكر:

سعيد هو الرجل الذي تنحصر إرادته ورغبته

واهتمامه ببضع فدادين أبوية

ومع ذلك، فإن بوب Pope نفسه فضل لندن ودارته في تويكنهام Twickenham.

وفي الثورة الأفرنسية أصبحت الفضيلة السامية للفقراء قضية حزبية. وظلت كذلك منذ ذلك الحين. أما الرجعيون فأصبحوا «الحثالة» أو «الرعاع». واكتشف الأغنياء بدهشة، بأن بعض الناس كانوا من الفقر على جانب منهم حتى من «اقتناء بضع فدادين أبوية». ومع ذلك، فالأحرار، ظلوا ينظرون نظرة مثالية إلى الفقير الريفي، بينما فعل الشيء ذاته الاشتراكيون والشيوعيون بالنسبة لطبقة البروليتارية في المدن - وهي أمر مستحدث، التي سأرجع إليها فيما بعد، لأنها أصبحت هامة فقط في القرن العشرين.

أما القومية فقد أدخلت، في القرن التاسع عشر، كبديل للنبيل المتوحش - أي الوطني في أمة مضطهدة. واليونان الذين أنجزوا تحررهم من الترك، كالهنغاريين الذين حصلوا على التسوية Ausgleich سنة 1867 من النمساويين، والإيطاليون حتى سنة 1870، والبولنديون حتى حرب 1914 - 1918 كان يعتبر كل هؤلاء من الناحية الرومانطقية كأمم شاعرية موهوبة، أكثر تمسكاً في المثل العليا مما يحول بينها وبين النجاح في هذا العالم. أما الأرلنديون فكانوا يعتبرون من قبل الإنكليز ناساً يحوزون على سحر خاص واستبصار صوفي وظلوا كذلك إلى سنة 1921، حينما وجد بأن نفقات الاستمرار في اضطهادهم ستصبح مستحيلة. وقد أخذت أمة بعد أخرى من هذه الأمم ترتفع إلى درجة الاستقلال، ووجد أنها ككل أمة أخرى في صفاتها، ولكن التجربة بأولئك الذين تحرروا لم تفعل شيئاً لتبديد الوهم في أولئك الذين ما يزالون يناضلون. النساء الإنجليزيات المسنات مازلن ينظرن بروح عاطفية إلى «حكمة الشرق» والمثقفون الأمريكيون ما برحوا يفكرون «بوعي الأرض» لدى الزنوج.

والنساء اللائي كن في موضع أقوى العواطف قد نظر إليهن بصورة لا عقلانية أكثر مما نظر إلى الفقراء والشعوب الخاضعة. إنني لا أفكر بما يجب

أن يقوله الشعراء بل أفكر بالآراء المعتدلة لأولئك الذين يتخيلون أنفسهم عقلانيين. والكنيسة كانت ذات موقفين متضادين: الموقف الأول من جهة، الذي تعتبر فيه المرأة خاوية، مما قاد الرهبان والآخرين إلى الخطيئة، ومن جهة أخرى، كانت المرأة قادرة على القداسة إلى درجة أعظم تقريباً مما كان عليه الإنسان. ومن الناحية اللاهوتية، يتمثل النموذجان بحواء وبالعذراء. وفي القرن التاسع عشر رجعت المرأة الغاوية إلى الخلف. كان هنالك دون ريب نساء «سيئات»، ولكن بعض النساء ذات الاعتبار خلافاً لرأي القديس أوغسطين وأتباعه وخلفائه لا يصادقن على أن الخطاط المذكورين يستطيعون أن يغرونهن ولم يرغبوا في الاعتراف بوجودهم. وقد ابتكر نموذج مزيج من المرأة الطاهرة مادونا Madonna وسيدة الفروسية كالمثل الأعلى الذي يجب أن تتصف به المرأة المتزوجة العادية. فقد كانت ناعمة وأنيقة، وكانت على الازدهار الذي قد يمكنها بالاحتكام بالعالم الخشن، وكانت تعتنق مثلاً عليا قد تصبح مظلمة باتصالها بالشر، وهي كالكليتيين Celts والسلافيين Slavs والنبيل المتوحش، ولكن إلى درجة أعظم، كانت تتمتع بطبيعة روحية، جعلتها متفوقة على الرجال ولكنها غير كفوء للعمل أو السياسة أو للمحافظة على ثروتها الخاصة. ووجهة النظر هذه لم تزل غير منطفئة تماماً. ومنذ فترة قصيرة، جواباً لخطاب ألقيته لصالح التساوي في الأجور لقاء العمل المتساوي، أرسل لي مدرس إنجليزي نشرة أذاعها اتحاد المعلمين. وتبين هذه النشرة الرأي المعاكس الذي تدعمه بحجج غريبة. وتقول هذه النشرة عن المرأة: (نحن نضع بكل سرور نصفها الأول كقوة روحية، ونعترف بها ونتخيلها «كالجزء الملائكي من البشرية»، ونمنحها التفوق في كل الكياسات وأصناف النعومة التي نقدر عليها ككائنات بشرية، ونرغب منها بأن تحتفظ بكل طرقها الأنثوية الجذابة). و«هذا النداء» ـ بأن يكن النساء قانعات بأجور أكثر انخفاضاً ـ «تبدو منا إليهن كما نحن»، متأكدين، «دون روح أنانية، ولكن بدافع الاحترام والإخلاص لأمهاتنا، ونسائنا، وأخواتنا، وبناتنا... فهدفنا هو هدف مقدس، وهو نضال روحي حقيقي».

وقبل خمسين أو ستين سنة مضت ما كانت هذه اللغة لتثير أي تعليق إلا من جانب حفنة من أنصار المرأة، والآن وقد حصل النساء على التصويت فيبدو أنها أصبحت عتيقة بالية. والاعتقاد بتفوقهن «الروحي» هو جزء لا يتجزأ من العزم على إبقائهن منخفضات اقتصادياً وسياسيا. وحينما هزم الرجال في هذه المعركة، وجب عليهم أن يحترموا النساء. ولذلك امتنعوا عن تقديم «تبجيل» لهن كعزاء عن انخفاضهن.

لا بل ظهر شيء مشابه لذلك في نظر الكبار عن الأطفال. فالأطفال، كالنساء، كانوا من الوجهة اللاهوتية، أشراراً، ولاسيما بين الإنجليين. فقد كانوا يعتبرون كأطراف الشيطان، وغير قابلين للإصلاح، وكما أفصح في ذلك بصورة عجيبة الدكتور واتز

ضربة واحدة من عصا الله تعالى جلت قدرته

يمكن أن ترسل الخطا الصغار سريعاً إلى جهنم

وكان من الضروري أن يجري «إنقاذهم». ففي مدرسة وسلي Wesley «جرى تحول شامل باستثناء صبي فريد الذي قاوم مع الأسف نفوذ الروح القدس، وضرب لذلك بالسياط بقساوة...» ولكن خلال القرن التاسع عشر، حينما شعرت السلطة الأبوية، كسلطة الملوك والقسس والازواج، بأنها مهددة، استعملت مناهج أكثر مهارة لخنق الشعور بعدم الخضوع. والأطفال كانوا «أبرياء»، كفضيلات النساء لهم «فطرتهم»، ويجب أن يتمتعوا بالحماية من معرفة الشر حتى لا يفقدوا فطرتهم.وهم يتمتعون فضلاً عن ذلك، بنوع خاص من الحكمة. وقد جعل الشاعر وردزورث Wordsworth هذه النظرية شائعة بين الشعب المتكلم بالإنجليزية. فجعل من المألوف أولاً أن يمنح الأطفال

غرائز سامية ترتجف إزاءها طبيعتنا الفانية

كفرد مذنب أخذ على غره

ولم يكن هناك في القرن الثامن عشر شخص يقول لابنته الصغيرة، إلا إذا ماتت:

إنك تضطجعين في حضن إبراهيم طيلة السنة

وتعبدينه في المزار المقدس في داخل المعبد

ولكن في القرن التاسع عشر أصبحت هذه النظرية شائعة تماماً، والأعضاء المحترمون للكنيسة الأسقفية - بل حتى في الكنيسة الكاثوليكية - قد تجاهلوا دون خجل الخطيئة الأولى لينغمروا في الضلال الشائع الذي مؤداه بأننا إذا

... تابعنا سحب المجد أننا نصدر

عن الله الذي هو ملاذنا:

السماء تقيم حولنا في طفولتنا

وهذا أدى إلى التقدم المعتاد. فقد بدأ الناس يرون أن مما لا يكاد اعتباره حقاً بقصاص مخلوق كان يركد في حضن إبراهيم، أو باستعمال العصا أكثر من استعمال «الغرائز السامية» لتجعله «يرتجف كمذنب أخذ على حين غرة». وهكذا فإن الآباء والمعلمين وجدوا بأن المسرات التي كانوا يستمدونها من التعذيب قد تقلصت ونمت نظرية تربية ترى من الضرورة أن ينظر بعين الاعتبار إلى رفاه الطفل، لا راحة الكبار والشعور بالسلطة فحسب.

إن العزاء الوحيد الذي سمح به الكبار لأنفسهم كان ابتكار علم نفس للأطفال جديد. فالأطفال، بعد أن كانوا من أطراف الشيطان وفقاً للاهوت التقليدي وملائمة مستثيرة صوفياً في عقول المصلحين التربويين، قد انقلبوا بأن أصبحوا شياطين صغار - لا شياطين لاهوتيين يستلهمون الشر الفريد، ولكنهم مفزعات فرويدية علمية تستلهم العقل الباطن. فهم، كما يجب القول، أكثر شراً بكثير مما ورد عنهم في هجاء الرهبان، فهم يظهرون، في النصوص الحديثة، ابتكاراً واستمراراً في تصوراتهم المذنبة التي لم يضاهيها في الماضي شيء إلا ما ورد في سانت أنطوني St.Anthony. فهل هذا كله أخيراً الحقيقة الموضوعية؟ أو هو فقط تعويض تخيّل من الكبار لكي لا يسمحوا لأنفسهم بعد ذلك بتهشيم صغار الأوبئة؟ دع الفرويديين يجيبون، كل واحد للآخرين.

وكما يبدو من المثل المختلفة التي درسناها، فالمرحلة التي تعزى فيها الفضيلة السامية للمضطهدين هي عابرة وغير ثابتة. وتبتدئ فقط حينما يكون المضطهدون يمتلكون ضميراً سيئاً، وهذا يحدث حينما تصبح سلطتهم غير مضمونة بعد ذلك. فأصابع المثالية على الضحية مفيد لوقت ما: فإذا كانت الفضيلة هي أعظم أنواع الخير، وإذا جعل الخضوع الناس من الفضلاء، فمن المستحسن رفض سلطتهم لأنها قد تهدم فضيلتهم. فإذا كان من الصعوبة لرجل غني أن يدخل ملكوت السماوات، فمن العمل النبيل من جانبه أن يحفظ ثروته فيعرض هناءه الأبدي للخطر بفائدة إخوانه من الفقراء. لقد كان ثمة تضحية ذاتية لطيفة من قبل الرجال أن ينقذوا النساء من العمل في ميدان السياسة.. وهلمجرا. ولكن الطبقة المضطهدة ستناقش عاجلاً أم آجلاً بأن فضيلتها السامية هي سبب يبرر لها السلطة، وسيجد الطغاة أسلحتهم تعود إلى نحورهم. وحينما تصبح السلطة أخيراً تقوم على المساواة فيبدو في الظاهر لكل إنسان أن الحديث كله عن الفضيلة السامية هذراً فارغاً، وأن من غير الضروري تماماً أن تكون أساساً لطلب المساواة.

أما بالنسبة للإيطاليين، الهنغاريين، النساء، والأطفال، فقد قطعنا الدائرة بكاملها. ولكننا لا نزال في منتصفها في الحالة التي هي على أعظم جانب من الأهمية في الوقت الحاضر - أعني، قضية البروليتارية. والإعجاب بالكادحين هو أمر حديث جداً. وفي القرن الثامن عشر، حينما كان يمدح «الفقراء»، كان الفكر يذهب دائماً إلى الفقراء الريفيين. وبديمقراطية جفرسون **Jefferson** توقفت عند دهماء المدن، حيث أراد أن تبقى أمريكا بلاد المزارعين. والإعجاب بالكادحين، كالإعجاب بالسدود ومحطات الطاقة، والطائرات، جزء من عقائدية عصر الآلة. ولو تحدثنا عنها بعبارات إنسانية، فالاعتقاد فيها لا يتمتع إلا قليلاً لصالح كالاعتقاد بالسحر الكلتي **Celtie**، والنفس السلافية **Slav**، والحدس النسائي، وبراءة الأطفال. فإذا كان الأمر يتناول الغذاء السيئ، والتعليم القليل، والافتقار إلى الهواء ونور الشمس، وظروف السكن غير الصحية، والعمل الإضافي الذي ينتج أناساً أفضل مما ينجم عن الغذاء الجيد، والهواء المطلق، والتعليم والسكن الملائمين، ومقدار من الفراغ المعقول،

فإن القضية بكاملها التي تتناول إعادة الاقتصادي ستتلاشى، وإننا نستطيع أن نبتهج بأن نسبة مئوية كبرى من السكان تتمتع بالظروف التي تنتج الفضيلة. ولكن بالرغم من هذه الحجة واضحة، فإن كثيراً من المفكرين الاشتراكيين والشيوعيين يعتبرون أن من الإفراط الادعاء بأن الطبقة الكادحة ستكون أكثر وداً من الأناس الآخرين، بينما هم يبشرون برغبة لأبطال الشرور، التي وفقاً لآرائهم، من شأنها فقط أن تنتج كائنات بشرية طيبة. وقد نظر للأطفال نظرة مثالية من قبل الشاعر وردورث وغير مثالية من فرويد Freud. وماركس Marx كان وردورث الكادحين، وأما فرويدهم فنحن بانتظار مجيئه.

* * *

(6)

كيان الرجل الحديث

عصرنا هو أكثر العصور إقليمية شاملة منذ هوميروس، وأنني لا أتحدث هنا عن أي إقليم أو أبرشية جغرافية: فسكان مودكومب Mudcombe على البحر هم أكثر معرفة من أي وقت مضى عما يجري ويفكر فيه في براغ Praha، وفي غوركي Gorki، أو في بيكين Peihing. ونحن إقليميون هنا بالمعنى الزمني: لأن الأسماء الجديدة تغطي أسماء المدن التاريخية كبراغ Prague، ونجني نوفغورود Nijni-Novgorod، وبكين Pekin، ولذا فإن شعارات جديدة تخفي عنا الأفكار والمشاعر التي كانت تنطوي عليها قدمانا، وحتى لو كانت تختلف قليلاً عن مشاعرنا وآرائنا. ونحن نتصور أنفسنا في ذروة الذكاء، ولا نستطيع أن نعتقد بأن الثياب الغريبة والعبارات المعقدة في الأزمنة الماضية تضم أناساً وآراء لا تزال حتى الآن جديرة بعنايتنا. وإذا أريد أن يكون هاملت Hamlet موضوع اهتمام قارئ حديث، فيجب أن يترجم بادئ ذي بدء إلى لغة ماركس أو فرويد، أو، أفضل من ذلك أن يترجم إلى مصطلح مركب من الاثنين بصورة غير ملائمة. قرأت منذ مضي بضع سنين مراجعة هادئة لكتاب من قبل سانتيانا Santayana، ويذكر في هذه المراجعة بحثاً عن هاملت «مؤرخاً بكل تأكيد سنة 1908» ـ وكأن ما اكتشف منذ ذلك الحين جعل التقدير المبكر السابق لشكسبير غير ملائم وسطياً بالمقارنة معه. ولم يدر في خلد المراجع بأن مراجعته «مؤرخة، في كل تأكيد، سنة 1936». أو ربما دار الفكر في خلده، وملأه بالرضى والغبطة. فهو كان يكتب للبرهة الراهنة، لا لكل الأزمان، وفي السنة التالية قد يختار ما يشيع مجدداً من الآراء، مهما تكن، وهو لا شك يأمل أن يظل عصرياً طالما استمر في الكتابة. وأي مثل أعلى لكاتب قد يبدو سخيفاً وعتيقاً في طرازه بالنسبة للرجل الحديث عقلياً.

والرغبة في أن يصبح المرء عصرياً هي ولا شك جديدة فقط في الدرجة، فقد وجدت لحد ما في كل العصور الماضية التي كانت تحسب نفسها تقدمية. وعصر النهضة (الرينسانس Renaissance) كان يزدري العصور القوطية Gothic التي سبقته، وأما القرنان السابع عشر والثامن عشر فقد غطيا الموزاييك أو الفسيفساء التي لا تقدر بثمن بطبقة كلسية، والحركة الرومانسية Romantic كانت تزدري عصر الشعر البطولي. ومنذ ثمانين عاماً مضت وبخ ليكي Lecky أمي لأنها كانت تعاكس صيد الثعالب وفقاً للعادة الفكرية الشائعة، وكتب يقول: «إنني متأكد» بأنك «لست عاطفية حقيقية نحو الثعالب أو أنك تنفرين صدمة من أجمل تعابير تؤكد حقوق المرأة، وأنت تركبين لاجتياز البلاد. ولكنك دائماً تنظرين إلى السياسة وإلى الذهن كجنس شرس وأنت تخافين فزعاً بأن لا تكوني متقدة أو مفكرة بصورة كافية». ولكن لم يحدث في الأزمان المنصرمة أن وصل احتقار الماضي إلى درجة تامة كما هو الآن. فمنذ عصر النهضة إلى آخر القرن الثامن عشر كان الناس معجبين بالآثار الرومانية، والحركة الرومانسية أعادت القرون الوسطى إلى الحياة، ووالدتي، بالرغم من إيمانها الكامل في تقدم القرن التاسع عشر، كانت تقرأ باستمرار شكسبير Shakespeare وميلتون Milton. ولم يتجاهل الناس الماضي بمجموعه إلا منذ نشوب حرب 1914 ـ 1918.

والاعتقاد بأن الطارئ الجديد يجب أن يسيطر بمفرده على الرأي له فوائد عظمى. فهو يجعل الفكر غير ضروري ويضع أعلى درجات الذكاء في متناول كل إنسان. وليس من الصعب أن يتعلم المرء الاستعمال الصحيح لكلمات كـ «عقدة»، «أوديب»، «بروجوازي»، «انحراف»، «يسار»، ولا يحتاج المرء إلى أكثر من ذلك ليصبح كاتباً أو محدثاً لامعاً. وبعض هذه الكلمات على الأقل، كانت تمثل كثيراً من الفكر من لدن مستنبطيها، وكالنقد الورقي يمكن في الأصل تحويله إلى ذهب. ولكن أصبحت بالنسبة لأغلب الناس غير قابلة للتحويل، ونقصها كان بمثابة ازدياد للثروة الاسمية في الأفكار. وهكذا أصبحنا قادرين على احتقار الثراء الفكري الزهيد للأزمنة الماضية.

أما الرجل ذو العقل العصري، فبالرغم من اعتقاده بعمق في حكمة زمنه، لا بد أن يحسب متواضعاً جداً بالنسبة لقواه الشخصية. فأمله الأعلى أن يفكر أولاً فيما الذي يجب أن يفكر فيه، وأن يقول ما الذي يجب قوله، وأن يشعر ما يجب الشعور به، لا يكون له الرغبة بأن يفكر بآراء أفضل مما يفكر جيرانه، وأن يقول أشياء تبين استبصاراً أعلى، وأن يكون له عواطف ليست كعواطف بعض الفئات الرائجة، بل كل ما يريده أن يكون متقدماً ولو قليلاً عن الآخرين بالنسبة للزمن. وهو يحذف عن تعمد تام ما يراه فردياً في ذاته ليكسب إعجاب القطيع. وحياة عقلية منعزلة كحياة كوبرنيكوس Copernicus، أو سبينوزا Spinoza، وميلتون بعد التجدد، تبدو دون هدف بالنسبة للمقاييس الحديثة. فكوبرنيكوس كان يجب أن يؤجل تبشيره بالنظام الكوبرنيكي ريثما يصبح هذا النظام شائعاً، وسبينوزا كان يجب أن يكون إما يهودياً طيباً أو مسيحياً طيباً، وميلتون كان يجب أن يسير مع زمنه، كأرملة كرومويل Cromwell التي طلبت من شارل الثاني Charles II معاشاً تقاعدياً على أساس أنها لم توافق على سياسة زوجها. ولماذا يضع الفرد نفسه كقاض مستقل؟ أليس من الواضح بأن الحكمة تنطوي في دم العنصر النوردي Nordic، أو، بتداول آخر، في الطبقة الكادحة؟ وعلى كل حال ما هو نفع الرأي الشاذ الغريب، الذي لا يستطيع أن يقهر وكالات أعلام؟

والمكافآت المالية والشهرة الواسعة وأن تكن عابرة جعلتها هذه الوكالات وسائل ممكنة من الإغراءات في طريق الرجال القادرين الذين تصعب مقاومتهم. والمرء بميله بأن يشار إليه، وأن يكون موضع الإعجاب، وأن يذكر دوماً في الصحافة، وأن تقدم له الطرق السهلة في كسب الكثير من المال هو أمر مسر، وحينما يصبح كل ذلك مفتوحاً أمام الإنسان، يجد من الصعوبة أن يستمر في إجراء العمل الذي يحسبه أفضل الأعمال ويصبح ميالاً لإخضاع رأيه بالرأي العام.

ثمة عوامل أخرى مختلفة تؤدي إلى هذه النتيجة. وأحد هذه العوامل هو سرعة التقدم التي جعلت من الصعوبة القيام بعمل لا يمكن الاعتياض عنه سريعاً. فنيوتن Newton ظل مشهوراً حتى آنيشتين Einstein وانيشتين نفسه

يعتبر من قبل الكثيرين عتيقاً. ويكاد المرء أن لا يرى أي رجل علم، في الوقت الحاضر، عاكفاً على كتابة أثر عظيم، لأنه يدرك بأنه حين يكتبه، سيكتشف آخرون أشياء جديدة تجعله بالياً قبل أن يظهر للوجود. والنغمة العاطفية في العالم تتغير بسرعة مماثلة، كالحروب والأزمات، والثورات تطارد بعضها بعضاً على مسرح الحياة. والحوادث العامة تعتدي على الحياة الخاصة بقوة أكثر مما كان يجري في الأيام السابقة. وسبينوزا بالرغم من آرائه الهرطقية، استطاع أن يبيع نظارات وأن يتأمل، حتى حين كانت بلاده تغزى من قبل أعداء غرباء، ولو عاش حتى الآن، فمن المرجح أن ينخرط في سلك التجميل أو يوضع في السجن. ولهذه الأسباب فمن المطلوب توفر طاقة أعظم من الاعتقاد الشخصي لتقود الإنسان إلى الوقوف صامداً أمام تيار زمنه أكثر مما كان يحتاج في أي زمن سابق منذ عصر النهضة.

وللتغير، مع ذلك، سبب أعمق. وفي الأيام السالفة كان الناس يرغبون في خدمة الله. وحينما أراد ميلتون أن يتمرن «على الموهبة التي يختبئ دونها الموت»، شعر بأن نفسه كانت «ميالة إلى خدمة صانعه»، وكل فنان متمدين في ذهنه كان مقتنعاً بأن الأحكام الاستيطاقية لله تنطبق على أحكامه، ولذا فهو يملك سبباً، مستقلاً عن التصفيق الشعبي لعمل ما كان يعتبره أفضل شيء، ولو كان أسلوبه قد غدا عتيقاً. ورجل العلم في متابعة الحقيقة، حتى ولو اصطدم بالخرافة الجارية، كان لا يزال يظهر عجائب الخلق ويجعل عقائد الناس غير الكاملة أقرب إلى التناغم مع معرفة الله الكاملة. وكل عامل جدي، سواء أكان فناناً، أو فيلسوفاً، أو فلكياً، كان يؤمن بأنه في اتباع عقائده الخاصة كان يخدم أهداف الله أيضاً. ولما أخذت هذه العقيدة بدخول الظلام مع تقدم عصر التنوير ظلت مع ذلك الظواهر الثلاث وهي الحقيقة، الخير، والجمال. والمعايير غير البشرية كانت لا تزال تقام في السماء، حتى ولو كانت السماء خلواً من الوجود الطوبغرافي.

وظلت الحقيقة والخير والجمال في وجود متقلقل خلال القرن التاسع عشر في عقول الملاحدة الجادين، ولكن جديتهم كانت تؤول إلى بطلان تأثيرهم،

لأنها جعلت من المستحيل عليهم في منزل يقع في منتصف الطريق. والبروغمائيون العمليون Pragmatists كانوا يفسرون الحقيقة بأنها هي التي تمنح اعتقادنا ثمناً. ومؤرخو الشؤون الأخلاقية حولوا الخير إلى قضية عادة قبلية. ولقد بطل أثر الجمال من قبل الفنانين في تمردهم ضد الآثار التافهة المعسولة في عصر يسود فيه دجالو الفكر وفي مزاج من الغضب لا يزيله بالرضا إلا إذا استمد مما يؤذي في نتيجته. ولذا فقد خلا العالم من الله لا كشخص فحسب بل من جوهر الله وكمثل أعلى يدين له الإنسان بالخضوع المثالي، بينما الفرد، كنتيجة للتفسير الفج وغير النقدي للعقائد الصحيحة أصبح بدون دفاع داخلي ضد الضغط الاجتماعي.

إن جميع الحركات قد ذهبت في مباغتاتها قصياً، وهذا يصح بصورة مؤكدة على حركات الاتجاه نحو الإيمان الذاتي، الذي ابتدأ بلوثر Luther وديكارت كتوكيد للفرد وبلغ الذروة بمنطق فطري يرتكز إلى خضوعه وذاتيته التامين. والذاتية في الحقيقة هي عقيدة متسرعة لا يمكن استنتاجها بصورة قيمة من المقدمات التي ظن أنها تنطوي عليها، وعادات العصور جعلت كثيراً من الأشياء تبدو مرتبطة بالاعتقاد اللاهوتي بينما هي ليست كذلك في حقيقة الأمر. وقد عاش الناس بنوع واحد من الوهم، وحينما فقدوه وقعوا في شباك وهم آخر. ولكن ليس من الممكن مكافحة خطأ قديم بخطأ جديد. والنزاهة والموضوعية، سواء أكانت في الفكر أو الشعور، قد اقترنت تاريخياً لا منطقياً ببعض المعتقدات التقليدية، وللمحافظة عليها دون هذه المعتقدات أمر ممكن وهام معاً. ومن الجوهري وجود درجة ما من الانعزال في المكان والزمان لتوليد الاستقلال المطلوب في أهم الأعمال، ويجب أن يكون ثمة شيء يشعر المرء بأنه أكثر أهمية من إعجاب الجماهير المعاصرين. ونحن لا نعاني العذاب من انحلال العقائد اللاهوتية بل من فقدان الوحدة.

* * *

(7)

موجز في القمامة الفكرية

الإنسان حيوان عاقل - هكذا على الأقل ما أخبرت به. وطيلة حياة طويلة، قد فتشت باجتهاد عن دليل لدعم هذا القول، ولكنني حتى الآن لم يرافقني الحظ بالعثور عليه، مع أنني فتشت عنه في كثير من الأقطار المنتشرة في ثلاث من القارات وبالعكس، رأيت العالم يغرق باستمرار في بحر من الجنون. ولقد رأيت أمماً عظيمة، كانت تقود الحضارة في السابق، ضلت طريقها بواسطة المبشرين بالهذيان المنفوخ بالعظمة، كما رأيت القساوة والتعذيب والخرافة تتضاعف بخطوات جبارة، حتى وصلنا إلى نقطة أصبح مديح العقلانية يعتبر كإشارة على إنسان من الزمن الغابر ظل على قيد الحياة بصورة يؤسف لها من عصر منصرم. وكل هذا مؤلم أو مزعج، ولكن التشاؤم هو عاطفة غير نافعة ولكي أنجو منها قد اندفعت إلى دراسة الماضي بصورة أدق مما فعلت في السابق، ووجدت، كما وجد ايرسموس Erasmus، أن الحماقة دائمة، ومع ذلك فقد ظل الجنس البشري على قيد الحياة. وحماقات زماننا هي أسهل للاحتمال حينما نراها وراء أرضية الحماقات الماضية. وفيما يلي سأمزج طيش أيامنا بطيش القرون السالفة. وربما تساعد النتيجة بأن نرى أزمنتنا الحاضرة في منظور ملائم، وليست أسوأ من العصور الأخرى التي عاشها أجدادنا دون أن يصابوا بكارثة نهائية.

وأرسطو، كما أعرف، كان أول إنسان قد أعلن بوضوح بأن الإنسان حيوان عاقل. والسبب الذي حفزه إلى هذا الرأي كان سبباً لا يبدو الآن جديراً بالملاحظة كثيراً، فثمة أناس يستطيعون جمع المبالغ. وقد حسب أرسطو بأن هنالك ثلاثة أنواع من النفوس: النفس النباتية، التي تمتلكها جميع الأشياء

الحية، أي كل من النبات والحيوان، وهذا الطراز من النفوس لا يعنى إلا بالغذاء والنمو، والنفس الحيوانية، التي تعنى بالحركة، ويشترك فيها الإنسان والحيوانات الدنيا، وأخيراً النفس العقلانية، أو الذهن، الذي هو عقل الله، والتي فيها يشترك البشر جميعاً لحد أقصى أو أدنى بالقياس مع حكمتهم. والإنسان بمقتضى العقل هو حيوان عاقل. والذهن ينجلي بطرق شتى، ولكن بصورة توكيدية في معرفة الحساب معرفة فائقة. وكانت الطريقة الإفريقية في الأعداد سيئة جداً، حتى أن جدول الضرب كان صعباً جداً، وما كان يستطيع أن يقوم بالحسابات المعقدة إلا الأناس الذين يتحلون بالمهارة الكاملة. أما الآن، فإن الآلات الحاسبة تقوم بالجمع بصورة تفوق أمهر الناس، ومع هذا، فلا يناقش أحد بأن هذه الآلات النافعة هي أبدية، أو أنها تسير بوحي إلهي. ولما أصبح الحساب أسهل منالاً، غدا أقل احتراماً. والنتيجة أن كثيراً من الفلاسفة ما برحوا ينبؤونا بأننا أناس ممتازون، ولكن ذلك المديح لا يعود إلى سبب مهارتنا الحسابية.

وبما أن عادة العصر السائدة لا تسمح لنا بعد الآن بأن نحسب الفتيان البارعين في الحساب والإحصاء كدليل على أن الإنسان عاقل، وأن النفس هي على الأقل جزئياً خالدة، فلنبحث في مكان آخر. وأين ترانا نبحث أولاً؟ هل لنا أن ننظر إلى أولئك الساسة البارزين، الذين قادوا العالم منتصرين إلى الموقف الراهن؟ وهل نختار رجال الأدب؟ أو الفلاسفة؟ إن جميع هؤلاء لهم دعاواهم، ولكني أظن بأننا يجب أن نبتدئ بأولئك الذين يعترف جميع ذوي الفكر المستقيم بأنهم أحكم الناس وأفضلهم، أعني الإكليروس. فإذا فشلوا بأن يكونوا عقلاء، فما يبقى من أمل إذ أولئك الذين يقلون عنهم مرتبة، من أبناء الفناء؟ ومن المؤسف - مع أنني أقولها مقترنة بالاحترام اللائق - أن هنالك أزماناً لم تكن فيه حكمتهم واضحة جداً، ومن الغريب القول، بأن تلك الأيام هي التي كانت فيها سلطة الإكليروس السلطة العليا.

إن عصور الإيمان التي يمتدحها الفلاسفة المدرسيون الجدد، حلت حينما كان الإكليروس يديرون الأشياء حسب هواهم. فالحياة اليومية كانت مليئة

بالمعجزات يقوم بها قديسون وسحرة عن طريق الشياطين والسحرة. وقد أحرقت الآلاف من الساحرات على أعواد المحارق. وخطايا الناس عوقبت بالأوبئة، والجوع، وبالزلازل، والطوفان، والحرائق. ومع ذلك، فمن الغريب القول، بأنهم كانوا أكثر اقترافاً للخطايا مما هم عليه الآن. ولم يعرف عن العالم آنئذ إلا قليلاً من الناحية العلمية. وقليل من الناس تذكروا البراهين الإغريقية بأن الأرض مستديرة، ولكن معظم الناس كانوا يسخرون من التعليمات التي تقول بأن الأرض تنقسم إلى نصفين. ومجرد الظن بأن هنالك كائنات بشرية أكثر في نصفي الكرة كان يعد هرطقة وضلال. وكان الاعتقاد السائد (مع أن الكاثوليك المصريين يؤمنون بوجهة نظر أكثر اعتدالاً)، بأن الأكثرية الساحقة من البشرية هي مدانة بالذنوب، وكان الناس يعتقدون بأن الأخطار تكمن في كل خطوة. فالشياطين قد تستقر في طعام الرهبان الذي يوشكون على تناوله، وأنهم سيمتلكون أجساد أولئك الذين يأكلون من غير احتياط ويحذفون إشارة الصليب قبل كل لقمة. والناس من ذوي العقلية العتيقة مازالوا يقولون: «ليباركك الرب» حينما يعطس الإنسان، ولكنهم قد نسوا السبب لهذه العادة. والسبب كان لدى الناس كانوا يحسبون بالعطس يقذفون أنفسهم من جسدهم، وقبل أن تستطيع العودة من الممكن أن يدخل الشياطين المتربصون للجسم الخالي من النفس، ولكن إذا قال المرء (فليباركك الله)، يوجس الشياطين خيفة ويفرون.

وخلال الأربعمائة سنة الأخيرة، التي بُيّن خلال نمو العلم بالتدريج كيفية الحصول على معرفة طرق الطبيعة والسيطرة على قواها، ناضل الإكليروس في معركة خاسرة ضد العلم، سواء في الفلك أو علم الجيولوجيا، وفي التشريح والفيزيولوجيا، والبيولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع. وحينما كانوا يطردون من موضع يحلون في موضع آخر. وبعد هزيمتهم في الفلك، بذلوا أقصى الجهد للحيلولة دون نشوء علم الجيولوجيا، وقد حاربوا داروين في البيولوجيا، وهم الآن يحاربون ضد النظريات العلمية في علم النفس والتربية. وفي كل مرحلة، كانوا يحاولون أني جعلوا الجمهور يتناسى جهالتهم الأولى، وذلك لكي يمكن الاعتراف بجهالتهم الراهنة وفق ماهيتها. دعنا نلاحظ بعض الأمثال عن

اللاعقلانية بين الإكليروس منذ نشوء العلم، ثم نبحث فيما إذا كانت بقية البشرية أفضل من ذلك.

حينما اخترع بنجامين فرانكلين Benjamin Franklin عامود الصاعقة، ندد به الإكليروس، في إنكلترا وأمريكا، بدعم حماسي من الملك جورج الثالث George III، واعتبروه محاولة غير تقية لإحباط إرادة الله. لأن جميع الناس المستقيمي الفكر، كانوا يعرفون بأن الصاعقة ترسل من الله لمعاقبة الطلاح (البعد عن التقوى) أو أي ذنب أشد سوءاً - والناس الأفاضل لا تصيبهم الصاعقة مطلقاً، ولذا إذا أراد الله أن يضرب أحداً، فيجب على بنجامين فرانكلين أن لا يحبط خطته، وفي الحقيقة فإننا بهذا العمل نساعد المجرمين على النجاة. ولكن الله قادر بهذه الحال، على تنفيذ إرادته، إذا آمنا برأي نيافة الدكتور برايس Dr. Price، أحد اللاهوتيين البارزين في بوسطن Boston. فبعد أن أصبحت الصاعقة غير مجدية بواسطة «الرؤوس الحديدية التي ابتكرها الحكيم الدكتور فرانكلين»، فإن الهزات الأرضية قد هزت ولاية ماساشوستس Massachusetts التي رأى الدكتور برايس بأنها تعود إلى غضب الله على «الرؤوس الحديدية». وفي موعظة عن الموضوع قال: «لقد نصبت هذه القضبان في نيو أنجلند New England، أكثر من أي مكان آخر واهتزت نتيجة ذلك مدينة بوسطن Boston كما يبدو، بصورة مفزعة أكثر من غيرها. ولا سبيل للخلاص من يدي الله القوية». وفيما يظهر، بعد ذلك، فإن العناية الإلهية قد يئست من شفاء بوسطن من شرها؛ لأن أعمدة الصواعق، بالرغم من ازدياد شيوعها أكثر فأكثر، غدت الزلازل في ماساشوستس نادرة. ووجهة نظر الدكتور برايس، أو شيء يضاهيها، لا يزال يتمسك بها بعض الناس ممن أكثرهم نفوذاً في عصرنا الحاضر. وفي وقت من الأوقات، حينما تعددت الزلازل المخيفة في الهند، حذر المهاتما غاندي Mahatma Gandhi بصرامة مواطنيه بأن هذه الكوارث فرضت عليهم كعقاب لخطاياهم.

وحتى في الجزيرة التي أعيش فيها لا تزال هذه النظرة قائمة، وخلال حرب 1914 - 18، فعلت الحكومة البريطانية الكثير لتشجيع إنتاج الطعام في البلاد

نفسها. وفي سنة 1916، حينما كانت الأمور لا تسير سيراً حسناً، كتب قسيس اسكوتلندي إلى الصحف قائلاً بأن الفشل الحربي يعزى بسماح الحكومة بأن تزرع البطاطا في أيام السبت. ومع ذلك، فقد أمكن تجنب الكارثة، بالنظر إلى الحقيقة التي جعلت الألمان يعصون جميع الوصايا العشر، لا وصية واحدة فقط.

وفي بعض الأحيان، إذا أردنا تصديق الرجال الأتقياء، تكون رحمات الله انتقامية بصورة عجيبة. إن توب ليدي Top lady مؤلف كتاب صخرة العصور Rock of Ages، انتقل من أبرشية إلى أخرى، وبعد أسبوع عقيب انتقاله، تحترق الأبرشية التي كان يشغلها، وتصيب القس الجديد بخسارة عظمى. ولذا فإن توب ليدي كان يشكر الله، ولكن ما الذي فعله القس الجديد فأمر لا ندري له سبب. وبورو Borrow، في كتابه، الكتاب المقدس في أسبانيا Bible in Spain، يسجل لنا كيف أنه بدون عائق اجتاز مضيقاً جبلياً موبوءاً بعصابات الأشقياء. مع أن الفريق التالي الذي اجتاز هذا المعبر، انقض عليه اللصوص ونهبوا وقتلوا بعضهم، ولما سمع بورو بذلك شكر الله كما شكره توب ليدي.

على الرغم من أننا نتعلم الفلك الكوبرينكي في كتبنا، فهو لم ينفذ إلى ديانتنا أو تعاليمنا الأخلاقية، بل لم ينجح في تحطيم اعتقادنا بالتنجيم. وما يزال الناس يفكرون بأن المخطط الإلهي ينظر نظرة خاصة إلى الكائنات البشرية، وأن عناية إلهية خاصة لا تعنى بالصالحين فحسب، بل تعاقب الأشرار. وإنني لأشعر بالصدمة من تجديف أولئك الذين يحسبون انفسهم اتقياء - كالراهبات مثلاً، اللائي لا يستحممن دون أن يتسربلوا ثياب الاستحمام. وحينما يسألون، لماذا، إذ ليس ثمة رجل يراهن، يجبن: «ولكنك تنسى الإله الطيب». وفي الظاهر يتصورون الإله كـ توم Tom الذي يسترق النظر الذي تمكنه قوته المطلقة من أن يرى مجتازاً جدران الحمام، ولكنه يفشل من دثار الحمام. وهذه النظرة تدهشني لغرابتها.

وفكرة «الخطيئة» بكاملها هي فكرة أراها محيرة أو مذهلة، ولا شك أن ذلك يعود إلى الطبيعة الخاطئة. فإذا كانت «الخطيئة» تحدث ألماً لا حاجة إليه، فأستطيع أن أفهم ذلك، ولكن على العكس، فإن «الخطيئة» تعني تجنب

الألم الذي لا حاجة إليه. ومنذ بضع سنين مضت، عرض في مجلس اللوردات مرسوم لجعل الموت الطوعي قانونياً في أحوال المرض المؤلم والذي لا يرجى شفاءه. ومن الضروري موافقة المريض، كذلك الحصول على شهادات طبية عديدة. وبالنسبة لي، لما برأتُ عليه من بساطة قد يبدو من الطبيعي طلب موافقة المريض، ولكن المرحوم أسقف كنتربري Canterbury، الخبير الإنكليزي الرسمي في الخطيئة، أوضح خطأ هذا الرأي، لأن موافقة المريض تحول الموت الطبيعي إلى انتحار، والانتحار خطيئة. وأصغى السادة اللوردات إلى صوت السلطة بالموافقة ورفضوا المرسوم. وبالنتيجة فمما يسر الأسقف - واله إذا كان حديثه عنه صادقاً - فإن ضحايا السرطان يجب أن يحتملوا طيلة شهور نزاعاً وعذاباً غير مجدي بكامله ما لم يكن أطباؤهم أو ممرضاتهم على جانب كاف من الشعور الإنساني للمغامرة بتهمة القتل. وإنني لأجد صعوبة في التفكير بإله يبتهج بتأمل هذه الأصناف من العذاب، وإذا كان هناك إله قادر على ارتكاب هذه القساوة الدنيئة، فإنني ولا شك لا أعتقد بأنه جدير بالعبادة. ولكن هذا يدل فقط على المدى الذي أنا غارق فيه بالانحلال الخلقي.

وإنني كذلك لأواجه بالظهور الأشياء التي هي من الخطايا والأشياء التي ليست هي كذلك. وحينما سألت جمعية منع القساوة عن الحيوانات البابا أن يدعمها، رفض ذلك، على أساس أن الكائنات البشرية لا تدين بأي واجب نحو الحيوانات الدنيا، وأن إساءة معاملة الحيوانات لا تجلب الخطيئة. ويعود ذلك إلى كون الحيوانات لا تمتلك نفوساً. ومن جهة أخرى، فإن من الشر، أن تتزوج شقيقة زوجتك المتوفاة - هذا على الأقل ما تقول به الكنيسة - مهما بلغت مشيئتك ومشيئتها لهذا الزواج. وهذا لا يعود إلى الشقاء الذي قد ينجم عن هذه الزيجة، لكن وفقاً لبعض النصوص في الكتاب المقدس.

إن بعث الجسد الذي هو مادة من عقيدة الرسل، هي اعتقاد تنطوي على كثير من النتائج الغريبة. ولقد كان ثمة مؤلف قبل مضي سنوات غير كثيرة الذي ابتكر طريقة خاصة لإحصاء تاريخ نهاية العالم. ولقد ناقش بأن من الواجب أن تظل بعض العناصر الضرورية الكافية من جسم الإنسان لتزود كل

امرئ بمتطلبات اليوم الآخر أو الدينونة. وبعد أن أحصى بنهاية المادة الخام الأولية المتاحة، قرر بأن كل شيء سيكون مستهلكاً في تاريخ معين. وحينما يحل هذا التاريخ، يجب أن ينتهي العالم وإلا أصبح بعث الجسم مستحيلاً. وللأسف، فإنني نسيت تاريخ هذا البعث، ولكنني أعتقد بأنه ليس بعيداً جداً.

والقديس توماس الاكويني الفيلسوف الرسمي للكنيسة الكاثوليكية، قد ناقش بإسهاب وجدّ مشكلة خطيرة، التي أخشى أن يهملها اللاهوتيون المعاصرون بدون سبب. فهو يتخيل أن رجلاً من أكلة لحوم البشر ينالون الأبدية، ولكن، إذا لم يكن الأمر كذلك، فما الذي بقي لأكلة لحوم البشر؟ وكيف يجب أن يشوى شياً ملائماً في جهنم، إذا عاد كل جسمه وتجدد في أصحابه الأصليين؟ إن هذا السؤال محير كما يدركه القديس بحق.

وفي هذا الصدد فالمؤمنون الخلص، يعترضون بصورة غريبة على إحراق الأجسام مما يدل على أنهم يظهرون آراء غير كافية عن معرفة القدرة الكلية لله. ولقد كان يظن بأن جسماً يحرق يغدو أكثر صعوبة عليه لجمع رماده مرة ثانية من الجسد الذي دفن تحت الأرض وتحول إلى ديدان. ومما لا شك فيه أن جمع الجزيئات الصغيرة من الهواء وإبطال مفعول العمل الكيميائي للاحتراق سيكون مجهداً إلى حد ما، ولكن يبدو من التجديف أن نحسب أن هذا العمل مستحيل على قدرة الله. وإنني لأقول بالختام أن الاعتراض على الحرق ينطوي على ضلال خطير. ولكنني أشك في أن يكون لرأيي أي وزن لدى المؤمنين الخلص.

لقد وافقت الكنيسة ببطء وباشمئزاز على تشريح الجثث بالنسبة لدراسة الطب. والرائد في التشريح كان فيساليوس Vesalius، الذي كان طبيباً للبلاط لدى الإمبراطور شارل الخامس Charles V. فمهارته الطبية حفزت الإمبراطور لحمايته، ولكنه بعد وفاة الإمبراطور كثرت أمامه المصاعب. فإن جثثاً كان يقوم بتشريحها قد قيل بأنها أظهرت بعض علامات الحياة تحت مبضعه، وقد اتهم بالقتل. ومحكمة التفتيش قد أغريت من الملك فيليب الثاني Philip II لاتخاذ أي لين، وحكمته فقط بالحج إلى الديار المقدسة. وفي الطريق إلى العودة

تحطمت به السفينة ومات من الإعياء. وعقيب هذا الوقت خلال قرون كثيرة، لم يسمح لتلاميذ الطب في الجامعة البابوية في روما إلا في إجراء العمليات على الأشخاص العلمانيين الذين أزيلت منهم الأعضاء التناسلية.

وتقديس الجثث هو عقيدة سائدة على ما أعتقد، وقد كانت تمارس إلى أقصى مدى من المصريين، وأدت بهم لذلك إلى ممارسة تحنيط الجثث. ولا تزال هذه القداسة قائمة بكل قوتها في الصين، ويحدثنا جراح أفرنسي كان يستخدمه الصينيون لتعليم الطب الغربي بأن طلبه للجثث بغية التشريح كان يقابل بفزع، ولكنه كان متأكداً بأن يستفيض عنها بعدد لا يحصى من المجرمين الأحياء. واعتراضه على هذا الخيار لم يكن مفهوماً أبداً من قبل مستخدميه الصينيين.

ومع أن ثمة أنواعاً كثيرة من الخطايا، فإن سبعاً منها هي قاتلة، وأكثر حقل مثمر للشيطان في هذا الصدد هو الجنس، والعقيدة الكاثوليكية المستقيمة في هذا الموضوع موجودة في تعاليم القديس بولص St. Paul، والقديس أوغسطين St. Augustine، والقديس توماس الإكويني St. Thomas Aquinas. وأفضل شيء أن يظل الإنسان عازباً، ولكن هؤلاء الذين لم يحوطوا بموهبة القناعة يمكنهم الزواج. والاتصال في الزواج ليس من الخطايا، بشرط أن يكون الباعث عليه الرغبة في النسل. وكل اتصال جنسي خارج نطاق الزواج هو خطيئة، وكذلك كل اتصال جنسي في نطاق الزواج إذا اتخذت إجراءات لمنع الحمل وإيقاف الحمل خطيئة، حتى ولو كان في نظر الرأي الطبي، الوسيلة الوحيدة لإنقاذ حياة الأم، لأن الرأي الطبي غير معصوم عن الخطأ، والله يستطيع دائماً أن ينقذ حياة بمعجزة يراها ملائمة (وهذا الرأي ينطوي عليه القانون في كونكتيكوت Connecticut) لمرض الزهري الذي هو عقاب إلهي للخطيئة. وحقاً أن زوجاً مذنباً قد يجعل هذا العقاب يقع على المرأة والأطفال الأبرياء، ولكن هذا تدبير خفي من العناية الإلهية يغدو الشك فيه مخالفاً للتقوى. ونحن يجب أن نتساءل أيضاً: لماذا لم يقرر ألهياً مرض الزهري حتى زمن كولمبوس Columbus؟ وبما أنه العقاب المعني للخطيئة فإن كل التدابير

للحيلولة دونه هي أيضاً من الخطايا ـ طبعاً، إلا إذا كانت الحياة حياة فاضلة. الزواج لا ينحل بصورة اسمية، ولكن كثيراً من الناس الذين يبدو أنهم متزوجون ليسوا كذلك. وفي حالة بعض الكاثوليك، من ذوي النفوذ يمكن إيجاد سبب غالباً للانفصال، أما بالنسبة للفقراء، فليس ثمة منفذ لذلك، إلا ربما في أحوال العنة. والأشخاص الذين يطلقون ويتزوجون ثانية يرتبكون الزنا في نظر الله.

إن عبارة «في نظر الله» تذهلني، وأن الإنسان ليحسب بأن الله يرى كل شيء، ولكن هذا خطأ فيما يظهر، فهو لا يرى رينو Reno، ولكنك لا تستطيع أن تكون مطلقاً في نظر الله. ومكاتب السجل هي نقطة مشكوك بها. وإنني لألحظ بأن الناس المحترمين، الذين لا يزورون أي امرئ يعيش في خطيئة مفضوحة، هم راغبون في زيارة أناس لم يكن زواجهم سوى زواج مدني، وهكذا ينظر الله في الظهر إلى مكاتب التسجيل.

وبعض الرجال البارزين ذهبوا إلى الظن بأن عقيدة الكنيسة الكاثوليكية تتراخى بكل أسف فيما يتعلق بالجنس. وقد قرر تولستوي ومهاتما غاندي، في شيخوختهما، بأن كل اتصال جنسي هو اتصال شرير، حتى في الزواج وفي إنجاب النسل. والمانويون Manicheans كانوا يفكرون مثلهم، معولين على انطباع الفطرة الطبيعية على الخطأ في الناس لتزويدهم بمحصول جديد دائم من المريدين. وهذه العقيدة، هي مع ذلك، مضللة مع أن الضلال أيضاً التأكيد بأن الزواج جدير بالثناء كالعزوبة. وتولستوي Tolstoy يظن أن التبغ هو مضر تقريباً كالجنس، وفي إحدى رواياته، كان الرجل في الرواية الذي فكر في القتل يدخن لفافة من التبغ أولاً لكي يستطيع توليد الفورة الطبيعية الغضوبة للقتل. والتبغ، مع ذلك، ليس ممنوعاً في النصوص المقدسة، مع أن صموئيل بطلر Samuel Butler يقول، بأن القديس بولص لو عرف هذا التبغ لندد به دون شك.

ومن الغريب أن الكنيسة والرأي العام المعاصر لا يندون بالدعابة، بشرط أن تقف وتقتصر إلى حد ما. أما في أي نقطة تبتدئ الخطيئة فهو أمر يختلف فيه الفقهاء الدينيين. وأحد رجال اللاهوت المستقيمين قال بأن رجل الاعتراف يمكنه

أن يداعب نهود الراهبة، بشرط ألا يخامره أي قسط شرير. ولكنني أشك أن يتفق معه ذوو الشأن المعاصرون في هذا الأمر.

أما الأخلاق الحديثة فهي مزيد من عنصرين: من جهة، تقوم المثل المعقولة التي ترسم سلوك الإنسان بالعيش بسلام في المجتمع، ومن ناحية أخرى الزواج التقليدي المستمد في الأصل من خرافة قديمة، بل هي تقريباً مستمدة من الكتب المقدسة، سواء كانت مسيحية، أو إسلامية، أو هندوكية، أو بوذية. والعنصران يتفقان إلى حد ما، فمن القتل والسرقة مثلاً يجد دعامة من العقل البشري والأوامر الإلهية. ولكن منع لحم الخنزير لا يرتكز إلا إلى سلطة النصوص المقدسة، وهذا يقتصر على بعض الأديان. ومن الغريب أن الناس المعاصرين، الذين يدركون ما فعله العلم في جلب المعرفة الحديثة وتغير ظروف الحياة الاجتماعية لا يزالون راغبين بقبول سلطة النصوص التي تنطوي فيها نظرة القبائل القديمة والغارقة في الجهل وهي القبائل الرعوية والزراعية. وما يثبط العزم أن كثيراً من الأقوال التي يعترف بطابعها المقدس بصورة خالية من النقد من شأنها أن تبعث الشقاء بكاملها بصورة غير ضرورية. ولو كانت حوافز الناس اللطيفة أقوى لوجدوا طريقة ما لتفسير هذه الآراء بأنها لا تؤخذ حرفياً أكثر مما تؤخذ التوصية القائلة: «بع كل ما تملك وهبه للفقراء».

وثمة مصاعب منطقية في فكرة الخطيئة. ولقد قيل لنا بأن الخطيئة تنطوي على عصيان أوامر الله، ولكننا أخبرنا أيضاً بأن الله قادر على كل شيء. وإذا كان كذلك، فلا شيء يمكن أن يحدث مخالف لإرادته، ولذلك حينما يعصي الخاطئ أوامره، لا بد أن الله قد أراد لذلك أن يحدث. والقديس أوغسطين يقبل هذا الرأي بجرأة، ويؤكد بأن الناس يقادون إلى ارتكاب الخطيئة بالعمى الذي يصيبهم به الله. ولكن أغلب اللاهوتيين في العصور الحديثة، قد شعروا بأن الله إذا أراد للناس أن يقترفوا الخطيئة، فليس من الإنصاف إرسالهم إلى جهنم لما لا يستطيعون منه مناصاً. ولقد قيل لنا بأن الخطيئة تعني العمل ضد إرادة الله. وهذا، مع ذلك، لا ينقذنا من المصاعب. وأولئك الذين يأخذون بجد القوة المطلقة لله، كسبينوزا، يستنتجون بأن من غير

الممكن وجود شيء يسمى الخطيئة. وهذا يؤدي إلى نتائج مخيفة. ماذا قال معاصرو سبينوزا؟ ألم يكن من الشر في نيرون أن يقتل أمه؟ ألم يكن من الشر لآدم أن يأكل التفاحة؟ وهل العمل الواحد هو جيد كالآخر؟ وسبينوزا يخاتل، ولكنه لا يجد جواباً مرضياً. فإذا كان كل شيء يحدث وفقاً لإرادة الله، فإن الله لا بد أن أراد من نيرون أن يقتل أمه، ولذا، فإن كان الله طيباً، فالقتل يجب أن يكون من الأمور الطيبة. ولا يمكن التملص من هذه الحجة.

ومن جهة أخرى، فإن أولئك الذين يفكرون بجد بأن الخطيئة عصيان لله مجبرون على القول بأن الله ليس قادراً على كل شيء. وهذا يخرج من جميع المتاهات المنطقية المحيرة، وهو الرأي الذي اختارته مدرسة معينة من اللاهوتيين الأحرار. ومع ذلك، فلها مصاعبها الخاصة. فكيف نعرف ما تريده إرادة الله في الحقيقة؟ فإذا كانت قوى الشر تحوز على حصة من القوة، فقد تخدعنا بقبول ما هو في الحقيقة من عملهم وكأنه نص مقدس، وكان هذا رأي الغنوطيسين أو العارفين الذين كانوا يحسبون العهد القديم أثر من شروح شريرة.

حينما نهجر عقولنا، ونعتمد على النصوص المنقولة، فليس ثمة نهاية لاضطرابنا. وأي نص منقول؟ العهد القديم؟ العهد الجديد؟ القرآن؟ من الوجهة العملية، يختار الكتاب الذي يعتبر مقدساً من قبل المجتمع الذي يولدون فيه ومن هذا الكتاب يختارون الأجزاء التي تروق لهم، ويتجاهلون الأجزاء الأخرى، وفي وقت ما كان أكثر النصوص تأثيراً في الكتاب المقدس القول: «لا تسمح لساحرة أن تعيش». ويمر الناس الآن على هذا النص، صامتين إذا أمكن، وإذا لم يكن، فيقترن كلامهم بالاعتذار. وكذلك، فإننا حتى إذا امتلكنا كتاباً مقدساً، فلا نزال ننتقي الحقيقة التي تناسب أهواءنا. فليس ثمة كاثوليكي مثلاً، يأخذ بعين الجد، النص القائل بأن الأسقف يجب أن يكون زوج امرأة واحدة.

ولعقائد الناس أسباب مختلفة. ومنها أن هنالك دليلاً على العقيدة المذكورة. ولنطبق هذه القاعدة على قضايا الواقع، مثلاً «ما هو رقم هاتف فلان وفلان» أو «من ربح السلسلة العالمية؟» ولكن حالما يصل الأمر إلى شؤون أكثر

قابلية للنقاش تصبح أسباب العقيدة أقل صلاحاً للدفاع عنها. فنحن نعتقد، بادئ ذي بدء، ما الذي يجعلنا نشعر بأننا أناس طيبين. ومستر هومو Homo، إذا كان يحوز على قوة هضم صحيحة ودخل حسن، يظن بنفسه كم هو أكثر حكمة من جاره فلان، الذي تزوج امرأة مسرفة وهي تبدد المال دائماً. ويظن بأن مدينته متفوقة على مدينة تبعد خمسين ميلاً عنها: وهي تمتلك غرفة تجارية أضخم ونادياً للروتاري أكثر نشاطاً، ومحافظها لم يدخل السجن أبداً. وهو يفكر بأن بلاده تفوق البلاد الأخرى بشكل لا يقاس، وإذا كان إنكليزياً، هو يفكر بشكسبير وميلتون، أو نيوتن وداروين، أو نيلسون Nelson ولنفتون Wellington، وفقاً لمزاجه. وإذا كان أفرنسياً، فهو يهنئ نفسه على الحقيقية التي تمثل فرنسا في عصور كثيرة قائدة للعالم بالثقافة، والمودة، وطهي الطعام. وإذا كان روسياً، فهو يفكر بأنه ينتمي إلى الأمة الوحيدة التي هي أمة دولية بالحقيقة. وإذا كان يوغوسلافياً، فهو يفخر بخنازير أمته، وإذا كان مواطناً من مقاطعة موناكو، فإنه يفخر بزعامة العالم في شؤون القمار.

ولكن هذه ليست الأمور الوحيدة التي يجب عليه أن يهنئ نفسه بها. أو ليس هو فرد من نوع الإنسان العاقل أو العارف؟ فهو الوحيد بين الحيوانات الذي يملك نفساً خالدة، وهو عاقل، فهو يعرف الفرق بين الخير والشر، وقد تعلم جدول الضرب. أو لم يبرؤه الله على صورته؟ ولم يخلق كل شيء لراحته؟ فالشمس قد خلقت لتنير النهار، والقمر لينير الليل ـ مع أن القمر، بشيء من غض النظر، يشع فقط نصف الساعات الليلية. والفواكه الطبيعية في الأرض خلقت لإعالة الإنسان. وحتى الذيول البيضاء للأرانب، وفقاً لأقوال بعض اللاهوتيين، تهدف إلى قصد، وذلك بأن تجعل من الأسهل على الصيادين اقتناصها. وهنالك، لا شك، بعض المزعجات: فالأسود والنمور شرسة جداً، والصيف حار جداً، وبرودة الشتاء جد قارصة. ولكن هذه الأشياء قد بدأت فقط بعد أن أكل آدم التفاحة، وقبل ذلك، كانت الحيوانات جميعها نباتية، والفصل كان دائماً ربيعاً. ولو اكتفى آدم فقط بالدراق بكل أنواعه والعنب والكمثرى والأناناس، لظلت هذه النعم متاحة لنا.

إن الاعتبار الذاتي سواء أكان فردياً أو نوعياً، هو مصدر أغلب العقائد الدينية. حتى الخطيئة فإنها تصور مستمد من الاعتبار الذاتي. ويقص علينا بورو Borrow كيف التقى بواعظ ولشيمى Welsh (من مقاطعة ويلز) الذي كان دائماً كئيباً. وبعد سؤال عطوف أمل على الاعتراف بمصدر حزنه وذلك: بأنه قد اقترف في سن السابعة خطيئة ضد الروح القدس. (يا صديقي العزيز)، قال له بورو، «لا تدع الأمر يزعجك، أنا أعرف دزينات من الناس في حالة مماثلة. فلا تحسب نفسك منقطعاً عن بقية البشرية في هذا الحادث، فإذا حققت، تجد جموعاً من الناس يتعذبون من نفس هذا العثار في الحظ». ومنذ ذلك الحين، شفي الرجل. فقد تلذذ بأن يشعر نفسه منفرداً، ولكن سروره قد زاد بعد أن أصبح فرداً من قطيع الخطاة. وأغلب الخطاة هم بالأحرى أقل أنانية، ولكن اللاهوتيين يتلذذون دون شك بالشعور بأن الرجل هو الهدف الخاص من غضب الله، وكذلك من حبه. وبعد السقوط يؤكد لنا ميلتون بأن -

الشمس

كانت تفكر بالحركة، والإشعاع،

بما يؤثر بالأرض حراً وقراً

وهي تكاد ألا تحتمل،

واستدعاء الشتاء الكسيح من الشمال ومن الجنوب

جلب حرارة الصيف الاستوائية.

ومهما كانت النتائج كريهة، فإن آدم لم يسعه إلا الشعور بالسرور بأن هذه الظواهر الفلكية الواسعة قد حصلت لتلقنه درساً. واللاهوت كله، فيما يتعلق بجهنم بقدر ما يتعلق بالجنة، يفرض بأن الإنسان هو أهم ما في الكون من الخلائق المبتدعة، ولما كان جميع اللاهوتيين بشراً، فلم تلق هذه الفرضية إلا معاكسة ضئيلة.

ومنذ أصبح التطور دارجاً أخذ تمجيد الإنسان شكلاً جديداً. فقد أخبرنا بأن التطور يقاد إلى غاية عظمى: فمن خلال ملايين السنين حين لم يكن سوى

الصلصال والنقاعيات*، وفي جميع عصور الديناصور والنباتات الجبارة، ومن النحل والزهور البرية كان الله يعد الذروة العظمى. وأخيراً، حين تكامل الزمن، أنتج الإنسان، ومن هؤلاء البشر نماذج كثيرة مثل كاليغولا Caligula، وهتلر Hitler وموسوليني Mussolini الذين برروا مجده السامي السير المؤلم الطويل. وعندي، أنني أجد حتى في التنديد الأبدي، ما هو أقل قابلية للتصدير، وطبعاً أقل باعثاً على السخرية من هذه الخاتمة العرجاء والعاجزة التي يطلب منا أن نعجب بها كجهد أسمى للقدرة الكلية. وإذا كان الله حقاً كلّي القدرة فلماذا لم ينتج هذه الخاتمة المجيدة دون هذه المقدمة الطويلة والمملة.

فضلاً عن القضية التي تحسب الإنسان عبيداً في الحقيقة كما يقول لاهوتيو التطور أنه كذلك، فثمة صعوبة إضافية تتمثل في أن الحياة على هذا الكوكب هي تقريباً مؤقتة بشكل مؤكد. فالأرض ستصبح باردة، والهواء سينقشع بالتدريج، وستصبح الأرض مزودة بماء لا يكفيها، أو كما يتنبأ بذكاء السيرجيمس جينز James Jeans، بأن الشمس ستتفجر وجميع الكواكب ستتحول إلى غاز. وأي من هذه الأمور سيحدث أو لا يدري أحد، ولكن الجنس البشري على كل حال سينقرض في النهاية. ولا شك، أن هذا الحادث ذو أهمية ضئيلة من وجهة نظر اللاهوت المستقيم، وذلك لأن البشر خالدون، وسيظلون موجدين في الجنة وجهنم حين لا يبقى أحد على وجه الأرض. ولكن في تلك الحال لماذا يجب أن نهتم بالتطور الأرضي؟ وأولئك الذين يضعون التوكيد على التقدم المتدرج من الصلصال البدائي حتى نشوء الإنسان فإنهم يعلقون أهمية على هذه الكرة الدنيوية التي يجب أن تجعلهم ينكمشون بأن نتيجة كل حياة على هذه الأرض هي فترة مختصرة بين السديم والصقيع الأبدي، أو ربما بين سديم وآخر. وأهمية الإنسان، وهي العقيدة الضرورية لرجال اللاهوت لا تلقى أي دعم من الوجهة العلمية التي تتعلق بالنسبة للنظام الشمسي.

---

* حيوانات بحرية منقرضة ثلاثية الفصوص. المترجم

وثمة مصادر أخرى للعقيدة الزائفة علاوة على الأهمية الذاتية. وأحد هذه المصادر هو حب الشيء العجيب، وأنني عرفت في زمن ما متنبأ ذو عقل علمي، الذي كان يقوم بحيله أمام جمع صغير، ثم يطلب من كل واحد منهم منفرداً، أن يسجل ما رآه مما حدث. وفي الغالب كانوا يكتبون جميعهم شيئاً أكثر عجباً بكثير من الواقع، وعادة شيئاً مما لا يستطيع أي متنبئ أن ينجزه، ومع ذلك فكلهم ظنوا أنهم كانوا يكتبون الحقيقة عما رأوه بأعينهم. وهذا النوع من التزييف ينطبق بصورة أكثر على الشائعات فـ (آ) يخبر (ب) بأنه رأى في الليلة الماضية السيد ـ، أمام بائع الخمور البارز مما يجعل الشراب أكثر سوءاً، و(ب) ينبئ (ت) بأن (آ) رأى الرجل الطيب يترنح من السكر، و(ت) ينبئ (د) بأنه التقط غير واع في الخندق، و(د) ينبئ (ي) بأن من المعروف أن يفعل ذلك كل مساء. وهنا، يحضر حقاً، دافع آخر أعني العشير، أننا نحب أن نفكر سوءاً عن جيراننا ومستعدون أن نصرف الأسوأ ولو بدليل تافه. ولكن حتى إذا لم يكن ثمة دافع كهذا، فكل ما هو عجيب يصدق فوراً، إلا إذا كان مخالفاً لهوى من قوي. والتاريخ كله حتى القرن الثامن عشر مليء بالغرائب والعجائب التي يجهلها المؤرخون، ليس لأنها أقل ثباتاً في الامتحان من الحقائق التي يقبلها المؤرخون، ولكن لأن الذوق الحديث بين المتعلمين يفضلون ما يعتبره العلم مرجحاً. وشكسبير يقص علينا عن الليلة التي سبقت قتل قيصر،

عبد عادي ـ تعرفونه في منظره ـ

رفع يده اليسرى، التي كانت تلتهب وتحترق

كعشرين مشعالاً معاً، ومع ذلك فيده،

ما كانت تشعر بالحريق، وظلت غير محترقة.

وفضلاً عن ذلك ـ أنني لم أرفع سيفي منذ ذلك الحين

ففي مجلس الكابيتول صادفت أسداً

الذي كان يشخص في، في طريقه، دون أن يزعجني، وهنالك قد اجتمع كومة

من مئتي امرأة ذميمة،

وكانت تتميز من الخوف، وقد أقسمى بأنهن رأين

رجالاً يشتطون وهم يسيرون جيئة وذهاباً في الشوارع

لم يبتكر شكسبير هذه العجائب، وقد وجدها في أثار المؤرخين المشاهير، الذين هم من أولئك المعول عليهم في معرفتنا ليوليوس قيصر Julius Gaesar وهذا النوع من الأشياء كان يحدث دائماً في موت رجل عظيم أو في بداية حرب هامة. وحتى حديثاً في سنة 1914 شمت ملائكة مونز «Angels of Mons» الجيوش البريطانية. والدليل على هذه الحوادث قلما يكون مباشراً، والمؤرخون المعاصرون يرفضون قبوله إلا طبعاً، إذا كانت الحادثة ذات أهمية دينية.

وكل عاطفة قوية تنطوي على النزوع إلى صنع الأسطورة. فإذا كانت العاطفة تخص الفرد، فيعتبر أكثر أو أقل جنوناً إذا وضع موضع الصدق الأساطير التي ابتكرها. ولكن حينما تكون العاطفة جماعية، كما هو الحال في الحرب، فليس ثمة إنسان يقوم بتصحيح الأساطير التي تنشأ بصورة طبيعية. وبناء على ذلك تحصل لكل أوقات الهيجان الجماعي الكبير شائعات لا ترتكز إلى أساس على تصديق واسع. وفي أيلول 1914، ظن كل واحد في إنكلترا تقريباً بأن الجيوش الروسية قد رأت في إنكلترا في طريقها إلى الجبهة الغربية. وكان ثمة كل واحد يعرف بأن أحداً ما قد رآها مع أنه لم يراها بنفسه.

وهذه الموهبة بابتكار الأسطورة تقترن غالباً بالقساوة. ومنذ القرون الوسطى، كان يتهم اليهود بممارسة القتل بموجب الطقس الديني. ولم يكن ثمة ذرة من البرهان على هذه التهمة، ولا يعتقد فيها أي إنسان عاقل استقصاها، ومع ذلك فهي لا تزال قائمة. لقد لقيت روسيين بيضاً مقتنعين بحقيقة هذه التهمة، وكانت مقبولة من النازيين بدون شك. وهذه الأساطير تعطي ذريعة للتعذيب، والاعتقاد غير المستند إلى أساس فيهم هو دليل على الرغبة غير الواعية لإيجاد ضحية للتعذيب.

وقد كان هنالك، حتى نهاية القرن الثامن عشر، نظرية تقول بأن الجنون يعود إلى طول الشياطين في جسم المجنون. وقد استنتج من ذلك بأن أي ألم يعانيه المريض يعانيه الشياطين أيضاً، ولذا فإن خير علاج هو أن تجعل المريض يتعذب إلى درجة تحمل الشياطين على الإذعان لهجره. فالمجنون، وفقاً لهذه النظرية، كان يضرب بوحشية. وقد جريت هذه المعالجة على الملك جورج الثالث حين جن جنونه دون نجاح. ومن الغريب والمؤلم بأن كل المعاملات العقيمة تماماً تقريباً والتي كان يعتقد فيها خلال التاريخ الطويل للحماقة الطبية كان من شأنها أن تسبب عذاباً حاداً للمريض. وحينما اكتشفت وسائل التخدير اعتبرها الناس الأتقياء محاولة لمخالفة إرادة الله. ومع ذلك، فقد أشير بأن الله حينما استخرج ضلع آدم جعله يغيب في سبات عميق. وهذا دل على أن وسائل التخدير هي حسنة جداً للرجال، أما النساء، مع ذلك، فيجب أن يتعذبن لأنهن يمثلهن لعنة حواء. والتصويت في الغرب للنساء دل على خطأ هذه العقيدة، أما في اليابان، لغاية يومنا هذا، لا يسمح للنساء حين الوضع والولادة بتخفيف الألم بواسطة التخدير. ولما كان اليابانيون لا يعتقدون بالتكوين، فإن هذه القطعة من السادية يجب أن يكون لها مبرر آخر.

إن أكاذيب «العرق» و«الدم» التي كانت دائماً شائعة، والتي يتبناها النازيون في عقيدتهم الرسمية، ليس لها مبرر موضوعي، فهي يعتقد فيها فقط لأنها تخدم الاعتبار الذاتي وإلى إثارة الحافز نحو القساوة. وهذه العقائد بشكل أو بآخر، هي قديمة قدم الحضارة، تتغير أشكالها، لكن جوهرها باق، ويخبرنا المؤرخ هيرودس Herodotus بأن كسرى Cyrus قد تربى على يدي القرويين، مع جهل تام بدمه الملكي، وفي سن اثنا عشر، أظهر سلوكه الملوكي نحو القرويين الآخرين في الحقيقة. وهذا أحد المتغيرات لقصة قديمة موجودة في كل الأقطار الهندية الأوربية. بل أن الناس المعاصرين يقولون: «الدم دساس» وليس من المجدي للفيزيولوجيين العلميين بأن يؤكدوا للعالم في أن ليس من فارق بين دم الزنجي وبين دم الرجل الأبيض. والصليب الأحمر الأمريكي، خضوعاً لفرض شائع أولاً، حينما أصبحت أمريكا متورطة في الحرب الأخيرة، أصدر قراراً بأنه لا يجب نقل دم من إنسان زنجي. وكنتيجة للاحتجاج، قبل إمكان

استعمال الدم الزنجي، ولكن للمرضى الزنوج فقط، وكذلك في ألمانيا، فإن الجندي الآري الذي كان يحتاج إلى حق دم آخر كانت تجري حمايته بعناية من عدوى الدم اليهودي.

أما فيما يتعلق بالعرق، فثمة عقائد مختلفة في مختلف المجتمعات. وفي البلاد التي استقرت فيها الملكية بثبات، اعتبر الملوك من عرق أسمى من رعاياهم. وحتى قبل وقت قصير، كان الاعتقاد كاملاً بأن الرجال هم وراثياً أكثر ذكاءً من النساء، بل أن رجلاً مستتيراً كسبينوزا كان يعارض انتخاب النساء على هذا الأساس، وبين الرجال البيض، يعتقد بأن الرجال البيض هم بالطبيعة متفوقون على الرجال من الألوان الأخرى، ولاسيما اللون الأسود، وفي اليابان، بالعكس يظن بأن اللون الأصفر هو أفضل الألوان، وفي هايتي، حينما يقيمون تمثالين للمسيح وللشيطان، يجعلون المسيح أسوداً والشيطان أبيضاً. أما أرسطو وأفلاطون فكانا يعتبران الإغريق متفوقين بفطرتهم على البرابرة مما يبرر العبودية ما دام السيد هو أغريقي والعبد بربري. وقد جعل المشرعون الأمريكيون قوانين الهجرة تنص على أن الأجناس النوردية (الشمالية) متفوقة على السلافيين أو اللاتين أو أي أناس بيض آخرين. ولكن النازيين تحت ضغط الحرب وصلوا إلى الاستنتاج بأنه لا يكاد أن يكون نوردويون حقيقيون خارج ألمانيا، فالنرويجيون، ما عدا كويسلنك Quisling وأتباعه القلائل، قد فسدوا بالامتزاج التناسلي مع الفلنديين واللاتينيين إلخ. وهكذا فإن السياسة أصبحت مفتاحاً للدلالة على الأصل. فالنورديون الأنقياء بيولوجياً يحبون هتلر، وإذا لم تحب هتلر، فهذا دليل على تلوث الدم.

كل هذا، ولا شك، هذيان محض معروف، كذلك لكل إنسان قد درس الموضوع. في المدارس الأمريكية يخضع الأطفال ذوو الأصول المختلفة لنفس النظام التربوي، والذي من أهدافه استعمال مقاييس الذكاء وغير ذلك، وهم بدراسة هذه المقدرة الطبيعية للطلاب لم يستطيعوا أن يجدوا أي فوارق عرقية كما فرضها النظريون القائلون بفوارق العرق. ففي كل فئة عرقية، يوجد أطفال مهرة، وأطفال أغبياء. وليس من المحتمل أن يتقدم الأطفال الملونون في

الولايات المتحدة كالأطفال البيض، وذلك لسبب وصمة الانحطاط الاجتماعي، ولكن بقدر ما تفصل المقدرة الوراثية عن التأثير البيئوي، فليس ثمة اختلاف واضح بين مختلف الفئات. والتصور الكامل للعروق المتفوقة هو أسطورة فقط تولدت من الاعتبار الذاتي المتغطرس للممسكين بزمام السلطة. وقد يأتي يوم نحصل فيه على دليل أفضل وشيكاً، وربما، برهن الزمن المقبل، على أن اليهود هم في المتوسط أذكى من غير اليهود ولكن لا يوجد برهان كهذا حتى الآن. وكل حديث عن العروق المتفوقة يجب أن يهمل كهذيان فارغ.

وثمة سخف خاص في تطبيق النظريات العرقية على مختلف الشعوب الأوربية. فليس هناك في أوربا شيء يمكن أن يقال له عرق صاف. فالروس ينطوون على مزيج من الدم التتري، والألمان هم سلافيون إلى حد كبير، والفرنسيون هم مزيج من الكلتين، والألمان، وعرق سكان البحر الأبيض المتوسط، وينطبق ذلك أيضاً على إيطاليا علاوة على المنحدرين من العبيد الذين جلبهم الرومان. وربما كان الإنكليز أكثر هؤلاء مزيجاً. وليس ثمة برهان بأن هنالك مزية في الانتماء إلى عرق صاف. فأصفى العروق الموجودة الآن هي الأقزام Pygmies، والهوتينوت Hottentots، وسكان أستراليا الأصليون، والتسمانيون Tasmanians، الذين كانوا على الأرجح أصفى من هؤلاء، وقد انقرضوا، ولم يكونوا من حملة الثقافة اللامعة. أما الأغارقة أو اليونانيون القدماء من جهة أخرى، فقد خرجوا من مزيج من برابرة الشمال والسكان المحليين، فالأثينيون والايونيون Ionians، الذين كانوا أكثرهم تمدناً، كانوا أيضاً أكثرهم خليطاً. والمزايا المفروضة للصفاء العرقي، هي فيما بعد خالية تماماً.

والخرافات المقترنة بالدم لها أشكال كثيرة ولكن لا صلة لها بالعرق. والاعتراض على القتل يبدو بأنه كان يرتكز، في أساسه، على التلوث الطقسي الديني الذي يتسبب عن دم الضحية. وقال الله لقابيل: «أن صوت دم أخيك يصيح بي من الأرض». ووفقاً لما يعتقده علماء الإنسان فإن طابع قابيل كان علامة تخفي للحيلولة دون أن يلتقي دم هابيل به، وهذا يبدو أيضاً بأنه السبب الأصلي للتسربل بثياب الحزن. وفي كثير من المجتمعات القديمة لم يكن ثمة فرق بين

القتل والاغتيال العرضي، وفي كلا الحالتين يصبح من الضرورة القيام بوضوء حسب الطقوس المرسومة. والشعور بأن الدم يلوث لا يزال متباطاً في بقائه، فمثلاً في تعميد النساء والموانع التي تصل بالطمث. والفكرة بأن الطفل يحتوي على «دم» أبيه صادرة عن الأصل الخرافي ذاته. فبالنسبة للدم الحقيقي، لا يدخل دم الأب ولا الأم في دم الطفل. فالأهمية التي كانت تعزى إلى الدم قبل اكتشاف الخليات المورثة (الجينات) هي لذلك خرافة.

أما في روسيا، حيث انبسط نفوذ كارل ماركس، فقد صنف الناس منذ نشوب الثورة وفقاً لأصلهم الاقتصادي، والمصاعب التي نشأت لا تبعد في الشبه عن المصاعب التي نشأت عن أرباب نظرية العرق الجرماني فيما يتعلق بالنورديين السكندينافيين. فقد كان هنالك نظريتان يجب التوفيق بينهما: فمن جهة كان الكادحون طيبين والناس الآخرون سيئين، ومن جهة أخرى، كان الشيوعيون طيبين أيضاً والناس الآخرون سيئين. والطريقة الوحيدة لإيجاد توفيق في هذه الأمور ينجم عن تغيير معنى الكلمات. «فالكادح» أصبح يعني مؤيد الحكومة، ولينين، مع أنه ولد نبيلاً، أصبح يعد عضواً بين الكادحين. ومن جهة أخرى، فإن كلمة «الكولاك Kulak»، التي كان من المفروض أن تعني قروياً غنياً، غدت تعني القروي الذي عاكس نظام المزارع الجماعي. وهذا النوع من السخط ينشأ دائماً إذا ظن أن لفيفاً من الكائنات البشرية هو أفضل بالفطرة من لفيف آخر. وفي أمريكا، فإن أرفع ثناء يمنح للإنسان الملون البارز بعد أن يموت موتاً سليماً هو أن يقال عنه «كان رجلاً أبيض». والمرأة الشجاعة تدعى «ذكراً»، فماكبث، وهو يمتدح شجاعة زوجته، قال:

أنجبي فقط أطفالاً رجالاً،

لأن معدنك الباسل الذي لا يخاف

يجب أن لا يؤلف إلا الذكور.

وكل هذه الطرق من الكلام نشأت عن عدم الرغبة في هجر التعميمات الحمقاء.

وفي الحقل الاقتصادي يوجد كثير من الخرافات الشائعة

فلماذا يقيم الناس اعتباراً للذهب والحجارة الثمينة؟ ليس فقط لندرتها. فثمة عدد من العناصر تدعى «الأترية النادرة» وهي أندر من الذهب، ولا يدفع فيها الناس بنساً واحداً إلا قليل من رجال العلم. وثمة نظرية يكثر فيها القول، بأن الذهب والفصوص الكريمة ارتكزت قيمتها في الأصل على خصائصها السحرية المفروضة. وأخطاء الحكومات في الأزمنة الحديثة تبين لنا أن هذا الاعتقاد لا يزال موجوداً بين ذلك الصنف من الرجال الذين يدعون «عمليين». وفي نهاية الحرب 1914 ـ 18 جرى الاتفاق على أن تدفع ألمانيا مبالغ ضخمة لإنكلترا وفرنسا، وهما بدورهما يجب أن يدفعا مبالغ ضخمة للولايات المتحدة. وكل واحد كان يريد أن يجري الدفع له بالمال أكثر من السلع، والرجال «العمليون» فشلوا بملاحظة فقدان ذاك المبلغ من المال في العالم. وفشلوا أيضاً في الملاحظة بأن النقد لا يجدي إلا إذا استعمل في شراء السلع. ولما كانوا لا يريدون استعماله بهذه الطريقة، فلم يكن مفيداً لأحد. وقد كان من المفروض أن الذهب يتمتع بفضيلة صوفية تجعل من المناسب التنقيب عنه في الترانسفال Transvaal ووضعه ثانية في الأقبية تحت الأرض في أمريكا. وفي الختام، طبعاً، الأقطار المدينة لم يعد لديها نقد، وبما أنه لم يكن يسمح لها أن تدفع ديونها سلعاً، هوت إلى الإفلاس، والأزمة الكبرى كانت نتيجة مباشرة للاعتقاد الباقي على قيد الحياة، الاعتقاد بالخصائص السحرية للذهب. وهذه الخرافة أصبحت ميتة الآن فيما يبدو، ولكن ولا شك بأن خرافات أخرى ستحل محلها. والتحكم بالسياسة إلى حد كبير أمر تافه خال من الصدق.

ومن أكثر الشعارات شيوعاً هي أن «الطبيعة البشرية لا يمكن أن تتغير». ولا يستطيع امرئ أن يقر صحة هذا القول أو الخطأ به دون تحديد معنى «الطبيعة البشرية». ولكن كما هي مستعملة هي خطأ بطبيعة الحال. وحينما ينطق السيد (آ) بهذا الشعار بظاهر من الحكمة المتنبئة والحاسمة، فإن ما يعنيه بأن كل الناس في كل مكان سيستمرون دائماً بالشكوك كما يفعل الناس في مدينته نفسها. وقليل من علم الإنسان سيبدد هذا الاعتقاد. فبين سكان التيبت، ينتشر تعدد الأزواج لامرأة واحدة، لأن الرجال هم أفقر بمفرد كل منهم

أن يعيل زوجة بكاملها. ومع ذلك فالحياة العائلية وفقاً لأحوال السائحين ليست أكثر شقاءً من الأماكن الأخرى، وعادة إعارة امرأة من زوجها إلى ضيف شائعة بين القبائل غير المتمدنة. وسكان أستراليا الأصليون، يمارسون، في وقت البلوغ عملية مؤلمة، التي تنقص المقدرة الجنسية إلى حد كبير في بقية سني الحياة، وقتل الأطفال الذي قد يبدو معاكساً للطبيعة البشرية، كان شاملاً قبل ظهور المسيحية، وأوصي به من أفلاطون للحيلولة دون ازدياد كثافة السكان. ولا يعترف بالملكية الخاصة بين بعض القبائل المتوحشة، وحتى الشعوب المتمدنة، فإن الاعتبارات الاقتصادية تتغلب على ما يدعى «بالطبيعة البشرية». وفي موسكو، حيث تقوم أزمة نقص في السكن، حينما تصبح المرأة حاملاً، يحدث كثيراً لعدد من الرجال في أن يتنافسوا للحصول على الحق الشرعي لاعتبارهم أبو الطفل الذي سيولد، لأن كل من يحكم له بأنه الأب يحصل على الحق بمشاركة المرأة غرفتها، ونصف غرفة أفضل من انعدام السقف.

وفي الواقع، فإن «الطبيعة البشرية» في الكبار، هي قابلة للتغير بصورة مفرطة وفقاً لظروف التربية. فالطعام والجنس هي متطلبات شاملة جداً، ولكن نساك صحراء التيبت أقصوا عنهم الجنس تماماً وأنقصوا الطعام من المدى المختلف. ومع البقاء في الحياة وفي الحمية والتدريب، يمكن أن يصبح الناس شرسين أو ودعاء أسياداً أو عبيداً كما يمكن أن يلائم المربي. وليس من هذيان غريب لدرجة لا يمكن أن تصنع منه عقيدة للأكثرية الساحقة عن طريق عمل حكومي ملائم. فأفلاطون قصد أن يؤلف جمهورية على أساس خرافة اعترف هو بأنها سخيفة، ولكنه كان واثقاً تماماً بأن من الممكن إقناع الجمهور بتصديقها. وهوبس Hobbes، الذي كان يعتقد بأن من المهم أن يجل الناس الحكومة مهما كانت غير جديرة بهذا الإجلال، يذكر الحجة التي تنص على أن من الصعب الحصول على الموافقة الشاملة لأي شيء غير عقلاني، وذلك بالإشارة إلى أن الناس قد نشؤوا على الاعتقاد بالديانة المسيحية، وبخاصة في عقيدة التناول والاعتراف. ولو كان موجوداً على قيد الحياة سنة 1940، لوجد توكيداً كاملاً بجدله في إخلاص الشباب الألماني للنازيين.

إن سلطة الحكومات على عقائد الناس قد أصبحت عظيمة واسعة منذ قيام الدول الكبرى. فالأكثرية الساحقة من الرومان أصبحت مسيحية بعد أن اعتنق الأباطرة الرومانيون تلك الديانة. وفي الأجزاء من الإمبراطورية الرومانية التي غزاها العرب، هجر معظم الناس المسيحية واعتنقوا الإسلام. وانقسام أوربا الغربية إلى مناطق بروتستانتية وكاثوليكية تحدد موقف الحكومات في القرن السادس عشر. ولكن سلطة الحكومات على العقيدة في الوقت الراهن هي أعظم بكثير مما كان في الزمن البعيد. والعقيدة، مهما كانت بعيدة عن الصدق، هي هامة حينما تسيطر على أعمال الجماهير الواسعة من الناس. وفي هذا المعنى، فإن العقائد التي تلعنها الناس قبل الحرب الأخيرة بواسطة الحكومات اليابانية ، والروسية والألمانية كانت هامة. ولما كانت هذه العقائد مختلفة كل الاختلاف، فلم يكن بالإمكان أن توجد جميعها صحيحة، مع أن من الممكن أن تكون جميعها خاطئة. ومما يؤسف له، أنها كانت موضوعة بشكل يوحي إلى الناس بالرغبة الحارة لقتل بعضها بعضاً ، بدرجة تردع تماماً على وجه التقريب حافز المحافظة على الذات. ولا يستطيع أحد أن ينكر أمام البرهان، أن من السهل على من يضطلع بالسلطة العسكرية أن ينتج شعباً من المجانين المتعصبين. ومن السهل أيضاً إنتاج شعب حكيم وعاقل، ولكن كثيراً من الحكومات لا ترغب في ذلك، لأن من شأن هؤلاء الناس أن يفشلوا في الإعجاب في الساسة الذين يقومون على رأس هذه الحكومات.

هنالك تطبيق مؤذي بشكل خاص للعقيدة القائلة بأن الطبيعة البشرية لا يمكن تغييرها. وهذه هي التوكيد العقائدي بأن الحروب لا مناص منها دائماً ، لأننا قد فطرنا على أن نشعر بالحاجة إليها. والشيء الحقيقي أن الإنسان الذي يتلقى الطعام والتربية اللذين ينالهما معظم الناس يرغب في القتال إذا أثير. ولكنه لن يحارب فعلاً إلا إذا لاحت لديه الفرصة للنصر. ومن المزعج تماماً أن يوقف المرء من قبل الشرطي، ولكننا لا نقاتله لأننا نعرف بأن وراءه القوى الساحقة للدولة. والناس الذين لا تسنح لديهم فرصة للحرب لا يبدو عليهم الإحباط النفسي. والسويد لم تدخل حرباً منذ عام 1814، ولكن السويديين هم من أكثر الأمم سعادة واكتفاء في العالم. والسحابة الوحيدة التي تغشى سعادتهم القومية

هي الخوف بأن يزجوا في الحرب المقبلة. وإذا نشأ التنظيم السياسي بشكل يجعل الحرب غير مجزية بصورة واضحة، فلا شيء في الطبيعة البشرية يجبر على حصول هذه الحرب، أو يجعل الناس المتوسطين غير سعداء لعدم نشوبها. ونفس الحجج تماماً التي يدلى بها عن استحالة الحيلولة دون الحرب، كانت تستعمل في الماضي للدفاع عن المبارزة، ومع ذلك فقليل منا يشعر بالإحباط لأن من غير المسموح لنا أن ندخل في مبارزات.

وإنني لمقتنع بأن ليس ثمة حد للسخافات التي تنتج من جراء العمل الحكومي، فتصبح موضع تصديق شامل. أعطني جيشاً ملائماً، لسلطة تزوده بمرتبات أعلى وبطعام أفضل مما يقع في نصيب الرجل العادي، وأنني، أتعهد خلال ثلاثين سنة، أن أجعل الأكثرية من الشعب تعتقد بأن اثنين واثنين هي ثلاثة، وأن الماء يجمد حين يصل إلى أعلى درجات الحرارة ويغلي حين يصل إلى درجة البرودة، أو أي هذيان آخر الذي يبدو بأنه يخدم مصلحة الدولة. وبالطبع، حتى إذا تولدت هذه العقائد فلن يضع الناس الإناء في البراد إذا أرادوه أن يغلي. وكون البرد يجعل الماء يغلي سيكون صدق يوم أحد، مقدساً وصوفياً، يبشر به بلهجات مروعة، ولكن لا يعمل به في الحياة اليومية. فالذي يحدث هو أن أي إنكار شفهي للعقيدة الصوفية يصبح غير شرعي، والهراطقة الضالون «سيجمدون» على الخشبة. ولن يسمح لأي شخص لا يقبل بحماس العقيدة الرسمية بالتعليم أو الحصول على أي مركز سلطة. وكبار الموظفين فقط، هم الذين سيهمسون لبعضهم بعضاً، وهم يحتسون الكؤوس، أي سخافة هذه كلها ثم يضحكون ويواصلون الشرب، وهذا يكاد أن يكون صورة كاريكاتورية عما يحدث في ظل حكومات عصرية.

وإذا كان الاكتشاف الذي يقول بأن من المستطاع توجيه الإنسان استناداً إلى العلم؛ وأن الحكومات تستطيع أن تحول جماهير كبيرة بهذه الطريقة أو تلك، كما تختار هي أحد أسباب تعاستنا، فإن ثمة فارقاً كبيراً بين مجموعة من المواطنين الأحرار الفكر ومجتمع تكونه أساليب الدعاية الحديثة كالفرق بين كومة من المواد الخامية وبارجة من البوارج. فالتعليم الذي أصبح في الأصل

شاملاً لكي يتمكن الجميع من القراءة والكتابة، وجد قابلاً لخدمة أغراض أخرى. فبتلقين الهذيان يوجد شعوباً ويولد حماساً جماعياً. ولو لجأت الحكومات جميعها إلى تعليم هذا الهذيان نفسه، فلن يكون الأذى كبيراً إلى هذا الحد. ولكن ويا للأسف أن كل حكومة لها طابعها الخاص، والاختلاف في هذه الطوابع يستخدم لإنتاج العداء بين المؤمنين بمختلف العقائد. فإذا أريد أن يسود السلام العالم، فعلى الحكومات أن تتفق إما في العزوف عن تلقين أي عقيدة، أو لتلقين العقيدة نفسها للجميع. وأخشى أن يكون الحل الأول، مثال أعلى طوباوي، ولكن ربما يستطيعون أن يتفقوا على التعليم جماعياً، بأن كل الناس، في كل مكان، ينطوون على الفضيلة، وعلى الحكمة التامة. وربما بعيد الحرب المقبلة، وجد السياسيون من الحكمة أن يتحدوا في تطبيق برنامج كهذا.

لكن إذا كان للموافقة أخطارها فكذلك للمخالفة أخطارها أيضاً.

فبعض «المفكرين التقدميين» يرون بأن أي واحد يخالف الرأي التقليدي السائد هو في جانب الحقيقة. وهذا وهم، ولو لم يكن كذلك، لكان من الأسهل الوصول إلى الحقيقة مما نحن عليه الآن. وثمة إمكانيات لا تتناهى من الخطأ، وهنالك معتوهون يأخذون بالأخطاء غير المألوفة أكثر من أخذهم بالحقائق غير المألوفة. ولقد لقيت ذات مرة مهندساً كهربائياً وكانت كلماته الأولى للناس: «كيف أنتم، هنالك طريقتان للشفاء بالإيمان، الواحدة مارسها المسيح والأخرى مارسها أغلب العلماء المسيحيين. وإنني أمارس الطريقة التي مارسها المسيح». وبعد ذلك بقليل، أرسل إلى السجن لأنه قام بحسابات خادعة. والقانون لا ينظر بتسامح لإدخال الإيمان إلى هذا المجال. وأعرف أيضاً طبيباً بارزاً بأمراض الجنون الذي لجأ إلى الفلسفة، وعلم منطقاً جديداً تعلمه كما اعترف بصراحة من مجانينه. ولما قضى نحبه خلف وصية بتأسيس كرسي أستاذية لتعليم مناهجه العلمية الجديدة، ولكنه مع الأسف لم يترك مخصصات لذلك. والحساب برهن على أنه صامد إزاء المنطق الجنوني. وفي إحدى الفرص جاءني رجل يطلب مني أن أوصيه ببعض كتبي، لأنه كان معنياً بالفلسفة. ففعلت

ذلك، ولكنه عاد في اليوم التالي قائلاً بأنه كان يقرأ واحداً من هذه المؤلفات فوجد عبارة واحدة فقط أمكنه فهمها، وأن عبارة أخرى بدت له خاطئة. وسألته ما هي، فقال: هي العبارة التي تنص على أن يوليوس قيصر Julius Caesar ميت. وقلت له لماذا لا توافق على ذلك، فأصلح قامته وقال: «بأنني أنا يوليوس قيصر». وهذه الأمثال قد تكفي بأنك لا تستطيع أن تتأكد من أنك على حق في كونك شاذاً في الوقت نفسه.

إن العلم، الذي وجب عليه دائماً أن يشق طريقه ضد العقائد الشائعة، يخوض الآن واحدة من أصعب المعارك في حقل علم النفس.

والناس الذين يحسبون أنهم يعرفون كل شيء عن الطبيعة البشرية هم دائماً وبدون أمل في خضم من الأوهام حينما يعالجون أي حالة شاذة. وبعض الفتية لا يتعلمون أبداً أن يكونوا ما يدعى لدى الحيوان «بالمدرب البيتي»، ونوع الشخص الذي لا يحتمل هذياناً كهذا يعالج هذه الأمور عادة بالعقاب، فالصبي يضرب وإذا عاد إلى ذنبه يضرب بصورة أسوأ. وجميع الناس الذين درسوا الطب وحققوا هذا الأمر يعرفون بأن ذلك العقاب يجعل الاضطراب أكثر سوءاً. وبعض الأحيان يكون السبب مادياً ولكنه في العادة نفسانياً، ولا يقبل الشفاء إلا بإزاحة الشكوى العميقة الجذور والتي تكون لا شعورية في الأرجح. ولكن أغلب الناس يتلذذون بعقاب أي إنسان يهيجهم، ولذا فإن الرأي الطبي يرفض كهذيان وهمي. والشيء نفسه ينطبق على الناس الذين يدعون بالاستعراضيين، فهم يرسلون إلى السجن تكراراً ومراراً، ولكن حالما يخرجون يكررون الذنب نفسه. وأحد رجال الطب الذي اختص بهذه الأمراض أكد لي بأن الاستعراضي يمكن شفاءه بالابتكار البسيط من انتضائه بنطالاً يقفل أزراره من الخلف بدلاً من الأمام. ولكن هذه الطريقة لا تجرب لأنها لا ترضي الحوافز الانتقامية للناس.

وبعبارة واسعة، يرجح أن يحول العقاب دون الجرائم التي هي معقولة في أصلها، ولكن لا يستطيع أن يحول دون الجرائم التي تصدر عن بعض الشذوذ النفسي. وهذا معترف به الآن بصورة جزئية، فنحن نميز بين السرقة البسيطة، التي تصدر عن ما يدعى بالمصلحة الذاتية المعقولة، وبين هواية السرقة، التي هي

دليل على شيء غريب. والمجانين القتلة لا يعاملون كالقتلة العاديين. ولكن الانحرافات الجنسية تنتج اشمئزازاً شديد الدرجة حتى أنه لا يزال من المستحيل أن تعالج أصحابها بطريقة طبية أكثر مما تعالج بطريقة قصاصية. والغضب، مع أنه بصورة عامة قوة اجتماعية مفيدة، يصبح مؤذياً حينما يوجه ضد ضحايا الأمراض التي لا تشفيها سوى المهارة الطبية.

والشيء نفسه يحدث فيما يتعلق بأمم بكاملها. ففي أثناء حرب 1914 ـ 1918، قد نشأت بصورة طبيعية جداً مشاعر انتقامية لدى الناس ضد الألمان، الذين عوقبوا بقساوة بعد هزيمتهم. وخلال الحرب العالمية الثانية قد جرى الجدل بأن معاهدة فرساي كانت معتدلة بصورة تبعث على السخرية في أنها قصرت بأن تعلم درساً للألمان، وفي هذه المرة، أخبرونا، بأن من الواجب أن تجري معاملتهم بقساوة حقيقية. وفي رأيي، بأنه كان من المرجح أكثر الحيلولة دون تكرار العدوان الألماني لو اعتبرنا الأفراد العاديين من النازيين مجانين أكثر من حسبانهم مجرمين فقط. والمجانين «طبعاً» يجب أن يقيدوا. ولكن المجانين يقيدون بدافع الحكمة والتعقل، لا كقصاص، وبقدر ما تسمح الحكمة نجرب أن نجعلهم سعداء. وكل إنسان يعترف بأن القاتل المجنون سيصبح فقط أكثر ميلاً للقتل إذا أصبح بائساً. لقد كان ثمة دون شك، كثير من النازيين الذين كانوا مجرمين بكل بساطة، ولكن لا بد أن بينهم الكثيرون ممن كانوا أكثر أو أقل جنوناً. وإذا أريد لألمانيا أن تندمج بنجاح في أوربا الغربية، يجب أن يعمد المسؤولون إلى هجر كل محاولة للإيحاء بشعور من الذنب الخاص هجراً تاماً. وأولئك الذين يعاقبون قلما يتعلمون أن يشعروا شعوراً حسناً نحو أولئك الذين يعاقبونهم. وطالما ظل الألمان مبغضين لبقية الجنس البشري فالسلام سيظل مهلهلاً.

أما حينما يطلع المرء على عقائد المتوحشين، أو البابليين أو المصريين القدماء، فإنهم يبدون غريبين بنزوات سخفهم. ولكن العقائد لا تزال سخيفة كعقائد هؤلاء وتمتلج في قلوب غير المتعلمين حتى في أكثر المجتمعات عصرية وتمدناً. وقد أكد لي البعض بجدية، في أمريكا، بأن الناس الذين يولدون في آذار هم سيؤوا الحظ وأن أولئك الذين سيولدون في أيار هم قابلون بصورة خاصة

للابتلاء بالدمامل. وإنني لأعرف تاريخ هذه الخرافات، ولكن من المرجح أنها مستقاة من العلم الكهنوتي البابلي أو المصري. والعقائد تبتدئ في الطبقات الاجتماعية العليا، ثم تغرق كالوحل في نهر بالتدريج إلى أسفل في السلم التربوي، وقد تحتمل ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف من السنين لتغرق تماماً. وفي أمريكا يمكنك أن تجد خادمتك الملونة تبدي ملاحظة آتية مباشرة من أفلاطون - وليست من تلك الأجزاء في أفلاطون التي يقيسها الباحثون، بل من الأجزاء التي ينطبق بها بهذيان واضح، مثل أن الرجال الذين لا يتابعون الحكمة في هذه الحياة سيولدون ثانية بصورة نساء. والمعلقون على الفلاسفة العظام يتجاهلون دائماً بأدب ملاحظاتهم الحمقاء.

وأرسطو، بالرغم من شهرته، مليء بالسخافات. فهو يقول بأن الأطفال يجب أن تحمل بهن النساء في الشتاء، حينما تكون الرياح باتجاه الشمال، وأن أولئك الذين يزوجون في سن صغير جداً يكون أولادهم من الإناث. وهو يخبرنا بأن دم الإناث هو أكثر سواداً من دم الذكور، وأن الخنزير هو الحيوان الوحيد المعرض للحصباء، وأن فيلاً يتألم من الدرق يجب أن تفرك كتفاه بالملح، وزيت الزيتون، والماء الساخن، ويقول أيضاً بأن النساء يحزن على أسنان أقل عدداً من أسنان الرجال، وهلمجرا. ومع ذلك، فهو يعتبر من الأكثرية الساحقة من فلاسفة أسطون الحكمة.

إن الخرافات المألوفة عن أيام الحظ وعثاره هي تقريباً شاملة. ففي الأيام الماضية كانت تتحكم بأفكار القادة. وبينما يقوم الهوى ضد نهار الجمعة والعدد 13 بشكل جد معادي ونشيط، فإن البحارة لا يحبون الإبحار في يوم الجمعة، وكثير من الفنادق لا تحتوي على الطابق الثالث عشر. وخرافتنا نهار الجمعة والرقم 13 كان يعتقد فيها فيما سبق أناس اشتهروا بالحكمة، والآن فإن رجالاً كهؤلاء يعتبرونها حماقات غير مؤذية. ولكن على الأرجح بعد مضي ألفي سنة فإن كثيراً من العقائد التي يبشر بها الحكماء في يومنا هذا قد تبدو أيضاً حمقاء. والإنسان حيوان فطر على سرعة التصديق، ويجب أن يصدق شيئاً ما، ففي غياب الأسباب الحسنة للاعتقاد سيكتفي بالأسباب السيئة.

أما الاعتقاد «بالطبيعة» وبما هو «طبيعي» فهو مصدر لكثير من الأخطاء. فقد كان من المعتاد الأخذ به فعلياً، ولا يزال كذلك إلى حد ما في الطب. فالجسم البشري، الذي يترك لنفسه يتصف بشيء من القوة في الشفاء الذاتي تشفى عادة الجروح الطفيفة، ونزولات الرشح، تمضي، بل حتى أحياناً الأمراض الخطيرة تختفي دون علاج طبي. ولكن مساعدة الطبيعة في هذا الأمر، مرغوب فيه جداً. فالجروح قد تصبح عرضة للتعفن إذا لم تنظف وتطهر صحياً. وحوادث الزكام أو الرشح قد تتحول إلى ذات الرئة، والأمراض الخطيرة لا تترك دون معالجة من قبل المكتشفين والمسافرين في الأصقاع النائية الذين لا خيار لهم في ذلك الأمر. وكثير من العادات التي أصبحت تبدو «طبيعية» كانت في الأصل غير «طبيعية» كالثياب والغسيل. وقبل أن يختار الناس الثياب لا بد أنهم قد وجدوا من المستحيل العيش في الأقاليم الباردة. وحيث لا تكون ثمة درجة دنيا من النظافة، فإن الشعوب تعاني من أمراض مختلفة، كمرض التيفوس الذي تحررت منه الأمم الغربية الآن، وكان يعترض على التلقيح (ولا يزال البعض يعترضون) بأنه «غير طبيعي». ولكن ليس ثمة انسجام في هذه الاعتراضات. فلا يحسب أحد الآن أن العظم المحطم يمكن رأبه بالسلوك «الطبيعي». وأكل الطعام المطهي هو «غير طبيعي»، وكذلك تدفئة البيوت. وقد اعترض الفيلسوف الصيني لاو- تسه Lao-tse، الذي يرجع تاريخه التقليدي إلى 600 قبل المسيح على إنشاء الطرق والجسور والسفن كوسائل «غير طبيعية»، ونتيجة اشمئزازه من هذه المستنبطات الآلية ترك الصين وذهب ليعيش بين البرابرة الغربيين. وكل تقدم في حضارة كان يندد به كحدث غير طبيعي حينما يظهر للوجود.

وأكثر الاعتراضات شيوعاً ضد ضبط الحمل يستند إلى أنه مخالف «للطبيعة» و(لسبب ما لا يسمح لنا بالقول بأن العزوبة هي مخالفة للطبيعة، فالسبب الوحيد الذي أستطيع أن أفكر به بأنه ليس جديداً) وقد رأى مالثوس ثلاث طرائق لجعل نسبة السكان منخفضة: الانضباط الخلقي، والرذيلة، والشقاء. وقد وافق على أن الانضباط الخلقي لا يرجح أن يمارس على قياس كبير، و«الرذيلة»، أي ضبط النسل، نظر إليها هو كرجل أميركي، بمقت. بقي هنالك التعاسة أو الشقاء. ففي ابرشيته المريحة، تأمل في تعاسة الأغلبية

الساحقة من البشرية بهدوء نفسي، وأشار إلى أكاذيب المصلحين الذين كانوا يأملون بتخفيضها. والخصوم اللاهوتيون المعاصرون لضبط النسل هم أقل أمانة. فهم يزعمون بأن الله يفكر أن يزود الأرض، مع ذلك، بأفواه كثيرة يمكن إطعامها. وهم يجهلون الواقع بأن الله لم يفعل ذلك حتى الآن. بل ترك البشرية عرضة لمجاعات زمنية مات خلالها ملايين من الجوع. ويجب أن يحكم عليهم بالظن - إذا قالوا حقاً ما يعتقدون - أن الله منذ هذه البرهة فصاعداً سيظهر معجزة مستمرة من أرغفة الخبز والسمك التي كان يظنها حتى الآن غير ضرورية. أو ربما سيقولون بأن العذاب هنا في هذه الحياة الدنيا لا أهمية له، بل المهم هو العذاب في الحياة الأخرى. وبواسطة لاهوتييهم، فإن معظم الأطفال الذين يعزى وجودهم لمعاكسة هؤلاء الكهنة لضبط النسل سيذهبون إلى جهنم. ويجب أن نفترض، لذلك، بأن هؤلاء الكهنة يعاكسون إصلاح الحياة على وجه الأرض لأنهم يحسبون بأن من الأشياء الجيدة أن يلقى الكثير من الملايين العذاب الأبدي فيما بعد. وبالمقارنة مع هؤلاء الكهنة، فإن مالثوس يبدو رحيماً.

فالنساء، وهم هدف أقوى حالات الحب والمقت أو البغض، يثرن عواطف معقدة تتجسد في «الحكمة» التي يضرب بها الأمثال.

ويسمح كل شخص تقريباً لنفسه أو لنفسها بتقليل شامل غير مبرر أبداً في موضوع المرأة. فالرجال المتزوجون حينما يصدرون رأياً شاملاً في الموضوع يحكمون مستشهدين بنسائهن. والنساء يحكمن بذواتهم. ولقد يكون من وسائل التسلية كتابة تاريخ لآراء الرجال في النساء. وفي الماضي السحيق، حينما كان تفوق الذكور لا يحتمل الشك وكانت الأخلاق المسيحية غير معروفة بعد، كان النساء غير مؤذيات ولكنهن كن حمقى، والرجل الذي كان يأخذهم مأخذ الجد كان موضع الاحتقار إلى حد ما. وأفلاطون ظن أن من العقبات التي تعترض تأليف الدراما بأن المؤلف كان ملزماً أن يقلد النساء في تأليف الأدوار الأنثوية. وبمجيء المسيحية أخذت المرأة دوراً جديداً، وهو دور المغرية، ولكن وجد في الوقت نفسه أنها قادرة على أن تصبح قديسة. وفي الأيام الفيكتورية كانت القديسة أكثر توكيداً بكثير من المغريات. وكان رجال العصر

الفيكتوري لا يقبلون لأنفسهم أن يكونوا قابلين للإغراء والفضيلة السامية في النساء عدت سبباً لإبعادهن عن السياسة، إذ كان يعتقد، أن الفضيلة العليا في السياسة مستحيلة. ولكن أنصار تحرر المرأة الأول، قلبوا الحجة رأساً على عقب وجادلوا بأن إسهام النساء سيجعل السياسة تتطبع بطابع النبل. ولما ظهر بعد ذلك بأن هذا كان وهماً، أصبح التحدث عن الفضيلة السامية في النساء أقل من ذي قبل، ولكن لا يزال عدد من الرجال يتعلقون في النظرية القردية التي تحسب المرأة أداة إغراء وغواية. والنساء أنفسهن، في معظمهن، يحسبن أنفسهن الجنس العاقل، الذي يكون عمله إبطال الأذى الناجم عن حماقات الرجال المندفعة. أما أنا فلا أثق بجميع التعميمات الشاملة عن النساء التي تتميز لهن أو لا تتميز، سواء كانت من الذكور أو الإناث، أو قديمة أو حديثة، وكل ذلك معاً ناجم عن الافتقار إلى التجربة.

إن الوضع العميق غير العقلاني لكل جنس آزاء النساء ممكن أن يظهر في القصص والروايات، لاسيما في الروايات السيئة، وفي الروايات السيئة التي يضعها الرجال، تكون المرأة التي يعشقها المؤلف، والتي تمتلك الكثير من السحر عادة، ولكنها عاجزة بدرجة ما، وتفتقر إلى حماية الذكور، وأحياناً، مع ذلك، كليوباترة Cleopatra في شكسبير، هي موضع بغض مرير، ويظن بأنها شريرة بصورة فادحة تبعث على اليأس. وفي تصوير البطلة، لا يكتب المؤلف عن ما يشاهده، ولكنه يموضع (أي يجعله موضوعي) فقط عواطفه الخاصة. أما فيما يتعلق بشخصياته الأنثوية الأخرى، فهو أكثر موضوعية، وربما استند في ذلك إلى دفتر ملاحظاته، ولكنه حين يرتع في الحب، فإن عاطفته تحدث ضباباً بينه وبين الشخص الذي هو موضع إخلاصه. والنساء الراويات، يحزن أيضاً على نوعين من النساء في كتبهن. فالنوع الواحد إما أنفسهن، لامعات، ورقيقات، وموضع شهوة الأشرار والحب للأخيار، وهن كذلك، رهيفات الحس، ذوات نفوس سامية، ويساء الحكم عليهن دائماً. والنوع الآخر يتمثل في النساء الأخريات اللائي يمثلن كمخلوقات هزيلة، حقودة، قاسية، وخادعة. ويبدو أن الحكم على النساء بدون تميز ليس من الأمور السهلة بالنسبة للرجال والنساء معاً.

إن التعميمات عن الصفات القومية هي شائعة وغير مبررة تماماً كتعميمات عن النساء. وحتى سنة 1870، كان يظن الناس أن الألمان أمة من الأساتذة الذين يحملون النظارات، ويصدرون كل شيء من داخل وعيهم الباطني، وهم قلما يعرفون شيء عن العالم الخارجي، ولكن منذ سنة 1870 وجب أن ينقح هذا التصور بصورة شديدة. ويفكر معظم الأمريكيين فيما يبدو أن الأفرنسيين هم دائماً منهمكون في مؤامرات الحب، فولت ويتمان Walt Whitman في أحد قوائمه، يتحدث عن «زوجين متزانين على مقعد خفي». ويدهش الأمريكيون الذين يذهبون ليعيشوا في فرنسا، وربما يصابون بالخيبة لمشاهدة شدة الحياة العائلية فيها. وقبل الثورة الروسية، كان يوصف الروس بأنهم يحوزون على نفوس سلافية صوفية، مما يجعلهم عاجزين عن السير في سلوك معقول عادي، وكانت هذه الصفة تمنحهم حكمة عميقة لم تستطع الأمم العملية أن تأمل في الحصول عليها. ولكن تغيّر كل شيء فجأة: فالصوفية كانت من الزواجر، ولم يعد يستسغ إلا أكثر المثل العليا دنيوية. والحقيقة أن ما يبدو لأمة ما كالخلق القومي لأمة أخرى يتعلق ببضعة أشخاص بارزين أو الطبقة التي يصدف أن تمتلك زمام الحكم، ولهذا السبب فكل التعميمات في هذا الموضوع قابلة للانقلاب تماماً من جراء تغيير سياسي هام.

ولتجنب مختلف الآراء الحمقاء التي تتعرض لها البشرية، ليس ثمة حاجة إلى عبقرية تفوق العقل الإنساني. فبضع قوانين بسيطة ستحفظك، لا من كل الأخطاء بل من الأخطاء الحمقاء.

أما في القضايا التي يمكن حلها بالمشاهدة، فقم بالمشاهدة بنفسك. فقد كان بإمكان أرسطو أن يتجنب خطأ التفكير بأن النساء يحزن على أسنان أقل من الرجال، بالابتكار البسيط القائم على أن يسأل السيدة أرسطو أن تفتح فمها. بينما هو يحصي عدد أسنانها. ولكنه لم يفعل ذلك لأنه ظن أنه يعرف. والظن بأنك تعرف بينما أنت في الواقع لا تعرف هو خطيئة فادحة، نتعرض لها كلنا. وإني لأعتقد أن القنافذ تأكل الخنافس السوداء، حيث أنبئت بأنها تفعل ذلك، ولكنني لو كنت أكتب كتاباً عن عادات القنافذ، ما كنت لألتزم

بشيء حتى أتمتع بهذا الطعام غير المشهي. وأرسطو مع ذلك، كان أقل تحفظاً. والمؤلفون القدماء والقروسطيون كانوا يعرفون كل شيء عن الحيوانات الخرافية كالحصان ذو القرن والسلمندر، ولم يفكر أحد منهم بضرورة تجنب الأقوال العقائدية عن هذه الحيوانات لأنه لم ير واحداً منها أبداً.

وإن الكثير من المواضيع، مع ذلك، لا يسهل إخضاعها لامتحان التجربة. وإذا كنت، كمعظم أبناء البشرية، تمتلك عقائد عاطفية تتعلق بهذه الأمور، فثمة طرق تصبح بواسطتها عارفاً بتميزك. وإذا بدا رأي معاكس لرأيك مما يجعلك غاضباً، فهذه إشارة تدل على أنك في عقلك الباطن تدري بأنك لا تملك سبباً جيداً للتفكير كما تفعل. وإذا قال أحدهم بأن اثنين واثنين يساوي خمسة، أو أن جزيرة ايسلندا تقع في خط الاستواء، فإنك تشعر بالإشفاق أكثر مما تشعر بالغضب، إلا إذا كنت تعرف قليلاً من الحساب أو الجغرافيا الذي من شأن رأيه أن يجعل عقيدتك المعاكسة مهتزة. وأكثر أنواع الجدل وحشية هي التي تتعلق بأمور ليس لها دليل طيب في كلا الحالين. فالتعذيب يستعمل في اللاهوت، لا في الحساب، لأن في الحساب معرفة، ولكن في اللاهوت رأياً فقط. ولذا حينما تجد نفسك غاضباً من جراء اختلاف في الرأي، احذر، فإنك ستجد على الأرجح بعد الفحص بأن عقيدتك قد جاوزت ما يبرره الدليل.

ومن الطرق الجيدة لتحرر نفسك من بعض أنواع العقائد المتعصبة هو أن تصبح عارفاً بالآراء التي تؤمن بها الدوائر الاجتماعية المختلفة عن دوائرك. وحينما كنت صغير السن، عشت طويلاً خارج بلدي - في فرنسا، ألمانيا، إيطاليا والولايات المتحدة. فوجدت أن هذه الإقامة مفيدة جداً في إنقاص شدة الأهواء التي تولدها الجزر البريطانية. وإذا لم تستطع السفر، فتش عن أناس يمكنك أن تختلف معهم، واقرأ صحيفة تحض حزباً على حزبك. وإذا بدا أن الناس والصحيفة تبدو ملتاثة ضالة وشريرة، فتذكر أنت بأنك تبدو لهم أيضاً كذلك. وفي هذا الرأي قد يكون الطرفان على حق، ولكن لا يمكن أن يكون الطرفان على خطأ. وهذا التفكير قد يولد بعض التحفظ.

إن معرفة التقاليد والعادات الأجنبية، مع ذلك، لا يأتي دائماً بالنتيجة المفيدة. ففي القرن السابع عشر، حينما غزت عائلة المانشو Manchus الصين، كانت العادة الشائعة بين الصينيين بالنسبة للنساء أن يحزن على أقدام صغيرة، وكان الرجال في أسرة المانشو ينمون ضفائر طويلة. فبدلاً أن يحذف كل واحد منهما عادته الحمقاء، اختار كل واحد العادة الحمقاء التي يتبعها الآخر، واستمر الصينيون بإنماء الضفائر إلى أن قضوا على سلطة المانشو في ثورة 1911.

أما أولئك الذين يملكون مخيلة نفسية كافية، فإن من المخططات الجيدة أن يتخيلوا حجة يجرونها مع شخص يتصف بتميز مختلف. ولهذا ميزة واحدة، وواحدة فقط، إذا قورنت بالحديث الفعلي مع الخصوم، وهذه الميزة الواحدة تنطوي على منهج لا يخضع لنفس حدود الزمان والمكان. فالمهاتما غاندي كان يأسف لوجود السكك الحديدية والبواخر والآلة، وكان يرغب لو أمكن نقض الثورة الصناعية بكاملها. وربما لن تسنح لك الفرصة أبداً أن تلتقي فعلياً بواحد يؤمن بنفس هذا الرأي، وذلك لأن معظم الناس في البلدان الغربية يعتبرون مزية التقنية المعاصرة كأمر مسلم به. ولكن إذا أردت أن تكون متأكداً بأنك على حق في اتفاقك مع الرأي السائد، فستجد طريقة سليمة لامتحان الحجج التي تخطر ببالك بمقارنتها بما أمكن أن يعتبره غاندي دحضاً لها. وقد قادني ذلك في بعض الأحيان فعلياً أن أغير رأيي كنتيجة لهذا الحوار الخيالي، وأقل من ذلك، أنني كثيراً ما وجدت نفسي قد أصبحت أقل تمسكاً عقائدياً وتأكداً جازماً وذلك بإدراك العقلانية الممكنة لفرضية الخصم.

كن يقظاً جداً من الآراء التي تطري اعتبارك الذاتي. فكلا الرجال والنساء، بنسبة تسع مرات إلى مرة واحدة، مقتنعون بثبات بالتفوق العالي لجنسهم. وثمة أدلة غزيرة لكلا الجانبين. فإذا كنت رجلاً، يمكنك أن تشير بأن معظم الشعراء ورجال العلم هم من الذكور، وإذا كنت امرأة، يمكنك أن تجيب وكذلك معظم المجرمين هم من الرجال. والمشكلة هي بطبيعتها غير قابلة للحل، ولكن التقيّم الذاتي يخفي ذلك عن معظم الناس. نحن كلنا، ومن أي جزء من العالم أتينا، قانعون بأن أمتنا هي متفوقة على سائر الأمم. وباعتبار أن

كل أمة لها مزاياها ونقائصها النوعية، فإننا نكيّف معيار قيمنا بشكل يجعل المزايا التي تمتلكها أمتنا هي المزايا المهمة حقاً، بينما تكون النقائص تافهة بالمقارنة بها. وهنا يعترف الرجل العاقل بأن القضية ليس لها جواب يمكن الاستدلال به. ومن الصعب أن نعالج الاعتبار الذاتي للإنسان كإنسان، لأننا لا نستطيع أن نجادل في الأمر مع عقل غير بشري. والطريقة الوحيدة التي أعرفها لمعالجة هذا الوهم العام البشري هي أن نذّكر أنفسنا بأن الإنسان هو ملاوة عابرة في حياة كوكب صغير وفي زاوية قليلة من الكون، وإننا، لا نعرف فيما إذا كانت أجزاء أخرى من الكون تحتوي على كائنات متفوقة على كائناتنا ونحن بالنسبة لها كأننا من الحيوانات الرخوة.

والعواطف الأخرى عدا التقيّم الذاتي هي مصادر مشتركة للخطأ، وربما كان أهم هذه هو الخوف. فالخوف يجري أثره أحياناً بصورة مباشرة، وذلك بنشر شائعات عن الكارثة خلال الحرب، أو بتصور أشياء تنطوي على الهول والخوف، كالأشباح، وأحياناً يؤثر بصورة غير مباشرة، بإيجاد اعتقاد في شيء مريح، كأكسير الحياة، أو كجنة لنا نحن وجهنم لأعدائنا. وللخوف أشكال كثيرة ـ كالخوف من الموت، والخوف من الظلام، والخوف من المجهول، والخوف من القطيع، وذلك الخوف الغامض الشامل الذي يصيب أولئك الذين يخفون عن أنفسهم أهوالهم الأكثر نوعية، وما لم تعترف بمخاوفك الخاصة لنفسك وتحذر نفسك، بجهد جهيد من الإرادة ضد سلطة الأسطورة المصنوعة، فلا يمكنك أن تأمل بالتفكير حقاً في كثير من الأمور ذات الشأن العظيم، لاسيما تلك التي تهتم بها العقائد الدينية. فالخوف هو المنبع الرئيسي للخرافة، وأحد المصادر الرئيسية للقسوة. وقهر الخوف هو بداية الحكمة في التقيب عن الحكمة، وكذلك في المسعى لإيجاد طريقة ذات قيمة في الحياة.

ثمة طريقان لتجنب الخوف: الأول هو بإقناع أنفسنا بأننا منيعون على الكارثة، والثانية هي ممارسة الشجاعة الصرفة. والطريقة الثانية هي صعبة، وتصبح لكل فرد مستحيلة في نقطة ما. والطريقة الأولى كانت لذلك دائماً أكثر شيوعاً. ويهدف السحر البدائي لضمان السلامة، إما بإيذاء الأعداء،

أو بحماية أنفسنا بالطلاسم، ووسائل السحر، أو التعاويذ، والاعتقاد بهذه الطرق لتجنب الخطر، دون تغير أساسي ظل على قيد الحياة خلال كثير من قرون الحضارة البابلية، وانتشر من بابل إلى إمبراطورية الإسكندر، وحصل عليه الرومان خلال اعتناقهم للثقافة الهيلينية، وانتقل من الرومان إلى المسيحية القروسطية والإسلام. أما العلم فقد أنقص الآن الاعتقاد بالسحر، ولكن كثيراً من الناس يضعون إيمانهم في الوسائل السحرية أكثر مما يريدون الاعتراف به، السحر الذي يندد به من قبل الكنيسة، لا يزال مع ذلك يعد خطيئة ممكنة.

والسحر مع ذلك، كان طريقة فجة لتجنب الأهوال، وفوق ذلك، ليس بطريقة فعالة، لأن السحرة الأشرار قد يعطون البرهان على أنهم أقوى من السحرة الأخيار. وفي القرن الخامس عشر، والسادس عشر، والسابع عشر أدى الخوف من الساحرات والسحرة إلى إحراق مئات ألوف المتهمين بهذه الجرائم. ولكن عقائد جديدة، لاسيما فيما يتعلق بالحياة الأخرى، نشدت طرقاً فعالة أخرى لمحاربة الخوف. وسقراط في يوم موته (إذا صدقنا أفلاطون) أعرب عن الاعتقاد بأنه سيعيش في العالم الآخر بصحبة الآلهة والأبطال، محاطاً بالأرواح العادلة التي لن تعترض أبداً على المناقشة التي لا تنتهي. وأفلاطون، في جمهوريته، قرر أن الآراء المبهجة عن الحياة المقبلة، يجب على الدولة أن تجبر الناس عليها، ليس لأنها حقيقية، بل لتجعل الجنود أكثر إرادة بالموت في المعركة. وهو لا يقبل شيئاً من الأساطير التقليدية عن جهنم، لأنها تمثل أرواح الموتى كأرواح تعيسة.

أما المسيحية المستقيمة، في عصر الإيمان، فقد وضعت قوانين حاسمة للخلاص. يجب أولاً أن تتعمد، ثم عليك أن تتجنب كل خطأ لاهوتي، وأخيراً يجب عليك قبل الموت أن تتوب عن أخطائك وأن تتلقى الغفران. وكل هذا لن ينجيك من المطهر، بل يؤكد وصولك النهائي إلى الجنة. ولم يكن من الضروري معرفة اللاهوت. وقد قال كاردينال بارز بصورة ذات سلطة، أن ضرورات الاستقامة يمكن إيجادها إذا هممت على فراش الموت: «أنني أعتقد بكل ما تعتقد به الكنيسة، والكنيسة تعتقد بكل ما أعتقد». وهذه الاتجاهات

الحاسمة هي التي جعلت المسيحيين متأكدين بسلوك الطريق اللازم إلى السماء. ومع ذلك، فالخوف من جهنم ظل قائماً، وسبب في الأزمنة الأخيرة، تليينا عظيماً للعقائد فيما يتعلق بأولئك الذين يجب التنديد بهم. فالعقيدة التي يبشر فيها الكثير من المسيحيين المعاصرين، بأن كل إنسان سيذهب إلى الجنة، من شأنها أن تزيل الخوف من الموت، ولكن في الواقع، فإن هذا الخوف راسخ الجذور في الغريزة فلا يسهل على القهر. إن ف. و. هـ. ماير F.W.H. Myers، الذي جعل من روحانيته وسيلة للتحول إلى الاعتقاد في الحياة الأخرى، سأل المرأة التي فقدت أخيراً ابنتها ماذا تظنين قد جرى لنفس هذه الابنة. فأجابت الأم: «أجل، إنني أظن بأنها تتمتع بالهناء الأبدي، ولكن أود منك أن لا تتحدث عن هذه المواضيع غير المسرة». وبالرغم من كل ما يستطيع أن يفعله اللاهوت، فالجنة تبقى، بالنسبة لمعظم الناس، «موضوعاً غير مسر».

إن أكثر العقائد صقالاً، كعقيدة ماركوس اورلينوس Marcus Aurelius وسبينوزا، كانت لا تزال تهتم بقهر الخوف، أما العقيدة الرواقية فقد كانت بسيطة. لقد قررت أن الخير الوحيد الحقيقي هو الفضيلة، التي لا يستطيع عدو أن يجردني منها، وبالتالي، لا حاجة للخوف من الأعداء. والصعوبة ناشئة بأن ليس ثمة أحد يستطيع في الحقيقة أن يؤمن بأن الفضيلة هي الحيز الوحيد، حتى ماركوس أورلينوس نفسه، الذي حاول كإمبراطور، أن يجعل رعاياه أفاضل ولكنه كان أكثر محاولة لحمايتهم ضد البرابرة، والأوبئة، والمجاعات. أما سبينوزا فقد علم الناس عقيدة مماثلة نوعاً ما. فوفقا لآرائه، فإن خيرنا الحقيقي ينطوي على عدم الاهتمام بحظوظنا وثرواتنا الدنيوية. وكلا الرجلين حاولا أن ينجوا من الخوف بالادعاء بأن هذه الأشياء هي كالألم الجسدي، ليست شراً في الحقيقة. وهذه طريقة نبيلة للنجاة من الخوف ولكنها مازالت ترتكز إلى عقيدة خاطئة. فإذا قبلت بصورة حقيقية، فسيكون من تأثيرها السيئ أن تجعل الناس غير مكترثين، لا لآلامهم الخاصة فقط، بل لآلام الآخرين أيضاً.

وبتأثير الخوف العظيم، يصبح كل فرد تقريباً خرافياً. فالبحارة الذين ألقوا بـ يونان Jonah (يونس) في البحر تخيلوا أن وجوده هو السبب في العاصفة التي هددت سفينتهم بالتحطيم. وبنفس الروح المشابه، عمد اليابانيون حين حصل زلزال طوكيو، إلى ذبح الكوريين الأحرار. وحينما ربح الرومانيون الانتصارات في الحروب القرطاجية، أصبح القرطاجينيون مقتنعين بأن سوء حظهم يعزى إلى تراخيهم الذي زحف إليهم في عبادة مولوخ Moloch. فمولوخ كان يجب أن يضحي بالأطفال لأجله، وكان يفضل أن يكونوا من العظاميين، ولكن العائلات النبيلة في قرطاجة قد اختارت ممارسة الاستعاضة خلسة عن أولاد النبلاء بأطفال العامة وذلك لنجاة نسلهم. وهؤلاء، قد ظنوا، بأن هذا الأمر قد أساء إلى إلههم، وفي نفس الوقت الملائم أحرق معظم الأطفال العظاميين بالنار. ومن الغريب القول أن الرومانيين كانوا منتصرين بالرغم من الإصلاح الديمقراطي من جانب أعدائهم.

إن الغضب الجماعي يثير غريزة القطيع، ويؤدي إلى ظهور الشراسة نحو أولئك الذين لا يعتبرون أعضاء في القطيع. وهكذا كان الحال في الثورة الفرنسية، حينما أدى الفزع من الجيوش الأجنبية إلى حكم الإرهاب. وكان من الممكن للحكومة السوفييتية أن تكون أقل شراسة لو صادفت عداءاً أقل في سنيها الأولى. فالخوف يولد حوافز القسوة، ولذلك يشجع وجود العقائد الخرافية التي يبدو بأنها تبرر القسوة. ولا يمكن أن تثق لا بالإنسان الفرد ولا بالجمهور، ولا بالأمة بأن تعمل بدافع إنساني أو أن تفكر بتعقل تحت تأثير الخوف العظيم. ولهذا السبب فإن الجبناء أكثر قسوة في الجبَانة من الرجال البواسل، وهم أكثر ميلاً إلى الخرافة. وحينما أقول ذلك، فإنني أفكر بالرجال الذين هم بواسل في كل النواحي، لا في مواجهة الموت فحسب. وكثير من الرجال يمتلكون الشجاعة بالموت ببسالة، ولا يمتلكون الشجاعة على القول، بل على التفكير، بأن القضية التي يطلب منهم الموت في سبيلها هي قضية لا قيمة لها. والتشهير السيئ، هو بالنسبة لأغلب الناس، أكثر إيلاماً من الموت، ولهذا السبب في أيام الهياج الجماعي، يغامر قليل من الناس بالانقسام على الراي الشائع. ولم

ينكر قرطاجي واحد مولوخ، لأن هذا العمل كان يتطلب شجاعة أكثر من لقاء الموت في ساحة المعركة.

ولكننا غدونا فيما نقول متقدسين. والخرافات ليست دائماً مظلمة أو قاسية، فهي كثيراً ما تضيف المرح للحياة. وقد تلقيت ذات مرة مكالمة من الآله أوزيرس Osiris، وأعطاني رقم هاتفه، وقد كان يعيش آنئذ في ضاحية من ضواحي بوسطن. ولم أسجل نفسي بين عباده، ولذا فإن رسالته قد أكسبتني سروراً. وكثيراً ما تلقيت رسائل من أناس يعلنون عن أنفسهم بأنهم المسيح، ويحثونني على أن لا أقصر في ذكر هذا الأمر الهام في محاضراتي. وخلال منع الخمور في أمريكا، كانت هناك طائفة تقول، بأن الخدمة المشتركة هي أن التناول يجب أن يحتفى به بشراب من الويسكي، وليس بالنبيذ، وهذا الرأي منحهم الحق الشرعي لمؤونة من الشراب القوي، وقد نمت هذه الطائفة بسرعة. وثمة طائفة في إنكلترا التي تقول بأن الإنكليز هم من القبائل العشر الضائعة، وهنالك طائفة أشد تزمتاً بأنها الوحيدة التي تمت إلى طوائف افريم Ephraim ومنسى Manasseh. وحينما الاقي عضواً من هذه الطوائف، أظهر نفسي بأنني أنتمي إلى الطائفة الأخرى، فينجم عن ذلك نقاش مسر للغاية. وإنني أحب أيضاً الرجال الذين يدرسون الهرم الأكبر، بغية حل رموزه الصوفية. وقد وضعت كتب كثيرة في هذا الموضع، قدم البعض منها إلي من مؤلفيها. والحقيقة الفريدة التي تترتب على ذلك بأن الهرم الأكبر يتنبأ بتاريخ العالم بصورة مضبوطة حتى تاريخ نشر الكتاب المشار إليه، ولكن بعد ذلك التاريخ يصبح أقل موضعاً للثقة. وبصورة عامة ينتظر المؤلف قريباً، قيام الحروب في مصر، يتبعها التجرد من السلاح ومجيء المهدي، ولكن خلال هذا الوقت قد اعترف بكثير من الناس كل واحد منهم مهدياً حتى أصبح القارئ مدفوعاً بصورة كارهة إلى الشكوكية.

وإنني معجب بشكل خاص بنبية عاشت بجانب بحيرة في الجزء الشمالي في ولاية نيويورك نحو سنة 1820. فقد أعلنت لأتباعها الكثيرين بأنها تملك القوة للسير على الماء، وأنها تقترح أن تفعل ذلك الساعة الحادية عشرة في صبيحة ما.

وفي الوقت المقرر، اجتمع المؤمنون بألوفهم على جانب البحيرة. فتحدثت إليهم قائلة: «هل أنتم كلكم مقتنعون تماماً بأنني أستطيع السير على الماء؟» فأجابوا جميعهم: «نحن مقتنعون»، وفي «هذا الوضع»، أعلنت «فإذاً لا حاجة بي لأفعل ذلك». فذهبوا كلهم إلى دورهم مسرورين معززين.

ربما فقد العالم بعض أهميته وتنوعه إذا حل العلم البارد محل هذه العقائد حلولاً تاماً. وربما يمكننا أن نسمح لأنفسنا بأن نكون مسرورين بأشباه الأميين الذين دعوا بالأبسيدارين Abecedarians، لأنهم بعد أن رفضوا كل تعليم مدنس ظنوا من الشر أن يتعلم المرء الأبجدية. وربما تمتعنا بالارتباك الذي أبداه كاهن جزويتي من أمريكا الجنوبية الذي كان يتعجب كيف استطاع الحيوان الكسلان، أن يقطع بعد الطوفان، الطريق كله من جبل آرارات إلى البيرو ـ وهي الرحلة التي تجعل من بطئه الشديد في الحركة، الأمر الذي لا يقبل التصديق. والرجل العاقل يتمتع بالسلع التي تفيض بها المخازن بغزارة، وسيجد من القمامة الفكرية غذاءً غزيراً، في عصرنا وفي أي عصر آخر.

* * *

(8)

وظائف المدرس

التعليم، أكثر من أي مهنة أخرى، قد تحول في المائة من السنين الأخيرة، من حرفة عظيمة المهارة تتعلق بأقلية من السكان، إلى فرع كبير وهام من الخدمة العامة. وللمهنة تقليد عظيم وشريف يمتد من فجر التاريخ حتى أيامنا الأخيرة، ولكن أي مدرس في العالم الحديث الذي يسمح لنفسه بأن يستلهم المثل العليا لأسلافه، من المرجح أن يصير عارفاً بدقة، بأن ليس من وظائفه تعليم ما يفكر به، بل أن يبث عقائد وأهواء يراها مستخدموه نافعة. وفي الأيام السالفة كان يؤمل من المدرس أن يكون ذا معرفة أو حكمة خارقين، مما يجعل الناس يصغون إليه أحسن الإصغاء. وفي الماضي السحيق، لم يكن المدرسون ينتمون إلى مهنة منظمة، ولم تكن ثمة رقابة على ما كانوا يعلمونه. وحقاً أنهم كانوا يعاقبون فيما بعد لعقائدهم الهدامة. وقد حكم على سقراط بالموت وقيل أن أفلاطون قد ألقي في غياهب السجن، ولكن هاتين الحادثتين لم تحل دون انتشار عقيدتهما. وأي إنسان يسير بحافز تعليم كمدرس يصبح أكثر رغبة في أن يخلد في كتبه من أن يخلّد في جسده. والشعور بالاستقلال الفكري هو جوهري لإنجاز وظائف المدرسة الخاصة، لأن من شأن المدرس أن يبث ما يستطيع من المعرفة والحكمة إلى عملية تشكيل الرأي العام. وفي الماضي السحيق كانت تنجز هذه المهمة دون عائق إلا من تدخل وقتي وغير مجدي من قبل الطغاة والرعاع. وفي القرون الوسطى أصبح التعليم امتيازاً منحصراً بالكنيسة، ونجم عن ذلك تقدم قليل سواء كان فكرياً أو اجتماعيا. وفي عصر النهضة كان الاحترام الشامل للتعليم سبيلاً لعودة قدر عظيم من الحرية للمدرس. صحيح أن محكمة التفتيش أجبرت غاليليو Galileo على إنكار ما قال به، وأحرقت جوردانو برونو Giordano Bruno في المحرقة، ولكن كل واحد من الرجلين قد

أنجز عمله قبل أن يعاقب. أما المعاهد والجامعات فبقيت إلى حد كبير في قبضة العقائديين المتعصبين، وكانت النتيجة أن معظم وأفضل الآثار الفكرية أنشئت من رجال التعليم المستقلين. وفي إنكلترا، ولاسيما حتى نهاية القرن التاسع عشر، لا يكاد المرء يعثر على شخص بارز من الدرجة الأولى إلا نيوتن من الذين كانوا يتصلون بالجامعات. ولكن النظام الاجتماعي كان يسير بطريقة حال دون التدخل إلا قليلاً بنشاطهم ونفعهم.

وفي عالمنا الأكثر تنظيماً عالياً نواجه مشكلة جديدة. والشيء الذي يدعى تعليم أصبح من الأمور التي تعطى لكل إنسان، وعادة من قبل الدولة، ولكن أحياناً من قبل الكنائس. فالمدرس قد أصبح هكذا، في معظم الحالات، موظفاً مجبراً أن ينفذ الأوامر للرجال الذين لا يحوزون مثله على ثقافته، والذين لا يمتلكون تجربة لمعالجة أمور الشبيبة، والذين يقتصر موقفهم آزاء التعليم أنهم دعائيون لا غير. وليس من السهل جداً أن يتبين الإنسان، كيف يستطيع في هذه الظروف، المدرسون أن ينجزوا وظائفهم التي خصصوا لها.

إن تعليم الدولة هو ضروري بشكل واضح، ولكن من الجلي أيضاً أن هذا النوع من التعليم ينطوي على بعض المخاطر التي يجب أن تتوفر فيها بعض التحفظات. والشرور التي يخشى منها ظهرت بقوتها الكاملة في ألمانيا النازية ولا تزال ظاهرة في روسيا. وحيثما تنتشر هذه الشرور لا يستطيع إنسان أن يُعَلِم إلا إذا ساهم برأي عقائدي قلما يوجد بين الناس ذوي الذكاء الحر أن يقبلوه بإخلاص. ويجب عليه أن لا يقتصر على المساهمة في عقيدة ما، بل عليه أن يتسامح عن الأهوال المرعبة وأن يمتنع بعناية من أن يبدي رأيه في الحوادث الجارية. وطالما اقتصر في التدريس على الأبجدية وعلى الضرب، فليس ثمة مواضع للجدل منشأ من ذلك، والعقائد الرسمية لا تشوه تعليمه بالضرورة، ولكن حتى إذا كان يدرس هذه العناصر، فمن المأمول به في البلدان ذات النظام الكلي، أن لا يستعمل المناهج التي يرجح بأنها تنجز النتيجة المدرسية المرغوبة، بل أن يبث الخوف والخضوع والطاعة العمياء بطلبه من تلاميذه خضوعاً تاماً لسلطته. وحينما يجتاز العناصر الصرفة لدروسه، يصبح مجبراً بعد

ذلـك أن يتبنـى النظـرة الرسمية في جميع المشاكل موضوع الجـدل. والنتيجـة الناجمـة عـن ذلـك أن الـشبيبة في ألمانيـا النازيـة ، وفي روسـيا ، أصـبحوا متـذمتين متعصبين جاهلين بالعالم خارج بلادهم، وغير معتادين تماماً على القيام بنقاش حر، وغير عارفين بأن آراءهم يمكن أن يشك فيها بدون خبث. وهـذه الحالـة، بالرغم من سوئها ، هـي أقل تهديماً مما لـو كانت العقائد مبثوثة ، كما هـو الحال في الكثلكة القروسطية، شاملة ودولية، ولكن التصور الكامل لثقافة دولية هو موضع الإنكـار مـن العقائديين العصريين، الـذين يبشرون بعقيـدة في ألمانيا، وبأخرى في إيطاليـا، وبثالثة في روسيا، وكذلك أخرى في اليابان. وفي كل قطر من هذه الأقطار كانت القومية التعصبية أكثر الأمور توكيداً في تعليم الشباب، ونجـم عـن ذلـك أن النـاس في القطـر الواحـد لا يملكـون قاسماً مشتركاً مع النـاس في قطر آخر، ولم يكن ثمة تصور لحضارة مشتركة تقف صامدة في طريق الشراسة العسكرية.

إن فساد الدولية الثقافية قد استمر في خطى متسارعة مستمرة منذ الحرب العالمية الأولى. وحينما كنت في لينينغراد Leningrad سنة 1920، لقيت أستاذاً للرياضيات الصرفة، والذي كان يألف حياة لندن، وباريز، وعواصم أخرى، لأنه كان عضواً في مؤتمرات دولية مختلفة. أما الآن فإن رجال العلم في روسيا لا يسمح لهم إلا بشكل نادر برحلات من هذا القبيل، خشية أن يضعوا صورة للمقارنة غير ملائمة مما يجري في بلادهم. وفي الأقطار الأخرى، القومية في التعليم هي أقل تطرفاً، ولكنها في كل مكان أصبحت أقوى مما كانت عليه على كل حال. وهنالك ميل في إنكلترا (وأظن في الولايات المتحدة) للاستغناء عن الفرنسيين والألمان في تدريس اللغتين الفرنسية والألمانية. وعادة النظر إلى جنسية الإنسان أكثر من كفاءته في تعينه لوظيفة من الوظائف هي هدامة للتربية وجريمة ضد المثل الأعلى في الثقافة الدولية، التي ورثناها من الإمبراطورية الرومانية والكنيسة الكاثوليكية، لأنها أصبحت الآن مغمورة بغزوة بربرية جديدة صادرة من الأدنى لا من الخارج.

وفي البلدان الديمقراطية لم تصل الشرور إلى النسب ذاتها، بل يجب أن يعترف بأن ثمة خطر التطورات مشابهة في التعليم، وأن هذا الخطر يمكن تجنبه فقط إذا كان هؤلاء الذين يؤمنون بحرية الفكر يقظين لحماية المدرسين من العبودية الفكرية. وربما كان المطلب الأول هو مفهوم واضح للخدمات التي يؤمل من المدرسين أن يحوزوها في سبيل المجتمع. وإنني لمتفق مع حكومات العالم بأن إعطاء معلومات حاسمة لا تقبل الجدل هي أقل وظائف المدرس، وهي بلا شك، الأساس التي تبنى عليه الوظائف الأخرى، في حضارة تقنية كحضارتنا لها دون ريب منفعة عظيمة. ويجب أن يكون في المجتمع الحديث عدد وافر من الناس الذين يملكون المهارة التقنية المطلوبة لحفظ الجهاز الآلي الذي ترتبط به وسائل راحتنا المادية. وفضلاً عن ذلك، من غير الملائم أن تظل نسبة كبيرة من الشعب غير قادرة على القراءة والكتابة. ولهذه الأسباب نحن كلنا نؤيد نظام التعليم الشامل الإجباري. ولكن الحكومات قد أدركت بأن من السهل، خلال تلقين التعليم، بث العقائد المتعلقة بقضايا تقبل الجدل وأن تنتج عادات من التفكير التي قد تكون ملائمة أو غير ملائمة لمن يتقلدون السلطة. والدفاع عن الدولة في كل البلدان المتحضرة هو في أيدي المدرسين بمقدار ما هو في أيدي القوى المسلحة. والدفاع عن الدولة مرغوب فيه باستثناء الأقطار الكلية الاستبدادية، ومجرد حقيقة أن التعليم يستخدم لهذه الغاية ليس سبباً للنقد في ذاته. فالنقد ينشأ فقط إذا كان الدفاع عن الدولة نتيجة لظلامية الجهل وإذا راق للعاطفة غير العقلانية. وهذه المناهج هي غير ضرورية تماماً في حالة دولة يجدر الدفاع عنها. ومع ذلك، فثمة ميل طبيعي لاختيارها من قبل أولئك الذين لا يحوزون على معرفة بالتعليم من الدرجة الأولى. وهناك عقيدة شائعة بأن الأمم تصبح قوية بتشابه الفكر ورتابته وبإلغاء الحرية. وإن المرء ليسمع مراراً وتكراراً أن الديمقراطية تضعف البلاد في الحرب، بالرغم من الحقيقة المعروفة بأن كل حرب هامة منذ سنة 1700 كان النصر دائماً حليف الجانب الديمقراطي. والأمم سارت إلى الخراب بإصرارها في أكثر الأحوال على تطبيق عقيدة ضيقة الذهن أكثر من تطبيق النقاش الحر والتسامح في اختلاف الآراء. والعقائديون المتعصبون في سائر

أنحاء العالم يعتقدون بأن الحقيقة، وإن كانت معروفة لديهم، فإن الآخرين سيقادون إلى اعتناق عقائد كاذبة، إلا إذا سمح لهم بسماع الحجج من كلا الطرفين. وهذا رأي يؤدي إلى نوع أو آخر من عثار الحظ: فإما أن يقهر لفيف من العقائديين المتعصبين العالم ويمنعون الآراء الجديدة جميعها، أو، ما هو أسوأ من ذلك، أن يغزوا العقائديون المتعصبون المتخاصمون مناطق مختلفة وأن يعظوا بأنجيل الكراهية ضد بعضهم بعضاً، والأول من هذه الشرور كان موجوداً في القرون الوسطى. والآخر خلال الحروب الدينية، ولا يزال موجوداً في الوقت الراهن. فعثار الحظ الأول يجعل الحضارة جامدة، والثاني يحطمها تحطيماً كاملاً. والمدرس يجب أن يكون الضامن الوحيد ضد الفريقين.

ومن الواضح بأن الروح الحزبية المنظمة هي من أعظم الأخطار في أيامنا هذه. وفي شكل القومية تؤدي إلى حروب بين الأمم، وفي أشكال أخرى تؤدي إلى الحرب الأهلية. ومهمة المدرسين أن يقفوا خارج عراك الأحزاب وأن يسعوا لبث عادة روح البحث غير المتحيز في نفوس الشباب، ويؤدي بهم ذلك بأن يحكموا على القضايا بمزاياها وأن يحذروا من قبول بيانات جاهزة بقيمها الظاهرية. والمدرس لا يؤمل منه أن يتملق بأهواء الرعاع أو الموظفين، فإن فضيلته المهنية يجب أن تنطوي على الاستعداد لإنصاف كل الأطراف، والسعي للارتفاع فوق الجدل إلى منطقة من البحث العلمي الذي لا يتصف بالعاطفة. فإذا كان ثمة أناس يجدون نتائج بحتة غير ملائمة، فيجب أن يتمتع بالحماية ضد كراهيتهم، إلا إذا بدا بأنه قد استسلم للدعاية غير الشريفة ببث أكاذيب لا تقوم على برهان.

ووظيفة المدرس، مع ذلك، لا تقوم فقط على إضعاف حرارة الجدل الجاري، فإن عليه أن يتخذ مهام إيجابية لإنجازها، ولا يستطيع أن يصبح مدرساً عظيماً إلا إذا ألهمته الرغبة لتنفيذ هذه المهام. والمدرسون هم أكثر من أي طبقة أخرى حراساً للحضارة. فيجب أن يدركوا بصورة صميمية ماهية الحضارة، وأن يكونوا راغبين بإضفاء موقف حضاري على تلاميذهم. وهكذا ندنوا من السؤال التالي: مما يتألف المجتمع المتحضر؟

إن هـذا السؤال يجـاب عليـه بالإشـارة إلى التجـارب المادية فقـط. فالبلـد يكون متحضراً إذا كان يملك الكثير من الآلات، وكثيراً من السيارات، ومن الحمامات، وكثيراً من وسائل الحركة السريعة، وفي رأيي أن أغلب الناس المعاصرين يعلقون على هذه الأشياء أهمية قصوى. أما الحضارة، ففي المعنى الأكثر أهمية، هي من شؤون العمل، وليست تبعاً وعوناً للجانب المادي من العيش. فهي جزئياً تنتمي إلى المعرفة، وفي جزء آخر تنتمي إلى العاطفة. وفيما يتعلق بالمعرفة، يجب أن يدرك الإنسان بدقة صغر نفسه وكذلك صغر محيطه المباشر بالنسبة إلى العالم في الزمان والمكان. ولا يجب أن يعتبر بلاده الخاصة كوطن وحيد بل هو وطن بين أقطار وأوطان الدنيا، وكلها تتمتع بحق متساوي للعيش والتفكير والشعور. وعليه أن ينظر إلى عصره بالنسبة إلى الماضي وإلى المستقبل، وأن يدرك بأن الموضوعات التي تثير الجدل الآن ستبدو غريبة في العصور المقبلة كما تبدو لنا الآن موضوعات الماضي. وإذا نظرنا إلى الأمر بصورة أوسع، يجب أن يعي سعة العصور الجيولوجية والهوة الفلكية، ولكن عليه أن يدرك كل هذا، لا كحمل يحطم الروح الإنسانية الفردية، بل كمشهد واسع يوسع أفق العقل الذي يتأمله. ومن ناحية العواطف، من الواجب وجود سعة مشابهة من الناحية الشخصية الصرفية إذا أراد الإنسان أن يكون متحضراً حقاً. والناس يمضون من سرير الولادة إلى الموت، ويكونون سعداء أحياناً، وآونة تعساء، وأحياناً كرماء، وفي أحيان أخرى ممسكين وتافهين، وأحياناً أبطالاً، وفي آونة جبناء وأذلاء. والإنسان الذي يشاهد الموكب كله تبرز له بعض الأشياء جديرة بالإعجاب، وبعض الناس قد استلهموا حب البشرية والبعض قد ساعدونا بعقولهم المتفوقة على تفهم العالم الذي نعيشه والبعض الآخر بحساسيتهم الخارقة قد أبدعوا لنا الجمال وهؤلاء الناس قد أنتجوا من الخير الإيجابي ما يرجح الكفة ضد السجل الطويل للقساوة، والظلم، والخرافة. وهؤلاء الناس استطاعوا أن يفعلوا ما في إمكانهم ليجعلوا الحياة الإنسانية شيئاً أفضل من الاضطراب القصير الذي يحدثه المتوحشون. والإنسان المتحضر، حيث لا يستطيع الإعجاب سيهدف إلى الفهم أكثر مما يهدف إلى التجريح أو الانتقام. وهو سيحاول أن

يكتشف وأن يزيل أسباب الشر غير الشخصية من أن يبغض الناس الذين يقعون في قبضتها. وكل هذا يجب أن يكون في عقل وقلب المدرس، وإذا استقر في عقله وقلبه يستطيع نقله في تدريسه إلى الشباب الذين يقعون تحت عنايته.

لا يستطيع إنسان أن يكون مدرساً جيداً إلا إذا انطوى على مشاعر من المحبة الحارة أزاء تلاميذه وعلى رغبة حقيقية أن يمنحهم ما يعتقد هو نفسه بأنه ذو قيمة. وهذا مخالف لموقف الدعائي. فبالنسبة للدعائي يعتبر تلاميذه جنوداً ممكنين في جيش. وعليهم أن يخدموا مقاصد تجاوز نطاق حياتهم الخاصة، لا بالمعنى الذي يجاوز فيه كل قصد خير ذاته، بل بالمعنى الذي يقوم على خدمة امتياز غير عادل أو سلطة استبدادية. والدعائي لا يرغب أن يبحث مع تلاميذه في شأن العالم ككل وأن يختاروا بحرية هدفاً يبدو لهم ذا قيمة. وهو يرغب كبستاني التزيين الفتان، أن يهتم بنمو أشجاره ويجعله مروضاً ومتحولاً ليناسب هدف هذا البستاني، وفي إحباط نمو هذه الأشجار الطبيعي من الممكن أن يهدم فيها كل قوة خيرة، ويعتاض عنها بالحسد، والتهديم والقساوة. لا حاجة للناس بأن يكونوا قساة، وبالعكس، فإنني مقتنع بأن معظم القساوة ناجم عن الإحباط في السنين المبكرة، وفي طليعة هذا الإحباط هو تهديم ما هو خير.

إن العواطف المكبوتة والتي تميل إلى التعذيب شائعة بصورة عامة، كما تدل على ذلك دلالة واضحة الحالة الراهنة للعالم. ولكنها ليست جزءاً محتماً من الطبيعة البشرية. بل بالعكس، فهي كما اعتقد، دائماً نتيجة نوع من التعاسة. ومن وظائف المدرس أن يفتح أفاقاً أمام تلاميذه فيبني لهم إمكانية الفعاليات التي هي مبهجة بقدر ما هي نافعة وبذا يسمح بانطلاق حوافزهم اللطيفة من عقالها ويحول دون نمو رغبة بسلب الآخرين أفراحهم التي سيفتقدونها. وكثير من الناس يستنكرون السعادة كهدف في ذاته لأنفسهم وللآخرين، ولكن الإنسان يشك في أن وراء هذا الشعور عجز عن بلوغ السعادة. إن الاستغناء عن السعادة الشخصية هو أحد أشياء المصلحة العامة، ولكن اعتبار السعادة العامة كأمر لا قيمة له هو شيء آخر. ومع ذلك فهذا ما يجري تماماً باسم شيء من البطولة المزعومة. وهؤلاء الذين يقفون هذا الموقف لهم شعور بالقساوة يستند في

الأرجح على حسد غير واع، ومصدر الحسد يوجد عادة في الطفولة أو في الفتيان. ويجب أن يكون هدف المربي تدريب الكبار على التحرر من هذه العثرات النفسية، وأن لا يتلهف بسلب الآخرين سعادتهم لأنهم أنفسهم لم يسلبوها.

أو كما تبدو الأمور في يومنا هذا، فإن الكثير من المدرسين غير قادرين على القيام بأقصى الجهد الذي يستطيعون القيام به. ولهذا أسباب كثيرة، البعض منها أكثر أو أقل عرضية، والبعض الآخر عميق متغلغل الجذور. وإذا ابتدأنا بالنوع الأول، فإن معظم المدرسين مثقلون بالأعمال وهم مجبرون على إعداد طلابهم للامتحانات أكثر من منحهم التدريب العقلي المتحرر. وأولئك الذين لم يعتادوا على التعليم ـ وهذا يتضمن بصورة عملية شكل السلطات التربوية ـ ليس لديهم فكرة عن إجهاد الروح الذي ينطوي عليه التعليم. ورجال الكهنوت لا يؤمل منهم أن يقوموا بالمواعظ ساعات عديدة طويلة كل يوم، ولكن هذا الجهد يقابله جهد مضاد مطلوب من المدرسين. ونتيجة لذلك فإن كثيراً منهم يصبح قلقاً وعصبياً، بعيداً عن الاتصال بالأثر الحديث في المواضيع التي يدرسونها، وغير قادرين على إلهام تلاميذهم بحس من المباهج الفكرية التي تنجم عن الفهم الجديد والمعرفة الجديدة.

وهذه، مع ذلك، ليست بحال من الأحوال أخطر الأمور. وفي معظم الأقطار يعترف ببعض الأفكار كأفكار صحيحة، وأخرى خطرة. والمدرسون الذين تعد آراؤهم غير صحيحة من المأمول أن يظلوا ساكتين عنها. فإذا ما أعربوا عن آرائهم فهي دعاية، بينما يعد الأعراب عن الآراء الصحيحة فقط التعليم الصحيح. ونتيجة لذلك فإن أغلب الفتيان الميالين إلى البحث يجب عليهم أن يخرجوا من قاعة الدرس ليكتشفوا الأفكار التي تعتور في أذهان معظم العقول القوية في زمنهم. وهناك في أمريكا موضوع يسمى المعلومات المدنية، الذي في مضمونه وربما أكثر من أي موضوع آخر، يؤمل فيه من المدرس أن يكون مضللاً. والفتيان يتلقنون نوعاً من حكاية في مجموعة كيف يفرض أن تكون عليه الشؤون العامة من حيث إدارتها، ويحجز عنهم بكل عناية كل معرفة تبيّن سر الأمور. فحينما يكبرون ويكتشفون الحقيقة، تكون النتيجة غالباً هي سخرية

ماكرة كاملة تضيع في كنفها جميع المثل العليا، بينما لو تعلموا الحقيقة بعناية وبشرح ملائم في سن مبكر فقد يصبحون رجالاً قادرين على مكافحة الشرور، التي يصادفون عليها الآن بهز الكتف المستنكر.

والفكرة بأن الكذب هو مسر مفيد يعد من الخطايا المزعجة التي يقوم بها مخططو برامج التعليم. وإنني شخصياً لا أعتبر الإنسان مدرساً جيداً إلا إذا قرر بصورة ثابتة أن لا يخفي الحقائق خلال تدريسه ذلك بسبب أنه «غير مسر». ونوع الفضيلة التي يمكن الحصول عليها بالجهل الحذر هو ضعيف ويفشل عند أول اتصال بالحقيقة. ويوجد في هذا العالم، كثير من الناس الذين يستحقون الإعجاب، ومن الخير أن يلقى الفتيان رؤية الطرائق التي أصبح فيها هؤلاء الرجال بارزين. ولكن ليس من الخير أن تعلمهم الإعجاب بالأشرار بإخفاء شرورهم. ويحسب البعض أن معرفة الأشياء كما هي ستؤدي إلى السخرية الماكرة، وهذا ممكن إذا جاءت المعرفة بصورة مفاجئة بصدمة من الإعجاب والفزع. ولكنها حين تتولد بالتدريج، وتمتزج بصورة لائقة بمعرفة ما هو خير، وخلال القيام بدراسة علمية تستلهم من الرغبة في الوصول إلى الحقيقة، لن يكون لها ذلك التأثير. وعلى كل حال، فقول الأكاذيب للفتيان، الذين لا يمتلكون وسائل للتدقيق فيما يقال لهم، هو غير قابل للدفاع عنه من الوجهة الأدبية.

وفوق كل شيء، فالأمر الذي يجب على المدرس أن يسعى ليبثه في تلاميذه، إذا أريد للديمقراطية أن تظل على قيد الحياة، هو نوع التسامح الذي يصدر عن السعي لفهم أولئك الذين يختلفون عنا. ربما كان من الحوافز البشرية الطبيعية أن يرى الإنسان بفزع واشمئزاز جميع الوسائل والعادات المختلفة عما اعتدنا عليه. فالنمل والمتوحشون البرابرة يقتلون الغرباء. وأولئك الذين لم يسافروا أبداً جسدياً أو عقلياً يجدون من الصعوبة التسامح بالطرق الغريبة والعقائد الأجنبية للأمم والأزمنة الأخرى، وللطوائف والأحزاب السياسية الأخرى. وهذا النوع من التعصب الجاهل مضاد للنظرة الحضارية، وهو من أفدح الأخطار التي يتعرض لها عالمنا المزدحم ازدحاماً كثيفاً. والطريقة التربوية يجب أن تكون

مخططة لمعالجة هذا الاتجاه، ولكن ما يعمل في هذا الاتجاه في الوقت الراهن هو ضئيل جداً. وفي كل قطر يشجع الشعور القومي، ويلقى أطفال المدارس ما هم مستعدون تماماً لتصديقه، بأن سكان الأقطار الأخرى هم أدنى أخلاقياً وفكرياً من ذلك القطر الذي يصدف أن يقطن فيه أولئك الأطفال. والهيستيريا الجماعية، وهي أكثر العواطف البشرية جنوناً وقساوة، يجري تشجيعها بدلاً من تثبيطها، ويشجع الفتيان على الاعتقاد بما يسمعونه بصورة غالبة أكثر من وجود سبب عقلاني للاعتقاد في ذلك. وفي كل هذا لا يلام المدرسون. فهم ليسوا أحراراً في تعليم ما يرغبون فيه. وهم الذين يعرفون معرفة صميمية حاجات الفتيان. وهم الذين أخذوا بالعناية بهم باتصالهم اليومي معهم. ولكن ليسوا هم الذين يقررون ما يلقنوه أو ما يجب أن تكون عليه مناهج التعليم. فمن الواجب أن يتوفر قدر من الحرية أعظم بكثير مما يوجد في المهنة المدرسية. وأن يكون ثمة فرص من تقرير المصير واستقلال أكثر عن تدخل البيروقراطيين والمتعصبين. ولا يوافق أحد في يومنا هذا أن يخضع الأطباء لرقابة السلطات غير الطبية فيما يتعلق بمعالجة مرضاهم، إلا إذا انحرفوا طبعاً بإجرام عن هدف التطبيب الذي يهدف إلى شفاء المريض. والمدرسون هم نوع من الأطباء الذين يهدفون إلى شفاء مرضى من الطفولة، ولكنهم لا يسمح لهم أن يقرروا بأنفسهم على أساس التجربة أكثر المناهج ملائمة لهذه الغاية. وقليل من الجامعات التاريخية العظيمة، بتأثير نفوذها، قد أمنت تقرير المصير الفعلي، ولكن الأكثرية الساحقة من المعاهد التربوية يعيقها ويشرف عليها أناس لا يفهمون الأثر الذي يتدخلون فيه. والطريقة الوحيدة للحيلولة دون قيام نظام كلي استبدادي في عالمنا المنظم تنظيماً رفيعاً هو ضمان درجة من الاستقلال للهيئات التي تنجز عملاً عاماً نافعاً، وبين هذه الهيئات يستحق المدرسون أبرز الأمكنة.

إن المدرس، كالفنان، والفيلسوف، والأديب، يستطيع أن ينجز عمله بشكل ملائم إذا شعر بأنه فرد يقوده حافز باطني مبدع لا تقيده ولا تسيطر عليه سلطة خارجية. ومن الصعوبة بمكان عظيم لهذا العالم المعاصر أن تجد مكاناً للفرد. فقد يكون هذا الفرد في الذروة كدكتاتور في دولة كلية استبدادية أو يكون سيداً رأسمالي كبير في بلاد ذات مشاريع صناعية كبيرة،

ولكن في نطاق العقل أصبح أكثر فأكثر صعوبة للاحتفاظ باستقلال القوى المنتظمة العظيمة التي تضبط عيش الرجال والنساء. وإذا أريد للعالم ألا يخسر الفائدة المستمدة من خيرة عقوله، فعليه أن يجد منهجاً ما للسماح لها بمد واسع وحرية بالرغم من التنظيم. وهذا يتضمن ضبط نفس مقرر في أولئك الذين يمسكون بزمام السلطة، والتحقق بأن ثمة أناساً يجب أن يقدم لهم المجال الحر. وباباوات عصر النهضة استطاعوا أن يشعروا بهذه الطريقة وأن يعلموا بها آزاء فناني ذلك العصر، ولكن الرجال الأقوياء في يومنا هذا يبدو أنهم يشعرون بصعوبة أكثر في الإحساس بالاحترام للعبقريات الخارقة. واضطراب أزماننا هذا هو معاد لزهور الثقافة المنتجين. إن رجل الشارع مليء بالخوف، ولذا فهو غير راغب في التسامح بالحريات التي لا يرى حاجة إليها. وربما يجب علينا أن ننتظر أياماً أكثر هدوءاً قبل أن تتفوق مطالب الحضارة ثانية على مطالب الروح الحزبية. وفي أثناء ذلك، من المهم أن يستمر البعض على الأقل بالتعرف على حدود التنظيم الذي نستطيع العمل في نطاقه. وكل نظام يجب أن يسمح باستثناءات، لأنه إذا لم يفعل فإنه سيحطم في النتيجة ما وصل إليه الإنسان.

***

(9)

حوافز تقدم البشرية الفكري

قبل الولوج إلى مناقشة هذا الموضوع يجب أن نكوّن تصوراً ما لنوع النتيجة التي نعتبرها عوناً لتقدم البشرية. فهل تسهل مساعدة البشرية حينما تصبح أكثر عدداً؟ أو حينما تصبح أقل عدداً كالحيوانات؟ أو حين تصبح أكثر سعادة؟ أو حين تتعلم أن تتمتع بتجارب أكثر تنوعاً واختلافاً؟ أو حين تزداد معرفة؟ أو حين يصبح بعضها أكثر وداً للبعض الآخر؟ وأحسب أن كل هذه الأشياء تجول في مخيلتنا فيما يتعلق بمساعدة البشرية، ولذلك سأورد كلمة أولية بخصوصها.

إن الناحية التي لا يتطرق إليها الشك التي عانت فيها الأفكار البشرية هي الأعداد Numerous. ولا بد أنه أتى زمن كان فيه الرجل العاقل نوعاً نادراً جداً، يعيش بصورة شحيحة أو صعبة في الغابات والكهوف، تفزعه الحيوانات المتوحشة، ويجد صعوبة في ضمان غذائه. وفي ذلك الزمن كانت الميزة البيولوجية لذكاءه العظيم، الذي كان تراكمياً بانتقاله من جيل لآخر، كان يكاد أن يبدأ بأن يرجح في توازنه نقائص طفولته الطويلة، ورشاقته المتناقصة إذا قورنت برشاقة القردة، وافتقاره إلى وقاية الشعر ضد البرد. في تلك الأيام، كان عدد الناس بلا ريب ضئيلاً جداً. والاستخدام الرئيسي خلال الأجيال الكثيرة، الذي وضع فيه الناس مهارتهم، كان ينطوي على زيادة مجموع السكان. وأنا لا أعني بأن هذا كان القصد، ولكنه كان في الواقع النتيجة، فإذا كان هذا شيء يبهج فقد سنحت الفرصة في ذلك لنبتهج.

وقد أصبحنا أيضاً، في بعض النواحي بالتدريج، أقل شبهاً بالحيوانات. وأستطيع أن أتطرق في هذا الصدد خاصة في ناحيتين: أولاً، أصبحت المهارات المكتسبة المقابلة للمهارات الطبيعية، أكثر ازدياداً باستمرار في الحياة البشرية.

وثانياً، غدا التفكير المسبق أكثر تملكاً للحوافز. وفي هذه النواحي قد أصبحنا دون شك بالتدريج أقل شبهاً بالحيوانات.

أما ما يتعلق بالسعادة، فأنا لست متأكداً تماماً من ذلك. يموت الطيور، في الحقيقة، من الجوع بأعداد كبيرة في فصل الشتاء، إذا لم تكن من الطيور القواطع. ولكنها خلال الصيف لا تتنبأ بهذه الكارثة، ولا تتذكر كيف حصلت لها هذه الكارثة في الشتاء السالف. أما الأمر بالنسبة للكائنات البشرية فهو مختلف عن ذلك. وإنني لا شك فيما إذا كانت النسبة المئوية للطيور التي لاقت حتفها من الجوع خلال الشتاء الحالي (46 ـ 1947) توازي في عددها النسبة المئوية للكائنات البشرية التي ماتت لهذا السبب نفسه في الهند وفي أوربا الوسطى خلال الزمن نفسه أيضاً. ولكن كل ميتة بشرية من جراء الجوع يسبقها فترة طويلة من القلق، ويحيط بها قلق مقابل لدى الجيران. فنحن لا نعاني فقط من الشرور التي تحدث لنا، بل كل ما يقوله لنا ذكاؤنا بأن لدينا الأسباب للخوف منه. وكبح جماح الحوافز التي يقود إليها فكرنا السابق يحول دون الكارثة المادية على حساب القلق، والافتقار الشامل لبهجة. ولا أظن بأن الرجال المثقفين بين معارفي، حتى ولو تمتعوا بدخل مضمون، هم سعداء كالفيران التي تأكل الفتات من موائدهم بينما يقيل هؤلاء السادة الباحثين في النوم. وفي هذه الناحية، لذلك، فإنني مقتنع بأنه لم يكن ثمة نجاح مطلقاً.

أما فيما يتعلق بتنوع المتع فالقضية قد تكون غير ذلك. أذكر أنني قرأت قصة عن بعض الأسود الذين أخذوا إلى السينما ليروا فيلماً يظهر الدمار الكبير للأسود في حالة هياجهم، ولم يلاحظ أن أحداً من هذه الأسود شعر بالابتهاج من هذا المنظر. ولا تبعث الموسيقى، والشعر، والعلم السرور للحيوانات، فكلها مكروهة، بل تفضل كرة القدم والبيسبول، ذلك أن ذكاؤنا قد مكننا في الواقع حقاً بأن نحصل على تنوع أكبر بكثير من المتع مما هو متاح للحيوانات، ولكننا قد اشترينا هذه الفائدة على حساب قابلية أكثر كثيراً للملل.

وقد أخبرنا بأن مجد الإنسان لا تؤلفه الأعداد ولا كثرة المرات، بل صفاته الفكرية والخلقية، وهذا يوضح أننا نعرف أكثر مما تعرف الحيوانات، وذلك

ما نعتبره من المألوف الشائع أن نعتبر هذا ميزة من مزايانا. أما إذا كان الأمر في الواقع ميزة، فإن هذا شيء مشكوك فيه. إلا أنه على كل حال يعتبر شيئاً يميزنا عن الوحوش.

ترى هل علمتنا الحضارة أن نكون أكثر وداً نحو بعضنا بعضاً؟ الجواب سهل. فعصفور الحن (بنوعه الإنكليزي، لا الأمريكي) ينقر عصفوراً دورياً مسناً حتى الموت، بينما الرجال المسنين (النوع الإنكليزي، لا الأمريكي) يمنحون تقاعداً للشيخوخة. وفي نطاق القطيع نحن أكثر وداً لبعضنا بعضاً من كثير من أنواع الحيوانات، ولكن موقعنا نحو هؤلاء الذين يقفون خارج القطيع من البشر، بالرغم من كل ما فعله رجال الأخلاق والمدرسون الدينيون، فإن عواطفنا تبقى شرسة كشراسة أي حيوان آخر، حيث ذكاؤنا مكننا بأن نعطي هذه الشراسة مدى لا يطالها أكثر الوحوش شراسة. ومن المأمول، ولكن ليس بثقة كبيرة، أن يعم في المستقبل وضع أكثر إنسانية، ولكن طلائع الأمور حتى الآن ليست ملائمة جداً.

كل هذه العناصر المختلفة يجب أن يذكرها الإنسان باعتبار أن الأفكار عملت أكثر ما يكون على مساعدة البشرية. والأفكار التي سنأخذ بها قد تقسم إلى نوعين: تلك التي تؤدي إلى المعرفة والتقنية، وتلك التي تعنى بشؤون الأخلاق والسياسة. وسأتناول أولاً تلك التي تعنى بالمعرفة والتقنية. ولقد اتخذت أهم الخطوات وأصعبها قبل فجر التاريخ. ولا يعرف في أي مرحلة عرفت فيها اللغة، ولكن يمكننا أن نتأكد تماماً بأنها ابتدأت تدريجياً. وبدون اللغة يصعب كثيراً أن نسلم من جيل إلى آخر المخترعات والمكتشفات التي تحققت بالتدريج.

لقد كانت الخطوة العظيمة الأخرى، التي ربما حصلت قبل أو بعد انتشار اللغة هي استعمال النار. وأعتقد أن النار استعملت في البدء بصورة رئيسية لإبعاد الوحوش الضارية خلال نوم أجدادنا، ولكن الدفء لا بد إن وجد لطيفاً. ويظن بأن طفلاً ما في بعض الظروف قد عنف بإلقائه اللحم بالنار، بيد أنه حينما أخرجت شريحة اللحم من النار وجد أنها أفضل بكثير مما كانت، ومن هنا بدأ التاريخ الطويل للطهي.

أما ترويض الحيوانات الداجنة، لاسيما البقرة والخروف، فلا بد أنها جعلت الحياة أكثر مسرة وأكثر ضماناً. فبعض العلماء الأنثروبولوجيين يقولون في نظرية تبدو مقبولة حيث فائدة الحيوانات الداجنة لم يجر التنبؤ بها، ولكن الناس حاولوا أن يروضوا أي حيوان علمتهم ديانتهم أن يعبدوه. والقبائل التي عبدت الأسود والتماسيح قد ماتت، بينما أولئك الذين يعتبرون البقرة أو الحمل حيواناً مقدساً قد ازدهرت. وإنني لأميل لهذه النظرية، وفي حالة الافتقار التام إلى برهان مع هذه النظرية أو ضدها، فإنني لأشعر بحرية أكثر إلى قبولها.

ولعل تدجين الحيوانات كان أقل أهمية من ابتكار الزراعة، الذي، أدخل، مع ذلك، في الدين ممارسات ظامئة للدماء، وهي التي بقيت قروناً كثيرة. فطقوس الخصوبة كانت تميل إلى أن تضم في تضاعيفها التضحية البشرية وأكل لحوم البشر. والإله مولوخ ما كان ليساعد في نمو الحبوب ما لم يسمح له بأن يتغذى من دماء الأطفال. وهنالك رأي مماثل اتخذه الأنجيليون في مانشستر في أيام الثورة الصناعية الأولى، حين كانوا يجعلون الأطفال الذين لا يجاوزون السنين الستة من العمر يعملون مدة اثنتي عشرة إلى أربع عشرة ساعة في اليوم، في ظروف سببت الموت لأغلبهم. وقد اكتشف الآن بأن الحبوب تنمو، والسلع القطنية يمكن أن تصنع، دون أن تسقى من دماء الأطفال. وفيما يتعلق بالحبوب فإن الاكتشاف لم يجر إلا بعد ألوف من السنين، أما فيما يتعلق بالسلع القطنية فلم يكد يمضي قرن على ذلك. ولذا ربما توفر لدينا هناك دليل على التقدم في العالم.

كان آخر المخترعات العظيمة فيما قبل التاريخ هو فن الكتابة، الذي يعتبر في الحقيقة من متطلبات التاريخ. والكتابة كالكلام، تمت بالتدريج، وفي شكل صور صممت لتنقل رسالة، وهي في الأرجح كانت قديمة قدم الكلام، ولكن الانتقال من الصور إلى كتابة المقاطع ومن ثم إلى الأبجدية كان التطور فيها بطيئاً جداً. والخطوة الأخيرة لم تتحقق أبداً في الصين.

أما إذا أتينا إلى الأزمنة التاريخية فإننا نجد بأن أقدم خطوات هامة اتخذت فيها كانت هي الرياضيات والفلك، وكلاهما ابتدأ من بابل Babylonia قبل

بضعة ألوف من تاريخنا. ويبدو أن التعليم في بابل قد أصبح منكمشاً ومنافياً للتقدم، قبل أن يتصل الأغريق به أولاً بمدة طويلة. ونحن مدينون للإغريق بطرق من التفكير والبحث التي عرف منذ ذلك الحين بأنها مثمرة. وفي المدن الأغريقية التجارية المزدهرة، أصبح الناس اغنياء لأنهم كانوا يعيشون على جهد العبيد، واتصلوا عن طريق التجارة بأمم كثيرة، منها ما كان همجياً، أو بربرياً تماماً، ومنها ما كان على شيء من الحضارة. وما قدمته الأمم المتمدنة ـ كالبابليين والمصريين ـ للإغريق تمثلوه بسرعة. وأصبحوا ناقدين لعاداتهم التقليدية، بملاحظتهم بأنها مضاهية ومختلفة في الوقت نفسه، عن عادات الأمم المنحطة المجاورة، وهكذا أنجز بعضها في القرن السادس قبل الميلاد درجة من العقلانية المستنيرة التي لا يمكن التفوق عليها في العصر الحاضر. وقد لاحظ اكسانوفان Xonophanes* أن الناس يخلقون الآلهة على صورهم ـ «فالأحباش يجعلون آلهتهم سوداً وفطس الأنوف، والتراقيون Thracians** يقولون بأن آلهتهم يحوزون على عيون زرقاء وشعر أحمر: نعم، ولو كان للثيران والأسود والخيل أيدي، وكانت تستطيع أن ترسم بأيديها، وتنتج آثار فن كما يفعل البشر، لرسمت الخيل أشكال آلهتها كالخيل، والثيران كالثيران، ولجعلوا أجسام هذه الآلهة بصورة أنواع مختلفة».

وبعض اليونان استخدموا انعتاقهم من التقاليد لمتابعة دراسة الرياضيات والفلك، وفيهما بُلِغَ درجات عجيبة من التقدم. والرياضيات لم تستخدم من لدن الأغريق، كما تستخدم من قبل المعاصرين لتسهيل الأمور الصناعية، بل كان البحث فيها بحثاً قائماً على «النبل»، وله قيمة منطوية في ذاته، ولذاته في منحنا

---

* اكسانوفان شاعر ومفكر يوناني عاش في قولوفون حوالي 570 ـ 475 قبل الميلاد. كانت بعض أفكار اكسانوفان عن الطبيعة طريفة، فالأجسام السماوية في رأيه سحب مشتعلة، والأشياء جميعها كانت في أصلها من الطين ذلك لأن حفريات لكائنات بحرية قد وجدت في اليابس، ولسوف يجف البحر وحينئذ تنقلب العملية نهاية لبداية. المترجم

** من أهل تراقيا أو متصل بها. المترجم

الحقيقة الأبدية وبإعطائنا معياراً يفوق المحسوس المعقول الذي نـدد بواسطته العالم المرئي كعالم من الدرجة الثانية. أما أرخميدس Archimedes فهـو الـذي عكس في ظله استخدام الرياضيات الحديثة باختراعه آلات للحرب للدفاع عن سيراكوزه Syracuse ضد الرومان. وقد قتله جندي روماني وانسحب الرياضيون ثانية بعد ذلك إلى برجهم العاجي.

أما الفلك الذي تابعه أبناء القرنين السادس عشر والسابع عشر بحماس، وذلك بسبب نفعه في الملاحة، فقد كان الإغريق يتابعونه دون أن ينشدوا من وراء ذلك منفعة علمية، إلا في العصور السحيقة المتأخرة، حيث أصبح مقترناً بعلم النجوم. وفي مرحلة مبكرة جداً اكتشفوا بأن الأرض مستديرة وكانوا بتقدير دقيق تقريباً لقياس حجمها. وقد اكتشفوا طرقاً لإحصاء المسافة من الشمس والقمر، بل أن اريستارخوس Aristarchus من جزيرة ساموس Samos قد طوّر الفريضة الكوبرنيكية الكاملة التي ظهرت فيما بعد، ولكن آراءه رفضت من لدن جميع أتباعه باستثناء واحد، ولم يجر تقدم هام عقيب القرن الثالث قبل المسيح. وفي عصر النهضة، مع ذلك، أصبح بعض ما اكتشفه وصنعه الإغريق معروفاً، وسهل إلى درجة عظيمة نشوء العلم الحديث.

كان اليونانيون يتصورون في أذهانهم القانون الطبيعي، واكتسبوا عادة التعبير عن القوانين الطبيعية بعبارات رياضية. وهذه الأفكار كانت المفتاح لفهم واسع للعالم المادي الذي أنجز في عصرنا الحديث. ولكن الكثير منهم، بما فيهم أرسطو، قد ضللهم اعتقادهم بأن العلم ربما يحدث فائدة مثمرة لتحقيق الفكرة الفرضية. وقد ميز أرسطو أربعة أنواع من السببية، التي يهمنا منها فقط اثنان، السبب «الفعال» والسبب «النهائي». والسبب «الفعال» هو ما ندعوه ببساطة بالسبب. والسبب «النهائي» هو الغاية. مثلاً، في خلال رحلتك في الجبال، تجد نزلاً حين يصبح ظمئك لا يحتمل، فالسبب الفعال للنزل هي أعمال بناة القرميد الذين بنوه، بينما سببه النهائي هو إشباع ظمئك. فلو سأل أحدهم «ما سبب وجود ذلك النزل هناك؟» فيصبح من المناسب الجواب «لأن أحدهم قد بناه هنالك» أو «لأن كثيراً من المسافرين العطاش يمرون في ذلك الطريق». والجواب الأول هو

إيضاح للسبب «الفعال» والآخر هو للسبب «النهائي». وفيما يتعلق بشؤون البشرية، فإن التفسير بالسبب النهائي هو كثيراً ما يكون ملائماً. لأن أعمال البشر تنطوي على غايات، ولكن فيما يتعلق بالطبيعة غير الحية، فقد وجد من الوجهة العلمية، بأن الأسباب الفعالة هي التي يمكن اكتشافها، ومحاولة تعليل الظواهر بأسباب «نهائية» أدى دائماً إلى ظهور علم سيئ. قد يكون، إذا أتيح لنا أن نعرف، ثمة قصد في الظواهر الطبيعية، ولكن لو صح ذلك فإن هذا القصد قد ظل غير مكتشف تماماً، وجميع القوانين العلمية المعروفة لها علاقة بالأسباب «الفعالة» فقط. وفي هذه الناحية قاد أرسطو العالم إلى الضلال، ولم يشف من ضلاله تماماً حتى عصر غاليليو.

وفي القرن السابع عشر، ولاسيما غاليليو وديكارت ونيوتن وليبنتز، فقد كانوا أدوات للتقدم في فهمنا للطبيعة بصورة أكثر مفاجئة ودهشة من أي عصر آخر في التاريخ، باستثناء عصور الإغريق الأول. وحقاً بأن بعض الأفكار المستخدمة في الفيزياء الرياضية في ذلك الوقت لم يكن لها القيمة تماماً التي عزيت إليها. وحقاً أيضاً بأن مراحل التقدم المعاصر في الفيزياء تتطلب مراراً تصورات جديدة تختلف تماماً عن تصورات القرن السابع عشر. فتصوراتهم في الحقيقة، لم تكن مفتاحاً لكل أسرار الطبيعة، بل مفتاحاً لكثير منها. والتقنية الحديثة في الصناعة والحرب، باستثناء القنبلة الذرية فقط، ترتكز تماماً على نموذج من الدينامية Dynamics (علم القوى) الذي نشأ من مبادئ غاليليو ونيوتن. فمعظم الفلك لا يزال يرتكز على هذه المبادئ نفسها، مع أن هنالك بعض المشاكل مثل السؤال: «ما الذي يجعل الشمس حارة؟» والتي يكون من الجوهري في البحث عنها استخدام الاكتشافات في ميكانيكية الكوانتوم Quantum. فعلم الدينامية الذي بحث فيه غاليليو ونيوتن كان يرتبط بمبدأين جديدين وتقنية جديدة.

والأول من المبادئ الجديدة كان قانون الميرة Law of Inertia، الذي ينص على أن كل جسم، يتحرك لنفسه، يستمر في الحركة كما هو ويتحرك في نفس الخط المستقيم، وفي نفس السرعة. وأهمية هذا المبدأ تصبح واضحة حينما

تقابل بالمبادئ التي طورها المدرسيون القروسطيون من آراء أرسطو. وقبل غاليليو كان يعتقد الناس أن ثمة اختلافاً جذرياً بين المناطق الواقعة تحت القمر والمناطق التي تبتدئ بالقمر فما فوق. وفي المناطق تحت القمر أي الكرة «دون القمر»، كان ثمة تغير وانحلال، فالحركة «طبيعية» للأجسام، وبموجب ذلك كانت تتجه في خط مستقيم، ولكن أي جرم متحرك إذا ترك لنفسه، سيتباطئ تدريجياً ثم يقف حالاً. أما من القمر فصاعداً، فالأمر بالعكس، إذ الحركة «الطبيعية» للأجسام كانت دائروية، أو مركبة من حركات دائروية، وفي السموات العليا لا يوجد ثمة شيء يدعى تغير أو انحلال، أو باستثناء التغيرات الزمنية لمدارات الإجرام السماوية. وحركات الأجرام السماوية لم تكن تلقائية، ولكنها انتقلت إليها من المحرك الأول Primum mobile، الذي كان خارج الكرات المتحركة في أقصى مسافة، وقد استمد هو حركته من المحرك الذي لا يتحرك Unmoved Mover، أي الله. ولم يفكر أحد باللجوء إلى المشاهدة، فمثلاً، كان يعتقد بأن القذيفة تتحرك أولاً أفقياً بمدة ما، ثم تأخذ في السقوط فجأة بصورة عامودية، مع أنه من المفترض أن أي إنسان يراقب فسقية كان يستطيع أن يرى قطراتها تتحرك في منحنيات. والشهب في ظهورها واختفائها، كان من المفترض أن تكون موجودة بين الأرض والقمر، لأنها لو كانت فوق القمر لكانت غير قابلة للهدم والانحلال. ومن الجلي تعذر نمو أي شيء من هذا المزيج المختلط من الفكر. أما غاليليو فقد وجد المبادئ التي تتحكم بالأرض والسموات بقانون الميرة الوحيد، وبموجب هذا المبدأ، فإن جرماً إذا أخذ في الحركة، لن يقف في ذاته، بل يتحرك بسرعة مستمرة في خط مستقيم، سواء أكان على الأرض أو في الكرات السماوية. وهذا المبدأ مكّن من تنمية علم حركات المادة، دون الأخذ بالاعتبار تأثير العقل أو الروح، وبذا فقد وضع الأسس للفيزياء المادية الصرفة التي أخذ رجال العلم، مهما كانوا أتقياء، بالاعتقاد بها منذ ذلك الحين.

ومنذ القرن السابع عشر فصاعداً، أصبح من الجلي بصورة متزايدة أننا إذا أردنا أن نفهم القوانين الطبيعية، فعلينا أن نتخلص من كل نوع من التميز الأخلاقي والجمالي. علينا أن ننقطع عن التفكير بأن الأشياء الذكية لها أسباب

ذكية، أو أن النظام مستحيل دون شرط سماوي. فالإغريق أعجبوا بالشمس والقمر والكواكب وحسبوها آلهة. وأفلوطين Plotinus* يشرح كم هي أسمى من الكائنات البشرية في الحكمة والفضيلة. أما أنكساغوراس Anaxagoras**، الذي كان يعلّم الناس أشياء أخرى، فقد لوحق قضائياً لكفره وأجبر على أن يفر من أثينا. والإغريق سمحوا لأنفسهم أيضاً أن يظنوا بأن الدائرة بما أنها أكثر الأشكال كمالاً، فحركات الأجرام السماوية يجب أن تصدر، عن حركات دائرية. وكل تميز من هذا النوع كان يجب إقصاؤه من قبل علم الفلك في القرن السابع عشر. وقد بيّن لنا النظام الكوبرنيكي بأن الأرض ليست مركز الكون، وأوحى للقلة من النفوس الجريئة بأن تعتقد بأن الإنسان ربما لم يكن الهدف الأسمى للخالق، وبصورة رئيسية، مع ذلك، كان الفلكيون أناساً أتقياء، وحتى القرن التاسع عشر كان أغلبهم، باستثناء فرنسا، يعتقدون في سفر التكوين.

كانت الجيولوجيا وداروين ونظرية التطور، هي التي قلبت أيمان رجال العلم البريطانيين. فإذا كان الإنسان قد تطور بتدرجات غير محسوسة من أشكال الحياة الدنيا، فثمة إذاً عدد من الأشياء أصبحت صعبة للفهم، ففي أي وقت من التطور اكتسب أجدادنا الإرادة الحرة؟ وفي أي مرحلة في الرحلة الطويلة من خلية الأميبة Amoeba ابتدأوا بالحصول على الأرواح الخالدة؟ ومتى أصبحوا قادرين على ارتكاب أنواع من الشرور التي تبرز خالقاً محسناً بإرسالهم إلى العذاب الأبدي؟ وأغلب الناس كانوا يشعرون بأن جزاء من هذا النوع هو شديد الوطئة على القردة، بالرغم من ميلها لإلقاء جوز الهند على رؤوس الأوربيين.

---

* أفلوطين: 205 ـ 270 بعد الميلاد، يعتبر أبو الفلسفة التي تعرف في الأزمنة الحديثة بالأفلاطونية الجديدة، لكنه هو ومن جاءوا بعده قد عدوا أنفسهم مجرد أفلاطونيين، واعتقدوا أن فلسفتهم التي كانت من بعض وجوهها فلسفة ذات أصالة عميقة، لم تكن أكثر من عرض لفكر أفلاطون الحقيقي. المترجم

** أنكساغوراس من اليونان الأيونية، ازدهر حوالي 450 ق.م. جرت محاكمته بتهمة الإلحاد لوصفه الشمس بأنها كتلة من الصخر بيضاء ساخنة.

ولكن ما ترى شأن الإنسان القردي المنتصب Pithecanthropus Erectus؟* فهل كان هو حقاً الذي أكل التفاحة الأولى؟ أو كان إنسان بيكين Homo Pekiniensis? أو ربما كان إنسان بلتداون Piltdown. ذهبت مرة إلى بلتداون، ولكني لم أر دليلاً على فساد خاص في تلك الطرية، ولم أر أيضاً علائم بأنها تبدلت بصورة محسوسة من عصور ما قبل التاريخ. وربما كان الرجال النيندرتاليون Neanderthal هم الرجال الأول، الذين ارتكبوا الخطايا، ويبدو أن هذا أكثر رجحاناً لأنهم عاشوا في ألمانيا. ولكن من الواضح أن لا يكون هنالك جواب لأسئلة كهذه، وأولئك اللاهوتيون الذين لا يرفضون التطور رفضاً باتاً ملزمون على أن يجروا تعديلات عميقة في عقائدهم.

ومن أعظم التصورات «العظيمة» التي ثبت بأنها غير مفيدة من الناحية العلمية هي الاعتقاد بالروح. ولا أعني بأن هناك برهاناً إيجابياً يبين لنا بأن الناس لا نفوس لها، وأنني أعني فقط بأن النفس، إذا وجدت، فهي لا تلعب بدوراً في أي قانون سببي قابل للاكتشاف. وثمة كل أنواع المناهج التجريبية لتحديد سلوك الناس والحيوانات في الظروف المختلفة. فأنت تستطيع أن تضع الجرذان في المتاهات والناس في أقفاص مزودة بالأسلاك الشائكة، وأن تشاهد مناهجها في التخلص من هذه العقبات. ويمكنك أن تحول جرذاً ذكراً إلى جرذ أنثى، مع أن شيئاً مضاه لهذا لم يحصل في الكائنات البشرية حتى ولا في بوخين فالد Buchenwald. ويبدو أن السلوك غير المرغوب فيه من الناحية الاجتماعية يمكن معالجته بالوسائل الطبية، أو بإيجاد وسط أفضل، وبذا أصبحت فكرة الخطيئة تبدو بأنها غير علمية، إلا إذا طبقت على النازيين بالطبع. وثمة أمل حقيقي بأننا إذا استطعنا فهم علم سلوك الإنسان، فتستطيع الحكومات أن تكون أكثر مقدرة مما عليه الآن في أن تحول البشرية إلى فرق من الرعاع ذات جنون شرس متبادل. والحكومات تستطيع طبعاً، أن تقوم بعكس الأمر وتجعل الجنس البشري يتعاون بمحض إرادته وبابتهاج لجعل أفراده سعداء أكثر من أن يسبب

---

* أو ما يدعى بإنسان جاوه. المترجم

تعاسة للآخرين، وهذا لا يمكن تحقيقه إلا إذا وجدت حكومة دولية تحتكر قوة السلاح ومن المشكوك فيه أن يحدث هذا الأمر.

إن هذا يحملني إلى النوع الثاني من الفكر الذي يمكن أن يساعد في الزمن الملائم البشرية، وأعني بذلك الفكر الأخلاقي إزاء الأفكار التقنية. وقد تطرقت حتى الآن للسيطرة المتزايدة على قوى الطبيعة التي استمدها الإنسان من المعرفة العلمية، ولكن هذه، بالرغم من أنها شرط سابق لكثير من أشكال التقدم، فهي لا تضمن في ذاتها أي شيء مرغوب فيه. وعلى العكس، فإن الحالة الراهنة في العالم والخوف من الحرب الذرية تبين بأن التقدم العلمي دون تطابق أخلاقي وسياسي مقابل قد يزيد في عظم الكارثة التي قد تجلبها المهارة التي أسيئ توجيهها. وفي الهنيات الخرافية أرى لنفسي الإغراء للاعتقاد بأسطورة برج بابل Tower of Babel، وللظن بأننا في يومنا هذا معرضون للإصابة بجحود مماثل ولكنه أعظم وذلك بواسطة عقاب أكثر مأساوية وهولاً. وربما هكذا أسمح لنفسي بالتوهم - كان الله لا يقصد بأن يجعلنا نفهم الآلية التي ينظم فيها العالم الكون المادي. وربما قد وصل الفيزيائيون النوويون عبقريتهم بنقطة تؤدي إلى انقراض الجنس البشري؟ فلو استطعت أن أفكر بأن الغزلان والسنجاب، والبلابل والقنبرات، قد تبقى على قيد الحياة، لنظرت إلى هذه الكارثة بشيء من هدوء النفس والعقل، لأن الإنسان لم يبرهن على جدارته بأن يكون سيد الخليقة. ولكننا نخاف بأن السيمياء المخيفة للقنبلة الذرية من شأنها أن تحطم سائر أشكال الحياة بالتساوي، وأن الأرض ستبقى إلى الأبد تراباً ميتاً تدور بدون حس حول شمس عقيمة. وأنني لا أعرف السبب الجارف لهذا الحدث الهام، فقد يكون الباعث عليه خصام حول البترول الفارسي، أو يكون اختلاف على التجارة الصينية، وربما كان باعثه خصاماً بين اليهود والمسلمين للسيطرة على فلسطين. وأي شخص وطني يستطيع أن يرى بأن هذه المشاكل هي التي تبلغ من الأهمية مبلغاً يجعل انقراض البشرية مفضلاً على المصالحة الجبانة.

ومع ذلك، ففي حالة وجود البعض بين قرائي الذين يودون أن يروا الجنس البشري باقياً على قيد الحياة، فمن الجدير أن نتأمل في نوع الأفكار الخلقية

التي وضعها عظام الرجال في العالم، والتي يمكن إن أصغى الناس لها، أن تضمن السعادة بدلاً من الشقاء لكتلة الجنس البشري.

إن الإنسان، إذا نظر إليه من الوجهة الأخلاقية، فهو مزيج غريب من الملاك والشياطين. إنه يستطيع أن يشعر ببهاء الليل، والجمال الرقيق لزهور الربيع، ولعاطفة الحنان في المحبة الأبوية، وفي نشوة الفهم الفكري وفي هنيهات الاستبصار يتأتى له كيف يجب أن يكوّن سير حياته وكيف يرتب الناس معاملة بعضهم بعضاً. والمحبة الشاملة هي عاطفة قد يشعر فيها الكثيرون وربما يشعر بها عدد أكثر بكثير لو كان العالم أقل صعوبة في أحواله. وهذا جانب واحد من الصورة. فمن الجهة الأخرى تبدو القساوة، والجشع، واللامبالاة والكبرياء المتغطرسة. وثمة رجال، وهم رجال عاديون تماماً، يجبرون الأطفال أن يشاهدوا كيف تغتصب أمهاتهم. وفي سبيل تحقيق الأهداف السياسية قد يخضع أناس خصومهم لسنين طويلة من القلق الذي لا يوصف. نحن نعرف ما فعله النازيون باليهود في أوشفيتز Auschwitz. وفي القساوة الجماعية، لا يعد طرد الألمان بأمر من الروس أقل بكثير من الفظائع التي اقترفها النازيون. وماذا ترانا نقول عن نفوسنا النبيلة؟ نحن لا نقترف هذه الأعمال، كلا! ولكننا نتمتع بأكل شرائح اللحم الطرية وعجائننا الساخنة بينما يموت أطفال الألمان من الجوع لأن حكوماتنا لا تجرؤ على مقابلة غضبنا إذا أردنا أن نتنازل عن جزء من مسراتنا. فإذا كان ثمة دينونة كما يعتقد المسيحيون، فكيف تفكر بأن تبدو اعذارنا أمام المجلس النهائي؟

وترافق الأفكار الخلقية بعض الأحيان التطورات السياسية، وبعض الأحيان تفوقها سيراً. فأخوة الإنسان هي مثل أعلى مدين بقوته الأولى للتطورات السياسية. وحينما غزا الاسكندر الشرق أخذ يعمل على محو الفروق بين اليونانيين والبرابرة، ولا شك بأن جيشه اليوناني والمكدوني كان أصغر من أن يستوعب إمبراطورية واسعة بهذا القدر بالقوة. وقد أجبر ضباطه أن يتزوجوا بسيدات أرستقراطيات من البرابرة، بينما هو نفسه، أراد أن يقيم مثلاً ممتازاً مزدوجاً، فتزوج أميرتين بربريتين. ونتيجة لهذه السياسة فإن الكبرياء الأغريقي

والتفرد قد نقصا، وانتشرت الثقافة الإغريقية في كثير من المناطق التي لا يسكنها العنصر الهيليني. فزينون Zeno مؤسس المذهب الرواقي، الذي كان في الأرجح فتى صغيراً حين قام الإسكندر بغزواته، كان فينيقياً، وقليل من الرواقيين البارزين كانوا إغريقاً أو يونانيين. والرواقيون هم الذين ابتكروا فكرة الأخوة بين البشر. وقد علموا قائلين بأن جميع الناس هم أبناء زيفس Zeus وأن العقلاء سيتجاهلون الفروق بين اليونانيين والبرابرة، وبين المقيدين والأحرار. وحينما وجدت روما جميع العالم المتمدين في حكومة واحدة، أصبح الوسط السياسي ملائماً لنشر هذه العقيدة. وفي شكل آخر، كان ذلك أكثر، ما يستدعي القدرة على الاضطرابات لدى الرجال والنساء العاديات. والمسيحية تناولت ذلك بعقيدة مشابهة، فقد قال المسيح «أحب جارك كنفسك»، وحين سؤال «من هو جارك؟» قص عليهم حكاية السامري الطيب The Good Samaritan. وإذا أردتم أن تفهموا هذه الموعظة كما فهمها سامعوه، فعليكم أن تضعوا كلمة «ألماني» أو «ياباني» لأجل «السامري». وأنني لأخاف أن يمقت كثير من المسيحيين في الوقت الراهن هذا الاستبدال، لأن من شأنه أن يجبرهم على التأكد من عظم الفرق باختلافهم عن تعاليم مؤسس ديانتهم. وعقيدة مشابهة جرى التبشير بها في وقت مبكر قبل عهد المسيح من قبل البوذيين. ووفقاً لكلامهم، فإن بوذا Buddha قد صرح بأنه لا يستطيع أن يكون سعيداً طالما ظل ولو رجل واحد تعيساً على وجه الأرض. وقد يبدو أن هذه التعاليم الأخلاقية السامية كان لها تأثير قليل في العالم، فالبوذية قد ماتت في الهند، والمسيحية الأوربية قد أفرغت من معظم عناصرها المستمدة من المسيح. ولكني أظن بأن هذا قد يكون من نظرة سطحية. فالمسيحية حينما استطاعت السيطرة على الدولة، وضعت حداً لمشاهد المصارعة، ليس لأنها كانت قاسية، بل لأنها كانت وثنية. والنتيجة مع ذلك، كان نقص التربية الشائعة في القساوة التي انحطت بتأثيرها جماهير المدن الرومانية. والمسيحية أيضاً عملت الكثير لتلطيف أقدار العبيد. فقد أسست الإحسان على قياس واسع، ودشنت المشافي. وبالرغم من أن الأغلبية العظمى من المسيحيين قد فشلت بصورة تبعث على الحزن في الإحسان المسيحي، فقد ظل المثل الأعلى حياً وأوحى في كل عصر بوجود بعض القديسين

البارزين. وفي شكل جديد، أنتقل إلى الليبرالية المعاصرة وظل ملهماً لأكثر ما يمكن أن يبعث على الأمل في عالمنا المظلم.

إن الشعارات المأثورة للثورة الفرنسية، الحرية، المساواة، الإخاء، صدرت عن أصول دينية. وقد تحدثت فيما سبق عن الإخاء. والإخاء كان صفة للمجتمعات الأورفية Orphic Societies (ذات الوحي) في اليونان القديمة، الذي نشأت منه جزء كبير من العقيدة المسيحية بصورة غير مباشرة. وفي هذه المجتمعات، كان يقبل العبيد والنساء على قدم المساواة مع المواطنين. وإن اقتراح أفلاطون بإعطاء حق التصويت للنساء، الذي بدا عجيباً لبعض القراء المعاصرين، مستمد من الممارسات الأورفية الإلهامية. والأورفيون كانوا يؤمنون بالتقمص وحسبوا بأن نفساً تسكن في حياة ما جسم عبد، قد تسكن في حياة أخرى جسم ملك. وإذا نظر إلى ذلك من وجهة النظر الدينية، يصبح من الحماقة التميّز بين العبد والملك، وكلاهما يتشاطران الانتماء إلى نفس خالدة، ولا يوجد أحد يطلب أكثر من ذلك في نطاق الدين. وقد انتقلت وجهة النظر هذه من الأورفية الإلهامية إلى الرواقية، ومن ثم إلى المسيحية. وظل تأثيرها العملي لمدة طويلة ضئيلاً، ولكن في النهاية، حينما كانت الظروف ملائمة، أدت إلى نقص التباين وعدم المساواة في النظام الاجتماعي. اقرأ مثلاً، يوميات جون ولمان John Woolman's Journal. فجون ولمان كان من طائفة الكويكر Quaker، وهي الطائفة الأولى بين الأمريكيين التي قاومت العبودية. ولا شك أن سبب مماكسته كانت شعوراً إنسانياً، ولكنه كان قادراً أن يقوي هذا الشعور ويجعله أكثر تأثيراً بصورة جدلية بالدعوة إلى العقائد المسيحية، التي لم يجرأ جيرانه أن يرفضوها علنية.

أما الحرية كمثل أعلى فكان لها تاريخ متنوع جداً. وفي الماضي السحيق، كانت سبارطة Sparta، التي هي دولة كلية مستبدة، كانت قليلة الاستعمال للحرية كما كان النازيون. ولكن معظم المدن الدول اليونانية سمحت بدرجة من الحرية التي قد نحسبها الآن مفرطة، وفي الواقع، فإنها تحسب بأنها مفرطة حينما كانت تمارس بين خلفائها في نفس الجزء من العالم. أما السياسة فكانت

قضية قتل وجيوش متخاصمة، أحدها يؤيد الحكومة والآخر مؤلف من اللاجئين. واللاجئون كثيراً ما يتحالفون من أعداء مدينتهم ويمشون في مواكب الظفر في أعقاب غزاتهم الأجانب. وهذا النوع من الأشياء كان يقوم به كل إنسان، وبالرغم من الكلم المعسول في آثار المؤرخين المعاصرين عن ولاء اليونانيين أو الإغريق للدولة المدينة، لا يظهر بأن أحداً منهم كان يحسب هذا السلوك سيئاً بصورة خاصة. وهذا ما جعل الحرية تبلغ حد الإفراط، وأدى في رد الفعل إلى الإعجاب بسبارطة.

إن كلمة «الحرية» كان لها معان كثيرة في مختلف الأزمان. ففي روما، في الأيام الأخيرة من الجمهورية والأيام المبكرة من الإمبراطورية، كانت تعني حق أعضاء مجلس الشيوخ الأقوياء في نهب المقاطعات المختلفة لفائدتهم الخاصة. وبروتوس Brutus، يعرفه معظم القراء المتكلمي الإنكليزية حيث هو البطل النبيل في رواية يوليوس قيصر لشكسبير، الذي كان في الواقع مختلفاً عن هذه الصورة. فهو يقرض بلدية دراهم بـ 60 بالمائة من الفائدة، وحينما تفشل في دفع الفائدة كان يستأجر جيشاً خاصاً لمحاصرتها، الأمر الذي جعل صديقه شيشرون Cicero يتجادل معه باعتدال في هذا الشأن. وفي يومنا هذا، تحمل كلمة «الحرية» معنى مشابه حينما يستعملها أساطين الصناعة. وإذا تركنا هذه الشوارد من جهة واحدة، فهنالك معنيان جديدان لكلمة «حرية». فمن الجهة الواحدة توجد حرية أمة من سيطرة أجنبية، ومن جهة أخرى حرية المواطن بأن يتابع مهامه الشرعية. وأي واحد من هذه الحرية في عالم جيد النظام يجب أن يكون خاضعاً للقيود، ولكن مع الأسف فإن القيد الأول قد اعتبر في معناه المطلق. وسأعود حالاً لمعالجة وجهة النظر هذه، لأنني أود أن أتحدث الآن في حرية المواطن الفرد.

هذا النوع من الحرية دخل أول ما دخل نطاق السياسة العملية بشكل من التسامح الديني، وهي عقيدة قد طبقت بصورة واسعة في القرن السابع عشر نتيجة عجز كل من البروتستانت أو الكاثوليك أن يمحو الطرف الآخر. وبعد أن قامت الحرب بينهم مدة مائة سنة، وصلت إلى ذروتها في أهوال حرب الثلاثين

سنة، وبعد أن ظهر أنه نتيجة كل هذا القدر من سفك الدماء، ظل التوازن بين الأطراف في النهاية تقريباً تماماً كما كان في البداية، وعمد رجال عباقرة أغلبهم من الهولنديين، إلى القول بأن كل هذا القتل ربما كان غير ضروري، وان الناس يمكن أن يسمح لهم بالتفكير كما شاءوا في قضايا كالاشتراك في التناول أو ضد عدم المشاركة في هذا التناول، أو فيما إذا كان من الواجب السماح بإعطاء الكأس للعلمانيين من غير رجال الأكليروس. إن عقيدة التسامح الديني وفدت إلى إنكلترا مع الملك الهولندي وليم، وأتى برفقتها بنك انكلترا ومؤسسة الدين القومي. وفي الحقيقة إن هذه الأمور الثلاثة كانت نتاجاً للعقلية التجارية.

إن أعظم المؤيدين النظريين للحرية في تلك الحقبة كان جون لوك الذي كرس كثيراً من فكره لمشكلة التوفيق بين الحد الأقصى من الحرية والحد الأدنى الضروري من الإدارة الحكومية، وهي مشكلة ظلت تشغل أذهان خلفائه بالتقليد الليبرالي حتى يومنا هذا.

وعلاوة على الحرية الدينية، كانت حرية الصحافة، وحرية القول، والحرية من التوقيف التعسفي وهي كلها معتبرة كأمر بدهي خلال القرن التاسع عشر، على الأقل بين الديمقراطيات الغربية. ولكن سيطرتها على عقول الناس كان أكثر تقلقلاً مما كان يظن في ذلك الوقت، والآن، فوق السطح الجزئي الأكبر من الأرض، لم يبق شيء لا من الوجهة العملية، ولا من الوجهة النظرية. من ذلك أن ستالين Stalin لم يستطع أن يفهم ولا أن يحترم وجهة النظر التي أدت بتشرشل Churchill إلى السماح لنفسه أن يتخلى عن منصبه بسلام نتيجة لتصويت شعبي. وأن إيماني لثابت في أن الحكومة الديمقراطية التمثيلية كخير شكل لأولئك الذين يتصفون بالتسامح وضبط النفس المطلوبين ليجعلوها ممكنة عملياً. ولكن أنصارها يخطئون إذا ظنوا بأن من الممكن حالاً إدخالها إلى الأقطار التي ينقص فيها المواطن المتوسط حتى الآن كل درجة في الأخذ والعطاء المطلوبين. وفي قطر بلقاني، قبل مضي سنين غير كثيرة، عمد حزب فيها فشل بالانتخاب في هامش ضيق في انتخاب شامل، عمد إلى إنقاذ حظوظه

بإطلاق الرصاص على عدد كافٍ من ممثلي الطرف الآخر ليكسب بذلك الأغلبية. والناس في الغرب يظنون أن هذه من خصائص البلقانيين، وقد نسوا أن كرومويل Gromwell وروبسبير Robespierre قد فعلوا ما يشابه ذلك.

وبهذا أصل إلى الزوج الأخير من الأفكار السياسية العظيمة التي تدين لها البشرية بالنجاح مهما كان قليلاً في التنظيم الاجتماعي الذي أنجزته، وأعني فكرتي القانون والحكومة. وبين هاتين الفكرتين، تعد الحكومة، الأكثر أهمية من الناحية الأساسية، ويمكن للحكومة أن توجد بسهولة دون قانون، ولكن القانون لا يستطيع الوجود دون حكومة ـ وهذه حقيقة نسيها هؤلاء الذين صاغوا نظام عصبة الأمم وميثاق كيلوك Kellogg Pact. ويمكن تعريف الحكومة كحصر للقوى الاجتماعية في مجتمع ما في تنظيم معين، وبموجب هذا الحصر، تستطيع أن تسيطر على المواطنين الأفراد وأن تقاوم ضغط الدول الأجنبية. فالحرب كانت دائماً المشجع الرئيسي لوجود السلطة الحكومية. وسيطرة الحكومة على المواطن الخاص هي دائماً أعظم حين تكون ثمة حرب أو خطر حرب وشيك مما لو كان السلام يبدو مضموناً. ولكن حينما حصلت الحكومات على السلطة لمقاومة العدوان الأجنبي، فقد استعملته حين استطاعت إلى ذلك سبيلاً لتأييد مصالحها الخاصة على حساب المواطنين. والملكية المطلقة كانت، حتى وقت قريب، أفظع شكل لهذا الاستعمال السيئ للسلطة. ولكن في الدولة الكلية الاستبدادية المعاصرة فإن الشر نفسه قد نفذ بشكل أكثر بكثير مما كان يحلم به زيركس Xerxes أو نيرون Nero أو أي طاغية من الأزمنة الأولى.

ابتكرت الديمقراطية كاستنباط للتوفيق بين الحكم والحرية. ومن الواضح أن الحكومة ضرورية إذا كان ثمة شيء بأن يسمى حضارة جدير بالوجود، ولكن كل التاريخ يبين لنا أن أي فئة من الرجال التي يعهد إليها بالسيطرة على فئة أخرى ستسيء استعمال هذه السلطة إذا استطاعت إلى ذلك سبيلاً دون أن ينالها أي عقاب. والديمقراطية قصد بها أن تجعل تسلم ناس للسلطة مؤقتاً ومرتبطاً بالموافقة الشعبية. وما دامت تعمل على إنجاز ذلك فإنها

تحـول دون وجــود مــساوئ اســتعمال الــسلطة. والثلاثيــة الثانيــة Second Triumvirate في روما، حين كانت محتاجة إلى الدراهم بغية محاربة بروتوس Brutus وكاسيوس Cassius كانت تقوم بتهيئة قائمة من الرجال الأغنياء وتعلن بأنهم أعداء عامون، فتقطع رؤوسهم وتستولي على أملاكهم، وهذا النوع من السلوك غير ممكن في أمريكا وإنكلترا في الوقت الراهن. إننا مدينون بحقيقة استحالة هذا السلوك لا للديمقراطية فحسب، بل لعقيدة الحرية الشخصية أيضاً. وهذه العقيدة، من الوجهة العملية، تنطوي على اسمين، فمن الجهة الواحدة لا يعاقب الإنسان إلا بعد محاكمة قانونية لائقة، ومن الناحية الأخرى فإن هنالك نطاق لا تخضع فيه أعمال الإنسان لسيطرة الحكومة. وهذا النطاق يتضمن حرية الكلام، وحرية الصحافة، والحرية الدينية. وكان من المعتاد أن يتضمن حرية العمل الاقتصادي. وكل هذه العقائد طبعاً، معمول بها من الوجهة الفعلية مع وجود بعض القيود. فالبريطانيون لم يتمسكوا بها سابقاً في تعاملهم مع الهند. وحرية الصحافة لا تحترم في الحالة التي يظن فيها بأن العقائد هدامة بصورة خطرة. وحرية الكلام لا يعمل بها للإغضاء عن دعوة عامة لقتل سياسي غير محبوب. ولكن بالرغم من هذه القيود فإن عقيدة الحرية الشخصية كانت دائماً ذات قيمة عظيمة في العالم المتكلم بالإنكليزية، كما يتحقق من ذلك أي فرد بسرعة حينما يجد نفسه في دولة بوليسية.

وفي تاريخ التطور الاجتماعي نجد أن تأسيس نوع من الحكومة تقريباً بصورة غير متغيرة يأتي أولاً ثم يجعل الحكومة منسجمة مع الحرية الشخصية فيما بعد. وفي الشؤون الدولية لم نصل بعد إلى المرحلة الأولى، مع أنه أصبح من الواضح بأن الحكومة الدولية أو العالمية هي على الأقل ذات أهمية للبشرية لا تقل عن الحكومة القومية. وأظن أنه قد يكون من مثار الشك الجدي أن تكون العشرون سنة القادمة أكثر تهديماً للبشرية إذا ألغيت جميع الحكومات مما يكون كذلك إذا لم تؤسس حكومة عالمية فعالة. وكثيراً ما يجري التحريض على أن الحكومة العالمية ستكون ظالمة، ولا أنكر بأن هذه الحالة قد تكون ممكنة، على أي حال بوقت ما، ولكن الحكومات القومية كانت ظالمة حينما

كانت جديدة ولا تزال ظالمة في معظم الأقطار، ومع ذلك قلما تجد إنسان يقترح لهذا السبب وجود الفوضى في داخل الأمة.

والحياة الاجتماعية المنظمة من أي نوع والتي تبدو في أي درجة مرغوب بها ترتكز على تركيب متآلف ومتوازن لبعض الآراء والمؤسسات التي تنمو بصورة بطيئة: كالحكومة، القانون، الحرية الفردية، سبقت بالطبع العصور التي كان فيها حكومة، ولكنها حينما كانت موجودة بدون حكومة كانت الحياة المتحضرة مستحيلة. وحينما نشأت الحكومات لأول مرة كانت تتضمن العبودية، والملكية المطلقة، والإجبار عادة على القبول بالخرافة من قبل هيئة كهنوت قوية. وكل هذه كانت شروراً عظيمة، ولذلك كان الإنسان يستطيع أن يفهم هيام روسو Rousseau بحياة المتوحش النبيل. ولكن هذا كان مجرد مثالية رومانسية، وكانت حياة المتوحش في الحقيقة، كما قال هوبس Hobbes، «قذرة، متوحشة، وقصيرة». وتاريخ الإنسان يصل إلى أزمات عرضية عظيمة. فلا بد أن كان ثمة أزمة حينما فقدت القردة العليا أذنابها، وأزمة أخرى حينما بدأ أجدادنا بالسير مستقيمين وفقدوا الغطاء الشعري الواقي لهم. وكما أشرت قبلاً، فالسكان البشريون للكرة الأرضية، الذين كان عددهم ولا بد صغيراً جداً، قد ازدادوا زيادة عظمى باختراع الزراعة، ثم ازدادوا أيضاً في زمننا هذا عن طريق الصناعة الحديثة والتقنية الطبية. ولكن التقنية الحديثة قد حملت إلينا أزمة جديدة. وفي هذه الأزمة الجديدة، نحن نصطدم بخيار من الخيارات: فإما أن يصبح الإنسان نوعاً نادراً في أيام إنسان بيكين. أو يجب علينا أن نخضع لسلطة حكومية عالمية. وأي حكومة من هذا النوع، سواء كانت جيدة، أو سيئة أو غير مبالية، ستجعل استمرار النوع الإنساني ممكناً، وكما كان الحال خلال الخمسة آلاف من الأعوام المنصرمة حين صعد الناس بالتدريج من استبداد الفراعنة إلى أمجاد الدستور الأمريكي، فربما هكذا قد يتسلق الإنسان في الخمسة آلاف سنة المقبلة، من حكومة عالمية سيئة إلى حكومة جيدة. ولكن إذا لم تؤسس حكومة دولية من نوع ما، فإن التقدم الجديد يجب أن يبتدئ من مستوى أدنى، وبالأرجح يبتدئ بالوحشية القبلية، وعليه أن يبتدئ بعد تهدم كارثي ليصبح موازياً مع قصة الطوفان في الكتاب المقدس.

وحينما نقدر التقدم الطويل للبشرية من حيوان نادر الصيد ومختبئ، بصورة غير مستقرة في كهوف من غضب الوحوش الضارية التي لم يكن يستطيع قتلها، حين كانت تعيش بصورة غير مضمونة على الفواكه الفجة في الأرض التي لم يكن يعرف كيف يزرعها، والأهوال القوية الحقيقية تقويها أهوال الأشباح الخيالية، والأرواح الشريرة والرقى الخبيثة، اكتسب بالتدريج السيطرة على محيطه باختراع النار والكتابة، والأسلحة، وأخيراً العلم، وبنى نظاماً اجتماعياً خفف من وطأة العنف الخاص ووفر قدراً من الأمن في الحياة اليومية، واستعمل الفراغ الذي كسبه من مهارته، لا بالكماليات الفارغة فحسب، بل في إنتاج الجمال ورفع القناع عن أسرار القانون الطبيعي، فتعلم بالتدريج، ولو بصورة غير كاملة، أن يرى عدداً من جيرانه كحلفاء في عمل الإنتاج أكثر من أعداء في محاولات النهب المتبادل - فإذا أخذنا بهذه الرحلة الطويلة والنشيطة، يصبح من غير المحتمل التفكير بأنه يجب تكرارها من البداية نظراً للفشل في اتخاذ خطوة يجعل فيها التقدم الماضي، حين ينظر إليه من الوجهة الصحيحة، أن يعد فقط تهيئة وأعداداً. والتماسك الاجتماعي، الذي ينحصر في القردة العليا في العائلة قد نما في أزمنة ما قبل التاريخ حتى وصل إلى القبيلة في البدايات الأولى للتاريخ حيث بلغ مستوى ممالك صغيرة في مصر العليا والسفلى وبين النهرين Mesopotamia. ومن هذه الممالك الصغيرة نمت إمبراطوريات الزمن السحيق، ومن ثم عقب ذلك بالتدريج الدول العظمى في يومنا هذا، وهي أكبر بكثير حتى من الإمبراطورية الرومانية. وأن التطورات الأخيرة قد سلبت الدول الصغرى أي استقلال حقيقي، وحتى الآن لم يبق سوى دولتين قادرتين تماماً على التوجيه الذاتي المستقل: وأعني طبعاً، الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي. وكل ما هو ضروري لإنقاذ البشرية من الخراب هو الخطوة التي يجب أن تخطوها البشرية من دولتين مستقلتين إلى دولة واحدة لا بالحرب، التي قد تجلب الكارثة، بل بالاتفاق.

فإذا أمكن إنجاز هذه الخطوة، فإن كل الإنجازات العظيمة للبشرية ستؤدي بسرعة إلى عصر من السعادة والرفاه، بشكل لم يكن الحلم به من قبل. ومهارتنا العلمية ستجعل من الممكن إلغاء الفقر في كل أنحاء العالم دون

ضرورة يزيد فيها العمل على أربع أو خمس ساعات من العمل المنتج. والمرض، الذي نقص بصورة سريعة خلال المائة سنة الماضية، سيزداد نقصاً فيما بعد. والفراغ الذي تم عن طريق التنظيم والعلم سيكرس بدون شك بصورة عظمى للمتعة الخالصة، ولكن سيبقى عدد من الناس يرون أن متابعة الفن والعلم من الأمور الهامة. وستكون ثمة حرية جديدة من العبودية الاقتصادية لضرورات حفظ الحياة. والكتلة العظمى من البشرية قد تتمتع بنوع من المغامرة الخالية من الهموم التي يتصف بها الشبان الأغنياء الأثينيون في محاورات أفلاطون: كل هذا سهل في حدود الإمكان التقني. ويتطلب لتحقيقه شيئاً واحداً فقط: وهو أن الذين يمسكون بزمام السلطة، والشعوب التي تدعمهم، عليهم أن يفكروا أن من الأهم لهم أن يحتفظوا بنفوسهم أحياءً من أن يسببوا الموت لأعدائهم. وهو ليس مثلاً أعلى سامياً أو صعباً، كما يمكن للمرء أن يظن، ومع ذلك فقد دلل على أنه حتى الآن كان بعيداً عن نطاق الذكاء الإنساني.

والبرهة الحالية هي أهم برهة وأكثرها حسماً من البرهات التي اصطدمت بها البشرية. والقضية التي تقول بأن الجنس البشري سيغرق في كارثة لا نظير لها، أو سينجز مستوى جديداً من السعادة، والرخاء، والأمن والذكاء، منوطة بحكمتنا الجماعية خلال السنين العشرين القادمة. ولا أدري أي نوع من البشرية سيختار. وهنالك باعث خطير للخوف، ولكن ثمة إمكانية خافية لحل جيد يجعل الأمل غير بعيد عن التعقل، وعليه يجب أن نعمل وفقاً لهذا الأمل.

* * *

(10)

الأفكار التي آذت الإنسانية

يمكن تقسيم مساوئ الخطر التي تصيب الكائنات البشرية إلى صنفين: الأول، الذي يصيبهم من البيئة غير البشرية، والثاني، الذي يصيبهم من الأناس الآخرين. فحين تقدمت البشرية في المعرفة والتقنية، أصبح الصنف الثاني الذي أشرنا إليه يزداد بصورة مستمرة في نسبته المئوية من المجموع. وفي الأزمنة المنصرمة، كان الجوع، مثلاً، يعزى للأسباب الطبيعية، ومع أن الناس بذلوا جهدهم لمحاربته، فإن عدداً كبيراً منهم قد ماتوا من الجوع. وفي الوقت الراهن تتعرض أجزاء كبيرة من العالم إلى التهديد بالجوع، ولكن مع أن أسباباً طبيعية قد أدت إلى هذا الموقف، فالأسباب الرئيسية هي بشرية. وقد كرست الأمم المتحضرة في العالم خلال ستة أعوام أعظم طاقاتها لقتل بعضها بعضاً، ووجدت من الصعوبة فجأة أن تتحول إلى حفظ حياتها بصورة متبادلة. وبعد القضاء على المحاصيل، وتحطيم الآلات الزراعية، ووسائل الشحن غير المنظمة، فإنها لا تجد من السهل أن تعوض عن النقص في المحاصيل في مكان ما بواسطة وفرة هذه المحاصيل في مكان آخر، إلا إذا كان من السهولة عمل هذا لو كان النظام الاقتصادي يسير في ترتيب سوي فعال. وكما يبين لنا هذا المثل، فأعدى أعداء الإنسان الآن هو الإنسان نفسه. وحقاً أن الطبيعة لا تزال تسير على أساس أننا سائرون إلى الفناء، ولكن مع تقدم الطب سيصبح أكثر فأكثر شيوعاً بين الناس أن يعيشوا حتى يأخذون ما يملأهم شبعاً من الحياة. ومن المفروض أننا نرغب في العيش إلى الأبد وأن نصبوا إلى الأفراح التي لا تنتهي في الجنة، التي لا تصبح الرتابة فيها بائتة، ولكن في الواقع إذا سألت رجلاً صريحاً تجاوز مرحلة الشباب، من المرجح أنه سيخبرك أنه قد ذاق الحياة في هذا العالم، وأنه لا يرغب في أن يبتدئ «كفتى جديد» في عالم آخر. لذلك، ولأجل المستقبل، فإن على

البشرية أن تعرف بأن الشرور الهامة التي يجب على البشرية أن تتدارسها هي تلك التي يسببها البعض للبعض الآخر بواسطة البلاهة أو سوء النية أو كليهما.

وإني لأحسب بأن الشرور التي يرتكبها الناس بحق بعضهم بعضاً، وبالانعكاس على ذواتهم، تصدر بصورة رئيسية من العواطف الشريرة أكثر من صدورها من الأفكار والعقائد، ولكن الأفكار والمبادئ التي تصيب الناس بالأذية، هي كقاعدة، وليست دائماً كذلك، أردية للعواطف الشريرة. وفي ليشبونه Lisbona حيث كان الهراطقة الضالون يحرقون بصورة علنية، حدث ذات مرة أن واحداً منهم، بجحود صريح لما كان يفعل، منح ميزة الخنق قبل أن يلقى في سعير اللهب. وهذا جعل المشاهدين يتبرمون غضباً حتى أن السلطات المسؤولة وجدت صعوبة عظمى في منعهم من إعدام التائب بأنفسهم وإحراقه عن طريق أنفسهم. ومشهد الالتواء تحت التعذيب للضحايا، كان في الواقع، أحد المسرات الرئيسية التي كانت تتوق لها الجماهير لتنعش شيئاً من حياتها الباهتة. وأنا لا أستطيع أن أشك بأن هذا السرور قد أدى بصورة كبيرة إلى الاعتقاد الشامل بأن إحراق الهراطقة الضالين هو عمل صائب. والشيء نفسه ينطبق على الحرب. فالناس الأقوياء والقساة المتوحشون يجدون متعة في إشعال الحرب، بشرط أن تكون حرباً مؤدية إلى النصر وأن لا يكون ثمة تدخل كبير في الاغتصاب والنهب. وهذا يؤدي عوناً كبيراً لإقناع الناس بأن الحروب كانت صائبة. وأما الدكتور أرنولد Dr. Arnold بطل حكاية أيام مدرسية لتوم براون Tom Brown's Schooldays، والمصلح المعجب به للمدارس العامة، فقد عثر على بعض البلهاء الذين كانوا يظنون أنه من الخطأ ضرب الأولاد بالسياط. وأن أي فرد يطالع انفجار غضبه الجم ضد هذا الرأي يكون مجبراً على الاستنتاج بأنه كان يتمتع بالتعذيب بالسياط، وما كان يرغب بحرمانه من هذه المسرة.

ومن السهل تعداد الأمثال الكثيرة التي تدعم نظرية الرأي القائل بتبرير القساوة التي تستوحى من الحوافز القاسية. وحينما نستعرض الآراء السائدة في الأيام الخوالي التي تعد الآن غير معقولة، سنجد في تسع أضعاف من عشرة بأنها كانت مكونة بطريقة تبرر إجراء التعذيب. خذ لك مثلاً، الممارسة الطبية. حينما

اخترعت وسائل التخدير ظن بأنها وسائل شريرة لأنها تعد بمثابة إحباط لإرادة الله. والجنون كان يحسب ويعزى إلى الامتلاك الشيطاني للفرد الملتاث، وكان يعتقد بأن الشياطين التي تقطن مجنوناً كان يمكن طردهم بإجراء الألم على هذا الملتاث، فيجعل الشياطين حينئذ يفرون. ووفقاً لهذا الرأي، ظل المجانين يعاملون طيلة سنين كثيرة بوحشية منظمة وقائمة على الوعي والضمير. وأنا لا أستطيع أن أفكر بمثل واحد من المعالجة الطبية الخاطئة كان مستحسناً لدى المريض وليس على العكس من ذلك. أو أيضاً، خذ مثلاً في التربية الخلقية. وانظر كم من الوحشية المفرطة قد بررتها القافية التالية:

كلب، وزوجة، وشجرة جوز،

كلما ضربتها كلما زدت في ضربهم فكان ذلك أفضل صنعاً.

وأنني لا أحوز على التجربة للأثر الخلقي لضرب أشجار الجوز بالسياط، ولكن ليس ثمة رجلاً متحضراً يبرر الآن هذه القافية فيما يتعلق بالزوجات. والأثر الإصلاحي للعقوبة هو عقيدة ليس من السهل زوالها، وأظن أن ذلك يعود إلى أنها مرضية لحوافزنا السادية.

لكن الانفعالات لها صلة أوثق بكثير من العقائد في متاهات الحياة الإنسانية الراهنة، ومع ذلك، فالعقائد لاسيما حينما تكون قديمة ومنسقة في منظمات، لها أثر عظيم في تأخير التغيرات المرغوبة في الرأي وفي تأثيرها في الناس في جعلهم يتجهون خطأ، ولولا ذلك لكانوا لا يملكون مشاعر تتعلق بالطرفين. وبما أن موضوعي هو «الأفكار التي آذت البشرية»، لذا فإنني سأدرس بصورة خاصة النظريات المؤذية في العقائد فيما بعد.

إن أوضح حال فيما يتعلق بالتاريخ الماضي ينشأ عن العقائد التي قد تدعى دينية أو خرافية، وفقاً لميول الفرد الشخصية. ولقد كان من المعتقد أن التضحية الإنسانية تحسن المحاصيل، أولاً لأسباب سحرية صرفة، ومن ثم لأن دم الضحايا كان يظن بأنه مسر للآلهة الذين قد فطروا دون ريب على صورة عابديهم. وقد قرأنا في العهد القديم أن من الواجب الديني أن نسحق الأجناس المهزومة تماماً، وأن مجرد التوفير هو في قطعان المواشي. لقد كان الجمود والأهوال وعثرات

الحظ المظلمة في الحياة المقبلة تضغط على المصريين والتروسكانيين Etruscans، ولكنها لم تصل إلى نموها الكامل حتى انتصار المسيحية. فالقديسون السوداويون الذين كانوا يمتنعون عن كل لذائذ الحس، والذين عاشوا في عزلة في الصحراء، ينكرون على أنفسهم الغذاء والخمر ومعاشرة النساء، كانوا مع ذلك، غير مجبرين على أن يمتنعوا عن كل المسرات. فمسرات العقل كانت تعتبر متفوقة على مسرات الجسد، وكان ثمة مكانة عالية لمسرات العقل قد حددت بتأمل صنوف العذاب الأبدية التي سيخضع لها الوثنيون والهراطقة فيما بعد. ومن العقبات في حركة التقشف أنها لا تجد أذية في المسرات التي تجاوز المسرات التي تجاوز الحس، ومع ذلك، فالواقع، أن أفضل المسرات ولكن أسوئها هي مسرات عقلية صرفة. تأمل مسرات شيطان ميلتون حينما يعمد إلى الأذى الذي يستطيع أن يصيب به الإنسان. وكما جعله ميلتون يقول:

العقل هو مكانه الخاص، وهو من نفسه

يستطيع أن يجعل من جهنم جنة ومن الجنة جهنم

وتفكيره النفساني ليس مختلفاً جداً عن تفكير ترتوليان Tertullian، الذي يتباهى بالتفكير بأنه سيكون قادراً على أن ينظر من الجنة إلى تعذيب المدانين، وتشذيب المتقشفين من مسرات الحس لم تؤد إلى زيادة السلوك اللطيف أو التسامح أو أي فضيلة أخرى قد تقودنا نظرة غير خرافية في الحياة البشرية إلى الرغبة فيها. وبالعكس، فإن الإنسان الذي يعذب نفسه يشعر بأنه له الحق في تعذيب الآخرين، ويميل إلى قبول أي نسق من العقائد يقوي فيه هذا الحق.

أما الشكل التقشفي للقساوة فهو، لسوء الحظ، لا ينحصر بالأشكال الأكثر شراسة في العقيدة المسيحية، والتي هي نادراً ما يقوم الاعتقاد فيها بشراستها السابقة. والعالم قد أنتج أشكال جديدة مهددة لنفس النموذج النفساني. فالنازيون قبل أن ينجزوا الظفر أخيراً، عاشوا حياة مجهدة تنطوي على كثير من التضحية بالراحة والمسرة الدينية إطاعة للاعتقاد بالشدة وبمثل نيتشه المأثور بأن يجعل المرأة نفساً قاسياً صعباً. وحتى بعد أن ظفروا بالسلطة، كان

شعارهم «البنادق أفضل من الزبدة» . وهو ينطوي على تضحية بمسرات الحس لقاء المسرات الذهنية أو العقلية للنصر المنتظر ـ وهي نفس المسرات، في الواقع التي يعزي فيها شيطان ميلتون حينما يتعذب بنيران جهنم. والعقلية نفسها موجودة بين الشيوعيين الجادين، الذين يحسبون الكماليات شراً ، والذين يؤمنون بأن العمل الشاق هو الواجب الرئيسي، والفقر الشامل هو الوسيلة لبلوغ الجنة الأرضية. واندماج مذهب التقشف والقساوة لم يختلف بعد أن أصبحت العقيدة المسيحية أكثر ليونة ومرونة، بل اتخذت أشكالاً جديدة معادية للمسيحية. ولا يزال ثمة كثيراً من العقلية ذاتها : فالبشرية منقسمة إلى قديسين وخطاة، والقديسيون هم الذين يحققون السعادة في الجنة النازية أو الشيوعية، بينما تجري تصفية الخطاة أو معاناة آلام كتلك التي يحدثها الناس في معسكرات اعتقال ـ وهي أقل شأناً بلا شك، مما كان يظن أن الكلي المقدرة يحدثها في جهنم، ولكنها أسوأ ما تتجزه الكائنات البشرية بقواها المحدودة. وهنالك لا يزال بالنسبة للقديسين، زمن تجربة قاسية يتبعها «صياح أولئك الذين ينتصرون، وأغنية الذين يولمون»، كما تقول الأنشودة المسيحية في وصف أفراح الجنة.

ولما كان هذا النموذج النفساني كما يبدو مستمراً في ديمومته وقادراً على أن يرتدي أردية جديدة تماماً من العقيدة، فلا بد أن تكون جذوره عميقة بعض العمق في الطبيعة البشرية. وهذا هو نوع المادة التي يتدارسها المحللون النفسانيون، وبينما أنا بعيد عن الإسهام والموافقة على كل عقائدهم، أعتقد أن مناهجهم الشاملة هي مهمة إذا أردنا أن نبحث عن مصدر الشر في أعماق نفوسنا ، والفكرتان التوامان للخطيئة والعقوبة الثأرية يبدوان بأنهما كائنان في جذور الكثير مما هو أكثر الأحوال قوة، سواء أكان هذا في الدين أو في السياسة. وأنا لا أستطيع أن أعتقد ، كما يعتقد بعض المحللين النفسانيين، بأن الشعور بالخطيئة هو شعور فطري، مع أنني أؤمن بأنه نتاج الطفولة المبكرة جداً ، وأظن بأن هذا الشعور إذا أمكن استئصاله، فإن مبلغ القساوة المنيخ على العالم الآن سينقص نقصاً كبيراً. فلو فرضنا أننا كلنا خطاة وأننا كلنا نستحق العقاب، فثمة ما يمكن قوله كثيراً بوضوح في طريقة تجعل العقوبة تقع على الآخرين دوننا. والكلفينيون Calvinists نتيجة لمرسوم الرحمة غير المستحقة ،

سيذهبون إلى الجنة، ومشاعرهم بأن الخطيئة تستحق العقاب لن تجد ما يرضيها سوى رضاء تعويضي.والشيوعيون يمتلكون نظرة مشابهة. حينما ولدنا لم نختر بأن نولد رأسماليين أو كادحين، ولكن إذا كنا من الطبقة الأخرى أي الكادحين، فنحن من المختارين، وإن كنا من الطبقة الرأسمالية فلن نكون مختارين. وبدون اختيار من قبلنا، وبفعل الجبرية الاقتصادية، فقد قدر لنا أن نكون في الجانب المحق في الحالة الواحدة، وفي الجانب المخطئ في الحالة الثانية. وقد أصبح والد ماركس مسيحياً حينما كان ماركس صبياً، وبعض العقائد، على الأقل، التي قد قبلها آنئذ قد أتت أكلها في نفسية الابن.

ومن النتائج الغريبة في الأهمية التي يعزوها كل فرد منا لنفسه هو أننا ننزع بتصور حظنا الطيب أو العاثر بالهدف من أعمال الناس الآخرين. فإذا مررت في قطار يقطع حقلاً محتوياً على بقر يرعى، يمكنك أن تراها أحياناً تركض فارة في فزع حينما يمر القطار. ولو كانت البقرة فيلسوفاً ميتافيزيقياً، لجادلت قائلة: «كل شيء في رغباتي وآمالي ومخاوفي الخاصة له صلة بذاتي، فإذا استنتج بالاستقراء، بأن كل شيء بالكون له صلة بذاته، فالقطار الصاخب لذلك، يقصد إما خيري أو شري. وأنا لا أستطيع أن أفرض بأنه ينوي لي الخير، لأنه كان يجري بشكل مرعب ولذا فإنني كبقرة حكيمة سأسعى لأنجو منه» ولو أردت أن تشرح لهذا الحيوان المجتر الميتافيزيقي بأن ليس في نية القطار ترك خطوطه الحديدية وأنه غير عابئ تماماً بمصير البقرة، فستُذهل هذا الحيوان المسكين لأي شيء يجري بصورة طبيعة كهذا. فالقطار الذي لا يريد لها الخير ولا الشر قد يبدو أكثر برودة وأكثر هولاً بصورة عميقة من قطار يريد لها شراً. فهي لا تستطيع الاعتقاد بأن هذا يحدث بمجرد المصادفة. إن البقرة، التي عرفت رفيقة لها تاهت في خط السكة الحديدية فقتلها القطار، ستتابع تكفيرها الفلسفي إذا كانت قد وهبت تلك الدرجة المعتدلة من الذكاء التي يتصف بها معظم الكائنات البشرية، لدرجة تجعلها تستنتج بأن البقرة التعيسة قد عوقبت كخطيئة اقترفتها من قبل آله السكة الحديدية. وستكون مسرورة حينما يضع قسوسها الحواجز على طيلة الخط الحديدي، وأن ينذروا صغار البقر النشيطات أن لا ينتهزوا فرصة وجود أمكنة مفتوحة في هذه الحواجز، لأن جزاء الخطيئة

هـو الموت. وبأسـاطير مماثلة نجح النـاس، دون أن يضحوا بـأهميتهم الذاتيـة في تفسير كثير من عثرات الحظ التي يتعرضون لها. ولكن عثار الحظ يصيب أحياناً الأناس الأفاضل، فما ترانا نقول في هذه الحالة؟ إن شعورنا سيتحول بأننا يجب أن نكون مركز الكون في أن نقبل عثار الحظ قد حدث لنا دون قصد من أحد. ولما كنا غير أشرار وفقاً للفرضية، فإن سوء حظنا يجب أن يعزى إلى سوء نية أحد منا، يعني لشخص يريد إيذائنا بمجرد البغض، وليس بأمل أي منفعة ينالها. وهذه الحالة الذهنية هي التي أنشأت علم الشياطين والإيمان بالعرافة والسحر الأسود. فالساحرة أو العرافة هي شخص يؤذي جيرانه لمجرد البغض الصرف، لا لأي أمل في الربح والاعتقاد في العرافة، وكان حتى منتصف القرن السابع عشر يقدم للناس منفذاً مرضياً لعاطفة القساوة اللذيذة المبررة لذاتها. وكان هناك مبرر من الكتاب المقدس، لأن الكتاب المقدس يقول: «لا تحاول أن تبقي ساحرة حية». وعلى هذا الأساس فإن محاكم التفتيش لم تعاقب السحرة فحسب، بل أيضاً أولئك الذين لا يؤمنون بإمكانية السحر، لأن عدم الإيمان بالسحر هو هرطقة وضلال. والعلم الذي منحنا استبصاراً لمعرفة السببية الطبيعية، بدد الاعتقاد في السحر، ولكنه لم يستطع أن يزيح تماماً الخوف والشعور بعدم الأمان الذي نشأ عن ذلك. وفي الأزمنة الحديثة، فإن المشاعر نفسها تجد منفذاً لها في الخوف من الأمم الأجنبية، منفذاً يجب الاعتراف بأنه لا يتطلب الكثير في طريق الدعم الخرافي الذي يناله.

إن من أقوى مصادر الاعتقاد الخاطئ هو الحسد. وفي أي مدينة صغرى ستجد إذا شككت، بأن الطبقة الرافهة نسبياً تبالغ كلها بمداخل جيرانها، مما يعطيها الفرصة لتبرير اتهامهم بالدناءة. وحسد النساء يضرب به المثل بين الرجال، ولكنك ستجد في أي دائرة كبرى تماماً نفس النوع من فقد الحسد بين الموظفين الذكور. فإذا امن أحدهم ترفيعاً له يقول الآخرون: «هم، آه هذا فلان يعرف كيف يتملق الرجال الكبار*. فقد كان باستطاعتي أن أترفع مثله بنفس

---

* أو كما يقول العربي من أين تأكل الكتف. المترجم

السرعة لو اخترت لنفسي أن أحط من قدرها باستعمال فنون التملق الذي لم يخجل هو فيها. لا شك أن عمله يتصف بالتألق اللامع، ولكنه يفتقر إلى المتانة، وستجد السلطات آجلاً أو عاجلاً بأنها كانت على خطأ». وهكذا سيقول جميع الناس المنحطين إذا سمح لرجل قدير أن يرتفع بمقدار ما تستحقه قدراته أنه صار هنالك نزوع لاختيار قاعدة الأقدمية، لأن هذه القاعدة التي لا علاقة لها بالاستحقاق القائم على المزية، لا ينشأ عنها نفس الكراهة الحاسدة.

ومن أكثر النتائج باعثاً على الأسى في ميلنا للحسد هو أنه قد سبب سوء فهم كامل للمنفعة الذاتية الاقتصادية سواء أكانت فردية أو قومية. وأنني أمثل لذلك بحكاية. لقد كان ثمة في الزمن المنصرم مدينة متوسطة الحجم تحتوي على عدد من الجزارين، وعدد آخر من الخبازين، وهلمجرا. فأحد الجزارين، الذي كان نشيطاً بصورة خارقة، قرر بأنه سيجني أرباحاً أكثر بكثير من جميع الجزارين الآخرين إذا أزيحوا جميعهم وأصبح هو محتكراً للمهنة. وفي بيعه بصورة أرخص تسيقاً نجح في هدفه، مع أن خسارته كانت خلال ذلك قد استنفدت حوزته لرأس المال والثقة المالية. وفي الوقت نفسه خامر الفكر نفسه خبازاً نشيطاً فعمد إلى نفس الفكرة وتابعها حتى وصل إلى الخاتمة الناجحة. وفي كل مهنة تعيش على بيع البضائع للمستهلكين حصل الشيء نفسه. وكل واحد من المحتكرين الناجحين كانت نبوءته سعيدة بإحراز ثروة، ولكن الجزارين المنزاحين لم يسعد لسوء الحظ في مكنتهم أن يشتروا خبزاً، والخبازون المنزاحون لم يعد في مقدورهم أن يشتروا لحماً. لهذا وجب صرف المستخدمين الذين انصرفوا إلى أمكنة أخرى. والنتيجة كانت بأن الجزار والخباز بالرغم من أنهما حصلا على الاحتكار، الذي يصبون إليه كان بيعهم أقل من الأيام الخالية. فقد نسيا بأن الإنسان يتلقى الأذى من منافسيه والربح من زبائنه، وأن الزبائن يزداد عديدهم حينما يتضاعف مستوى الرخاء الشامل. فالحسد جعلهم يركزون انتباههم على المنافسين وينسون تماماً مظهر رخائهم المتعلق بالزبائن.

هـذه قصة خيالية، والمدينـة التي كنت أتحـدث عنهـا لم تكـن موجـودة مطلقـاً، ولكـن ضـع مكـان المدينـة العـالم بأسـره، ومكـان الأفـراد الأمـم، فستحصل على صورة كاملة من السياسة الاقتصادية التي تتابع بصورة شاملة في الوقت الراهن. فكل أمة مقتنعة بأن مصلحتها الاقتصادية معاكسة لمصلحة كل أمة أخرى، وأنها لا بد أن تربح إذا وصلت الأمم الأخرى إلى الفقر المدقع. وفي خلال الحرب العالمية الأولى، أعتدت أن أسمع من الشعب الإنكليزي وهو يقول كم ستستفيد التجارة البريطانية بصورة هائلة من تحطيم التجارة الألمانية، وهذا حين يكون فإنه من الثمرات الرئيسية لظفرنا. وبعد الحرب كنا نرغب أن نجد سوقاً في القارة الأوربية، ومع أن الحياة الصناعية بأوربا الغربية ترتبط بالفحم المستورد من الرور Ruhr، ولم نستطع أن نحمل أنفسنا على السماح لصناعة الفحم في الرور أن تنتج أكثر من نسبة ضئيلة مما كانت تنتجه قبل أن يهزم الألمان. وفلسفة القومية الاقتصادية بكاملها، والتي هي شاملة للعالم كله، ترتكز على الاعتقاد الخاطئ بأن المصلحة الاقتصادية لأمة من الأمم هي بالضرورة معاكسة لمصلحة الأمة الأخرى. وهذا الاعتقاد الخاطئ، بما نجم عنه من تباغض عالمي وخصومات، كان سبباً للحرب، وبهذه الطريقة ينزع إلى أن يجعل نفسه حقيقياً. إذ حينما تشتعل الحرب تصبح المصالح القومية المتصارعة حقيقية تماماً، فإذا حاولت أن تشرح لأحد مثلاً، ينتمي إلى صناعة الفولاذ، بأن الرخاء في البلدان الأخرى ربما يكون ذا فائدة له نفسه، فستجد أن من المستحيل تماماً أن تجعله يدرك الحجة، لأن الغرباء الوحيدين الذين يعرفهم معرفة حية هم منافسوه في صناعة الفولاذ. والغرباء الآخرون هم كائنات خيالية باهتة لا يشعر نحوها بأي اهتمام عاطفي. هذا هو الأساس النفساني للقومية الاقتصادية، والحرب، والجوع الذي يسببه الناس لأنفسهم، وجميع الشرور الأخرى التي ستؤدي بحضارتنا إلى نهاية مهلكة ومشينة ما لم يقتنع الناس أن يتطلعوا بصورة أوسع وأقل هيستيرية للعلاقات المتبادلة.

وثمة عاطفة أخرى ينجم عنها عقائد خاطئة ومؤذية من الناحية السياسية ألا وهي عاطفة الكبرياء ـ الكبرياء في القومية، وفي العنصر، وفي الجنس، والطبقة، أو العقيدة. حينما كنت صغيراً كانت فرنسا لا تزال تعتبر العدو

التقليدي لإنكلترا، وقد تجمعت لدي حقيقة لا يتطرق الشك إليها بأن الإنكليزي الواحد يستطيع أن يهزم ثلاثة أفرنسيين. وحينما أصبحت ألمانيا العدو فقد تحول هذا الاعتقاد وانقطع الشعب الإنكليزي أن ينظر بسخرية إلى الميل الأفرنسي لأكل الضفادع. ولكن بالرغم من الجهود الحكومية، فإني أخمن أن قليلاً من الإنكليز نجحوا في النظر إلى الأفرنسيين بصورة حقيقية كأشخاص مساوين لهم.و لما تعرف الأمريكيون والإنكليز على شعوب البلقان، أخذوا يشعرون باحتقار مدهش إزاءهم حينما درسوا العداوات المتبادلة بين البلغاريين والصرب، والهنغاريين والرومان. ومن الواضح لهم بأن هذه العداوات هي سخيفة وأن اعتقاد كل أمة صغيرة في تفوقها لا يستند إلى أساس موضوعي. ولكن معظمهم كانوا غير قادرين تماماً أن يروا بأن الكبرياء القومي لدولة عظمى لا مبرر له في أساسه، مثله في ذلك مثل الدولة البلقانية الصغيرة.

إن الكبرياء العرقي هو أكثر أذى من الكبرياء القومي. حينما كنت في الصين دهشت من الحقيقة الواقعة بأن الصينيين المثقفين كانوا ربما أكثر ارتفاعاً في حضارتهم من الكائنات البشرية الأخرى التي صادفني الحظ بالاجتماع إليها. ومع ذلك، فقد وجدت عدداً من الرجال البيض الجهلة وغير الناضجين الذين كانوا يحتقرون حتى أفضل الصينيين لا لشيء سوى أن جلودهم كانت صفراء. وبصورة عامة، فإن البريطانيين أكثر لوماً في هذا الصدد من الأمريكيين، ولكن كان هنالك شذوذاً لهذه القاعدة. كنت مرة في رفقة باحث صيني ذي ثقافة واسعة، لا من النوع الصيني التقليدي فحسب، بل من النوع الذي يدرس في الجامعات الغربية، رجل ذي ثقافة واسعة لا أكاد آمل أن أرى له مساوياً. ذهبنا أنا وهو معاً إلى مرآب لنستأجر سيارة. وصاحب المرآب كان نموذجاً سيئاً للأمريكيين الذي عامل صديقي الصيني وكأنه قذر، واتهمه باحتقار بأنه ياباني، مما جعل دمي يغلي لسوء نيته المبنية على الجهل. والموقف المشابه للإنكليز في الهند، الذي تثيره سلطتهم السياسية، كان سبباً رئيسياً من أسباب الاحتكاك الذي نشأ في تلك البلاد بين البريطانيين والهنود والمثقفين. وتفوق عنصر على آخر يكاد لا يمكن تصديقه لأي سبب وجيه من الأسباب. وحيث يستمر الاعتقاد يظل حياً بواسطة التفوق الحربي. وطالما كان

اليابانيون منتصرين، كانوا يشعرون باحتقار للرجل الأبيض، الموازي لاحتقار الرجل الأبيض في شعوره نحوهم حينما كانوا ضعفاء. وأحياناً، لا يكون للشعور بالتفوق أي صلة للتفوق العسكري. فالإغريق كانوا يحتقرون البرابرة، حتى في الأيام التي كان فيها البرابرة يفوقونهم في القوة الحربية. والناس الأكثر استنارة بين الإغريق، كانوا يعتقدون بأن العبودية مبررة مادام السادة هم الإغريق أنفسهم، والبرابرة هم العبيد، أما إذا كان الأمر بالعكس فإن ذلك مخالف للطبيعة. واليهود في الزمن السحيق، كانوا يعتقدون بصورة خاصة في تفوقهم العنصري الذاتي، ولكن منذ أن أصبحت المسيحية دين الدولة فإن الأمم غير اليهودية كانت تعتقد اعتقاداً غير معقول أيضاً بتفوقها على اليهود. والعقائد من هذا الطراز تحدث أذى غير متناه، ويجب أن يكون أحد أهداف التعليم اقتلاع جذور هذا الاعتقاد، وإن لم يكن موجوداً الآن. تحدثت منذ هنيهة عن وضع التفوق الذي سمح به الإنكليز لأنفسهم في معاملتهم لسكان الهند، والذي كان ممقوتاً لدى الهنود في تلك البلاد، ولكن نشأ نظام الطبقات كنتيجة للغزوات المتوالية من العناصر «المتفوقة» من الشمال، وهذا النظام الطبقي معترض عليه كغطرسة البيض.

والاعتقاد في تفوق الجنس المذكر، الذي قد تلاشى الآن بصورة رسمية في الأمم الأوربية، هو مثل غريب عن خطيئة الكبرياء. ولم يوجد أبداً، فيما أحسب، أي سبب للاعتقاد في التفوق الفطري للجنس المذكر، إلا في العضلات المتفوقة. أذكر ذات مرة أنني ذهبت إلى مكان يحتفظ فيه لعدد من الثيران التي حفظ تسلسل نسلها، وكان مما يجعل الثور بارزاً صفات غزارة الحليب في جداته المؤنثات. ولكن لو أن الثيران رفعوا قضية تسلسل التناسل لكانوا مختلفين جداً في ذلك الصدد. فلا شيء يمكن أن يقال بشأن الجدات القديمات، سوى أنها كانت وديعة وفاضلة، بينما كان الأجداد الذكور مشهورين بتفوقهم في المعركة. وفيما يتعلق بقطعان الماشية نستطيع أن نتخذ وجهة نظر عن المزايا النسبية للجنسين، ولكن بالنسبة إلى نوعنا نجد هذا أكثر صعوبة. وتفوق الذكر في الأيام الخوالي كان أسهل قابلية للبرهان، لأن المرأة إذا شك زوجها بها كان باستطاعته أن يضربها. ومن التفوق في هذه الناحية نظن بأن النواحي

الأخرى تتبع ذلك. فالرجال كانوا أكثر تعقلاً من النساء، وأكثر اختراعاً واستنباطاً، وأقل منهن خضوعاً للانفعالات، وهلمجرا. وعلماء التشريح، ظلوا حتى نالت النساء حقها في التصويت، يدلون بحجج كثيرة مستمدة من دراسة المخ ليبينوا لنا بأن مقدرة الرجال الفكرية لا بد أن تكون أقوى من مقدرة النساء. وكل واحدة من هذه الحجج ثبت في دورها أنها خاطئة، ولكنها أفسحت مكاناً لحجة أخرى يستخلص منها نفس النتيجة. ولقد اعتاد الناس أن يعتقدوا بأن الجنين المذكر يكتسب نفساً بعد ستة أسابيع، وأن الجنين المؤنث يكتسب نفساً بعد ثلاثة شهور. ولكن هذا الرأي قد هجر منذ أن نالت النساء حق التصويت. ويقرر توماس الأكويني في خلال حديثه، بأن من الواضح تماماً بأن الرجال أكثر عقلانية من النساء. وأما أنا، فلا أرى أي دليل على ذلك. فثمة أفراد قلائل يحوزون على بعض التألق الخفيف في العقلانية في بعض الاتجاهات، ولكن بقدر ما تمتد إليه مشاهداتي فإن هذه التألقات ليست أكثر شيوعاً بين الرجال مما هي بين النساء.

لقد كان لسيطرة الذكور بعض النتائج المؤسفة. فقد جعلت أهم علاقات وثيقة بشرية، وهي علاقة الزواج، علاقة سيد وعبد، بدلاً من أن تكون بين شريكين متساويين. وجعلت من غير الضروري للرجل أن يسر امرأة ليحصل عليها كزوجة، وبذلك حصر فنون المغازلة للعلاقات غير النظامية. وبالفصل الذي فرض على النساء المحترمات أصبحن بليدات وغير مؤثرات، والنساء الوحيدات اللائي كن مؤثرات ومغامرات كن من المهجورات اجتماعياً. وبالنسبة لبلادة النساء المحترمات، فقد أصبح معظم الرجال المتمدنين في معظم الأقطار المتحضرة في كثير من الحالات شاذين جنسياً. وطبقاً للواقع فإن لم يكن ثمة مساواة في الزواج يصبح الرجال موطدين في عادات السيطرة. وكل هذا قد انتهى الآن بنسبة أكثر أو أقل في البلاد المتمدنة، ولكن لا بد من انقضاء وقت طويل قبل أن يتعلم الرجال والنساء تكيّف سلوكهم بصورة تامة لحالة الشؤون الراهنة. والانعتاق له دائماً في البداية بعض النتائج السيئة، فإنه يجعل المتفوقين السالفين مجروحين في كبريائهم والمتدنين يتصفون بالتوكيد الذاتي. ولكن من المأمول أن الزمن سيجلب المواءمة في هذا الشأن كما في الحالات الأخرى.

وثمة نوع آخر من التفوق الذي هو آخذ بالاختفاء بسرعة هو تفوق الطبقة، الذي لم يبق على قيد الحياة إلا في روسيا السوفييتية. وفي تلك البلاد يتمتع ابن الكادح بامتيازات على ابن الرجل البرجوازي، ولكن هذه الامتيازات الموروثة تعد في الأمكنة الأخرى غير عادلة. واختفاء الفروق بين الطبقات، مع ذلك، هو بعيد من بلوغ درجة الكمال. وفي أمريكا يعتقد كل فرد بأن ليس هنالك متفوقين اجتماعياً، لأن كل الناس متساوون، ولكنه لا يقبل بأن ليس له أفراد متدنين عنه اجتماعياً، لأنه منذ عهد جفرسون فصاعداً، تنطبق العقيدة القائلة بأن الناس كلهم متساوون على النظر إلى الأعلى، لا إلى الأدنى. وفي هذا الموضوع يوجد نفاق عميق وشائع حينما يتحدث الناس بعبارات شاملة. فما يفكرون ويشعرون به في الحقيقة يمكن اكتشافه بقراءة روايات من الدرجة الثانية، حينما يجد الواحد بأنه لأمر مخيف أن يولد المرء في الجهة الخاطئة من الأرض، وأن هنالك ضجة كبرى عن سوء الشراكة، كما اعتاد الناس أن يروا في بلاط ألماني صغير. وطالما ظلت الفوارق العظيمة في الثروة قائمة فليس من السهل أن نرى كيف يكون الأمر غير ذلك. وفي إنكلترا، حيث التظرف المتفاخر مغروس في أعماق النفس، فإن مساواة الدخول بين الناس الذي جلبته الحرب كان له تأثير عميق، وبين الشبان يبدو التظرف المتفاخر لأجدادهم الآن باعثاً على السخرية إلى حد ما. ولا يزال ثمة قدر كبير من التظرف المتفاخر المأسوف له في إنجلترا، ولكنه ذو علاقة أكثر بالتعليم وبطرائق الحديث مما هو في الدخل والوضع الاجتماعي في المعنى القديم.

وكبرياء العقيدة هو نوع آخر من نوع الشعور نفسه. حينما عدت أخيراً من الصين ألقيت محاضرات عن تلك البلاد في عدد من نوادي النساء في أمريكا. وقد كان هناك دائماً في هذه النوادي امرأة عجوزاً التي كانت تبدو نائمة خلال المحاضرة، ولكنها في نهايتها، تسألني بصورة تبعث على الزهو، لماذا لم أدل برأي بأن الصينيين وهم وثنيون، هم ولا شك خالون من الفضائل. وإنني لأتصور بأن المورمون Mormons في مدينة سالت لك Salt Lake اتخذوا نفس الموقف حينما قبلوا بينهم أناساً لا ينتمون إلى شيعتهم. وخلال العصور الوسطى، كان

كل من المسيحيين والمسلمين مقتنعين تماماً بخبث الفئة الأخرى وكانوا غير قادرين على الشك في تفوقهم.

كل هذه هي طريق مضحكة في الشعور «بالعظمة». ولكي نكون سعداء نحتاج إلى مختلف أشكال الدعم لاعتبارنا الذاتي. فنحن كائنات بشرية، ولذلك فالكائنات البشرية هي الغاية من الخلق. نحن أمريكيون، ولذا فإن أمريكا هي بلاد الله الخاصة به. نحن بيض، ولذلك فإن الله لعن حام Hame وأخلافه الذين كانوا سوداً. ونحن بروتستانت أو كاثوليك، كما يمكن أن تكون الحال، ولذا فإن الكاثوليك والبروتستانت، كما يمكن أن يكون، هم مخلوقات كريهة. نحن ذكور، لذا فالنساء غير عاقلات، أو إناث، لذا فالرجال متوحشون. نحن شرقيون، ولذا فالغرب شرس وغير متزن، أو غربيون، ولذا فالشرق عقيم. نحن نعمل بأدمغتنا، ولذا فالطبقات المتعلمة هي الطبقات الهامة، أو نحن نعمل بأيدينا، ولذا فالعمل اليدوي هو الذي يضفي على المرء الكرامة. وأخيراً، وفوق كل شيء، كل منا نحن يحوز على مزية منفردة تماماً: فنحن ذواتنا. وبهذه الأفكار المريحة نخرج لنصطرع مع العالم، وبدونها تفشل شجاعتنا. وبدونها، كما هي طبيعة الأشياء، لا بد أن نشعر بأننا منحطين لأننا لم نتلقن شعور المساواة. فلو استطعنا أن نشعر بصورة حقيقية بأننا مساوون لجيراننا، لا أفضل منهم ولا أدنى، فربما أصبحت الحياة بعد ذلك أقل مكاناً للمعركة، ونحتاج إلى قدر أقل من أسطورة النشوة لنمنح أنفسنا صفات العربدة المتفاخرة.

ومن أكثر أنواع الانخداع المؤذي الذي يخضع له الناس والأمم هو أن يحسبوا أنفسهم آلات خاصة للإرادة الإلهية. فنحن نعرف بأن الإسرائيليين حينما غزوا أرض الميعاد كانوا هم الذين نفذوا الغاية الإلهية، وليس الحيثيون Hittites ولا الكرجاشيون Girgashites، ولا العموريون Amorites، ولا الكنعانيون Canaanites، ولا البريزيتيون Perizzites، ولا الهيفذتيون Hivites، أو الجيبوزيت Jebusites. ولربما لو أن هؤلاء الآخرين قد ألفوا كتباً تاريخية طويلة لبدا الأمر مختلفاً قليلاً. وفي الواقع، فإن الحيثيين تركوا بعض الكتابات

المنقوشة، ومنها تستطيع أن تحدس أي مخلوقات تعيسة كان هؤلاء القوم. وقد اكتشف، «بحسب الواقع» بأن روما قد قضت لها الآلهة بأن تغزوا العالم. ثم جاء الاسلام بالعقيدة القائلة بأن كل جندي يموت في المعركة في سبيل الايمان الحقيقي يذهب مباشرة إلى الجنة، وذلك لأن الحوريات أكثر جاذباً من عرائس الموسيقا. وكرومويل كان مقتنعاً أنه كان أداة العدالة المعين إليها لقمع الكاثوليك والأشرار. وأندرو جاكسون **Andrew Jackson** كان العامل في حركة القدر الواضح في تحرير شمال أمريكا من كابوس الإسبانيين الذين يخالفون نهار السبت. وفي يومنا هذا، سيف الحرب قد وضع في أيدي الماركسيين. وهيغل ظن بأن الجدلية بمنطقها الجبري قد منحت التفوق لألمانيا. «كلا»، قال ماركس، «لا لألمانيا، بل للطبقة الكادحة». وهذه العقيدة لها صلة نسب بالعقائد المبكرة للشعب المختار والقدر الواضح. وفي صفتها الجبرية رأت في نضال المتخاصمين كحركة ضد القدر، وزعمت جدلاً بأن الإنسان الحكيم سيضع نفسه بسبب ذلك في الجانب الرابح بأسرع ما يمكن. والاعتراض الوحيد عليها هي أنها تفرض معرفة المقاصد الإلهية التي لا يمكن لرجل عاقل أن يدعيها، وأنه في حالة التنفيذ تبرر القساوة الصارمة التي قد تندد لو أن برنامجنا كان له أصل دنيوي فحسب. ومن الحسن أن نعرف بأن الله هو بجانبنا، ولكن يصبح الأمر مضطرباً حينما تجد العدو يقتنع بعكس ذلك. ولنقتبس الأبيات الخالدة للشاعر التي نظمت خلال الحرب العالمية الأولى:

فليعاقب الله انجلترا، ولينقذ الله الملك.

والله هذا، والله ذاك، والله هو الشيء الآخر.

«أيها الإله الخير»، قال الله، «لقد أوقفت عملي»

والاعتقاد بالرسالة الإلهية هو أحد الأشكال الكثيرة لليقين التي أخذ بها الجنس البشري.وأعتقد أنه ربما كان من أعقل الأشياء التي قبلت كانت على لسان كرومويل حين قال للسكوتلنديين قبل معركة دونبار **Dunber**: «إنني أتضرع إليكم في باطن المسيح، فكروا بأن من الممكن أن تكونوا على خطأ» ولكن الأسكتلنديين لم يعيروه أذناً صاغية، ولذا وجب عليه أن يهزمهم في المعركة. ومن المؤسف أن كرومويل لم يوجه إلى نفسه نفس الملاحظة. ومعظم

الشرور الكبرى التي أنزلها الإنسان لأخيه الإنسان نجمت عن شعور الناس باليقين في أمر من الأمور، وهو خاطئ، في الحقيقة. ومعرفة الحقيقة هي أصعب بكثير مما يحسب الناس، والعمل بالعزيمة الصارمة على أساس الاعتقاد بأن الحقيقة هي احتكار طرفهم، هي بمثابة دعوة للكارثة. والحسابات الطويلة التي تقول أن شراً ما في الوقت الراهن هو جدير بالحدوث لأجل نيل منفعة مشكوك فيها في المستقبل يجب أن ينظر إليها دائماً بالشبهات، لأنه كما قال شكسبير: «أن ما سياتي لا يزال غير مؤكد». وحتى أمهر الناس قد يتيهون شاردين بصورة كبيرة إذا تنبؤوا بشيء قبل عشر سنوات من حدوثه. وبعض الناس سيعتبرون هذه العقيدة غير أخلاقية، ولكن الإنجيل على كل حال، هو الذي يقول: «لا تفكر في الغد».

أما في الحياة العامة، كما هو الأمر في الحياة الخاصة، فإن الشيء الهام هو التسامح والوداعة، بدون زعم لمقدرة خارقة في قراءة المستقبل.

وبدلاً من أن نسمي هذا البحث «الأفكار التي آذت البشرية»، يمكنني ربما أن أدعوه «أفكار آذت البشرية»، لأنه، بالنظر إلى أن المستقبل لا يمكن التنبؤ به وأن هنالك أنواع من العقائد الممكنة عنه لا تنتهي تقريباً، فإن الفرصة بأن تكون أي عقيدة يتمسك بها الإنسان تجعلها صحيحة هي فرصة ضئيلة جداً. وكل شيء تحسبه سيحدث بعد عشر سنين، إلا إذا كان مشابهاً لشروق الشمس في الغد وهو أمر لا صلة له بالروابط الإنسانية، فستكون على يقين تقريباً بأنك على خطأ. وإنني أجد هذا الراي مواسياً حينما أتذكر بعض التنبؤات المظلمة التي اقترفتها بصورة طائشة بنفسي.

لكنك قد تقول كيف يمكن أن تكون إدارة الشؤون السياسية ممكنة إلا على فرض أن المستقبل يمكن التنبؤ به إلى حد ما؟ إنني أوافق على أن درجة ما من التنبؤ ضرورية، وأنا لا أوحي بقولي بأننا نتصف بجهل كامل في هذا الصدد. فمن النبوءة الحقيقية أن نقول لرجل بأنه شرير وأحمق فلا يحبك لذلك، ويمكنك أن تقول بنفس النبوءة لسبعين مليوناً فلا يحبونك لذلك. ومن الصحيح الفرض بأن التنافس القائم على قتل الخصم لن ينتج شعوراً بالزمالة الطيبة بين

المتنافسين. ومن المرجح إلى أبعد حد أنه إذا وجدت دولتان مجهزتين بسلاح عصري ومتقابلتين عبر الحدود، وإذا كان ساستهما الرئيسيون منشغلين بتبادل الشتائم، فالشعب في كلاً من الجانبين سيصبح مع مضي الوقت عصبياً وسيهاجم الجانب الواحد الجانب الآخر قبل أن يسبقه إلى ذلك خصمه. ومن سلامة القول أن نفرض بأن حرباً عصرية حقيقية لن ترفع مستوى الرفاه حتى بين الظافرين. وهذه التعميمات ليست من الصعوبة بحيث تتعذر معرفتها. أما الأمر الصعب فهو أن نتنبأ بالتفصيل بالنتائج ذات السياق الطويل بسياسة حسية عملية. أن بسمارك، بمهارة قصوى، ربح حروباً ثلاثة ووحد ألمانيا. ولكن نتيجة سياسته جعلت في السياق الطويل ألمانيا تعاني هزيمتين جبارتين. وهاتان الهزيمتان نشأتا لأن تعليم الألمان بأن يكونوا غير مكترثين بمصالح سائر البلدان باستثناء ألمانيا، ولّد روحاً عدائية وحدت العالم ضد خلفاءه. والأنانية التي تتجاوز قدراً ما، سواء أكانت فردية أو قومية ليست من الحكمة في شيء. قد يصادفها الحظ فتنجح، ولكن إذا فشلت فيكون فشلها مخيفاً. وقليل من الرجال من يغامر بذلك إلا إذا كانوا يرتكزون إلى نظرية، لأن النظرية فقط هي التي تجعل الناس غير محتفظين مطلقاً.

فإذا انتقلنا من وجهة النظر الأخلاقية إلى وجهة النظر الفكرية الصرفة، يجب علينا أن نسأل أنفسنا ماذا يستطيع علم الاجتماع أن يعمل لتوطيد قوانين سببية قد تكون مساعدة لرجال السياسة في صنع قراراتهم السياسية. ذلك أن بعض الأشياء ذات الأهمية الحقيقية أخذت تعرف مثل كيف نتجنب الأزمات الاقتصادية والبطالة على قياس واسع كما كان حال العالم بعد الحرب الأخيرة. وأصبح معروفاً الآن أيضاً من قبل أولئك الذين يهتمون بالأمر بأن وجود حكومة دولية هو السبيل الوحيد للحيلولة دون نشوب الحرب، وأن الحضارة يكاد أن لا يكتب لها البقاء في الأرجح من حرب عظمى إضافية أخرى إذا نشبت. ولكن بالرغم من معرفة هذه الأشياء، فهذه المعرفة ليست مجدية، فهي لم تنفذ للكتل الكبرى من الناس، وليست قوية بصورة كافية لضبط المصالح المشؤومة. فثمة في الحقيقة، مقداراً كبيراً من العلم الاجتماعي أكثر مما يريد أو يقدر السياسيون على تطبيقه. وبعض الناس يعزون هذا الفشل للديمقراطية، ولكن

يبدو لي أنه أكثر بروزاً في الأنظمة الاستبدادية منه في أي مكان آخر. والاعتقاد بالديمقراطية، مع ذلك، هو ككل عقيدة أخرى، قد ينفذ إلى درجة يصبح فيها تعصبياً، ولذا فهو مؤذ. والديمقراطي ليس بحاجة للاعتقاد بأن الأكثرية ستقرر الأمور بحكمة دائمة، ولكن ما يجب عليه أن يعتقد هو أن قرار الأكثرية، سواء أكان حكيماً أو غير حكيم، يجب أن يقبل حتى الوقت التي تقرر فيه الأكثرية غير ذلك. وهو يعتقد لذلك لا بدافع تصور صوفي بحكمة الرجل البسيط، ولكن كخير وسيلة عملية لتقرير حكم القانون بدلاً من حكم القوة المتعسفة. والديمقراطي لا يعتقد بالضرورة في أن الديمقراطية هي خير طريقة دائماً وفي كل مكان. فثمة كثير من الأمم التي تفتقر إلى ضبط النفس والخبرة السياسية المطلوبين لنجاح المؤسسات البرلمانية، وحيث يكون الديمقراطي، راغباً لجعل الأفراد أمعن بالتربية السياسية الضرورية، وهو يعترف في الوقت نفسه أن من غير المجدي أن تقحم على هذه الجماهير نظاماً قبل الأوان لأنه ولا شك سيصير إلى التحطم. وفي السياسة، كما في غيرها، لا يلجأ المرء إلى التعامل بالمطلقات، فإن ما هو جيد في زمان ومكان معينين قد يكون سيئاً في وقت ومكان آخر، وما يشيع الغرائز السياسية في أمة ما قد يبدو لأمة أخرى عقيماً تماماً. فالهدف الشامل للديمقراطي هو الاستعاضة بحكومة تقوم على أساس الموافقة الشاملة عن حكومة تقوم على القوة، ولكن هذا يتطلب وجود شعب قد عانى نوعاً من التدريب. لو كان لدينا أمة منقسمة إلى فئتين متساويتين تقريباً اللتين تتباغضان وتصبوان للأطباق على خناق الفئة الأخرى، فالقسم الذي يكون أقل من نصف الأمة لا يخضع لترويض سيطرة القسم الآخر، ولا القسم الذي يفوق النصف العددي يظهر، في ساعة الظفر، نوع الاعتدال الذي يرأب الصدع.

العالم في وقتنا الحاضر يقف وهو في حاجة إلى نوعين من الأشياء. فمن جهة، التنظيم ـ التنظيم السياسي لإلغاء الحروب، والتنظيم الاقتصادي لتوليد مجتمع دولي عاقل وصحيح، ومن جهة أخرى، يحتاج إلى بعض الصفات الأخلاقية ـ تلك الصفات التي تحدث عنها رجال الأخلاق في كثير من العصور، ولكنها لم تصب حتى الآن سوى نجاح ضئيل. فالصفتان الأكثر ضرورة هما

الإحسان والتسامح، لا كشكل من أشكال الإيمان المتعصب كالذي تعرضه لنا مختلف الفلسفات المهيجة المثيرة. وأحسب أن هذين الهدفين، التنظيمي والأخلاقي، هما متشابكان بعرى وثيقة، فمتى تم التحقيق الأول فسيتبعه الآخر في الحال. ولكن، في الواقع، إذا أراد العالم أن يتحرك في الاتجاه الصحيح فعليه أن يتحرك في الاتجاهين في آن واحد معاً. ويجب أن يحدث نقص متدرج في العواطف الشريرة التي هي الحصيلة الطبيعية للحرب، وأن يحدث ازدياد متدرج في المنظمات التي تتذرع بواسطتها البشرية لتحقيق المساعدة المتبادلة بين الأطراف. هناك يجب التأكد من الناحية الفكرية والأخلاقية بأننا كلنا عائلة واحدة، وأن سعادة أي نوع من هذه العائلة لا يبنى بأمان على أنقاض الفرع الآخر. وتقف في الوقت الحاضر، العيوب الأخلاقية حجر عثرة في طريق التفكير الواضح، التفكير الغائم المضطرب يشجع وجود العيوب الخلقية. وربما وأنا أكتب أكاد لا أجرأ بأن آمل، في أن تكون القنبلة الهيدروجينية، عاملاً في إخافة البشر وجعله يلجأ إلى العقلانية والتسامح. فإذا حدث هذا فسيكون لنا سبب نتذرع به لمباركة مخترعيها.

* * *

(11)

رجال بارزون عرفتهم

عرفت في مجرى حياتي كثيراً من الرجال والنساء البارزين، من العهد الفيكتوري حتى يومنا هذا. والصفة التي تجعل شخص غير منسي، أو مؤثراً شخصياً، لم تكن أهم شيء في تجربتي، بالنسبة لأولئك الذين طبعوا التاريخ بأعظم سمة، إلا في حالات قليلة. ولقائي الوحيد بالملكة فيكتوريا جرى حين كنت في السنتين من العمر، وآسف أنني لا أتذكره، ولكن ذوي لاحظوا بدهشة بأن سلوكي كان موقراً تماماً. ومن ناحية أخرى، فلقد لقيت في نفس العمر لأول مرة الشاعر روبرت برونينغ Robert Browning الذي يعتبرونه أعظم شاعر في عصره، وقد قاطعت كلامه بقولي في صوت صارخ «أود من هذا الرجل أن يتوقف عن الكلام». وقد لقيته مراراً في آخر سني عمره، فلم أجد شيئاً فيه يبعث على الاحترام. فقد كان رجلاً مسناً، لطيفاً، ومسراً، ويتصرف دون كلفة في حفلات الشاي التي تقيمها السيدات المتوسطات العمر، كما كان عذب الكلام، وأليفاً تمام الألفة، ولكنه كان يفتقر إلى الشعلة الإلهية التي يأمل المرء أن يراها في الشاعر.

ومن جهة أخرى، فإن تينسون Tennyson الذي كنت أراه كثيراً، كان دائماً يمثل الشاعر، وكان يبعثني على سخرية المراهق لهذا السبب. وقد اعتاد أن يتجول في الريف برداء إيطالي فضفاض، وكان بالتأكيد لا يرى الناس الذين يصدف أن يمر بهم، وكان يظهر سلوكاً لائقاً بالتجريد الشعري. وبين الشعراء الآخرين الذين التقيتهم، فإن أكثرهم انتقاشاً في الذاكرة كان أرنست تولر Ernst Toller، وبصورة رئيسية بسبب مقدرته بالتألم الشديد غير الشخصي. ورويرت بروك Rupert Brooke، الذي عرفته جيداً وقد كان جميلاً ومليئاً

بالحياة، ولكن هذا التأثير قد شوهه طرف من عدم الأمانة البايرونية وشيء من الميل الزخرف.

وبين الفلاسفة البارزين، باستثناء رجال لا يزالون أحياء، فقد كان أكثرهم تأثيراً، شخصياً علي، وليم جيمس William James. هذا بالرغم من صفة طبيعية تامة وخلو من كل وعي ظاهر بأنه رجل عظيم. ولا تجعله أي درجة من الشعور الديمقراطي والرغبة بأن يدمج نفسه في القطيع العادي، لا تجعل منه أي شيء سوى أرستقراطي كبير، ورجل تبعث مزاياه الشخصية على الاحترام. وبعض الفلاسفة - وليس بالضرورة أقدرهم - هم مؤثرون عن طريق صفة أمانتهم الفكرية. وكمثل جيد جداً على ذلك، كان هنري سيدويك Henry Sidgwick، الذي كان أستاذي في فلسفة الأخلاق. وفي شبابه كانت الزمالات في كمبردج متاحة فقط لأولئك الذين يوقعون على الفقرات التسع والثلاثين من نظام كنيسة إنكلترا. وبعد مضي سنين من توقيعه لهذه الفقرات، نمت فيه الشكوك، بالرغم من أنه، ما كان ينتظر منه أن يؤكد من أن عقائده بقيت غير متغيرة، فقد قرر بأن من واجبه أن يستقيل. وهذا العمل كان سبباً سريعاً لتغير القانون الذي وضع نهاية وحداً فاصلاً للقيود اللاهوتية القديمة. وكأستاذ، قد أدى الأمانة نفسها، وكان لاعتراضات تلاميذه بمودة وعناية وكأنها صدرت عن زملاء. وهذا جعل تعليمه أفضل ثمراً من كثير ممن كانوا أقدر بين الرجال.

إن لرجال العلم، في أحسن حالاتهم، نوع خاص من التأثير الناشئ عن دمج الذهن العظيم بالبساطة الطفولية. وحينما أقول «البساطة»، لا أعني أي شيء ينطوي على نقص في المهارة، بل أعني العادة في التفكير بصورة غير شخصية، دون ميزة دنيوية أو نقيضة لرأي أو عمل. وبين رجال العلم الذين عرفتهم، يمثل أنشتين Einstein المثل الأعلى لهذه الصفة.

أما إذا تحدثنا عن السياسيين، فقد عرفت سبعة رؤساء وزارة، بدءاً بجدي (الذي كان رئيساً للوزارة في عام 1846) حتى المستر أتلي Mr. Attlee. ولكن أكثرهم رسوخاً في الذاكرة غلادستون Gladstone، الذي كان يشار إليه من قبل من يعرفونه بأنه «مستر» غلادستون. والرجل الآخر الوحيد الذي عرفته في

الحياة العامة واعتبرته موازٍ في التأثير الشخصي كان لينين. وكان المستر غلادستون التجسد للعصر الفيكتوري، أما لينين، فكان التجسد للقوانين الماركسية ـ وكلاهما لم يكن بشرياً تماماً، ولكن كل منهما يحوز على سلطة القوة الطبيعية.

فالمستر غلادستون في حياته الخاصة، كانت تسيطر عليه قوة نظره وعينه، التي كانت سريعة ونافذة، ودقيقة الحساب لدرجة توحي بالفزع، ويشعر المرء أزاءه، كأنه صبي صغير في حضور أستاذ من الطراز القديم، ويدفع هذا التلميذ حافز دائم للقول: «من فضلك، يا سيد لست أنا كذا». وكل فرد كان يشعر هذا الشعور نفسه، ولا أستطيع أن أتصور مخلوقاً إنسانياً قد غامر بأن يقص عليه حكاية تصطبغ ولو بشيء قليل من المخاطرة، وإن رهبته الخلقية تجعل القاص متجمداً كالحجر. كان لي جدة التي كانت أعجب امرأة عرفتها، ورجال بارزون آخرون كانوا يرتجفون دائماً في حضورها. ولكن ذات مرة، حينما أتى غلادستون لحضور حفلة الشاي، أخبرتنا مقدماً بأنها كانت مصممة على تقويم رأيه فيما يتعلق بالسياسة الأرلندية، التي كانت غير موافقة لأفكارها. أتى غلادستون، وكنت حاضراً خلال الوقت كله، أنتظر دون تنفس الاصطدام المنتظر. ومن الأسف! أن جدتي كانت النعومة المطلقة، ولم تقل مقطعاً واحداً يحمل الأسد على الزئير، ولم يكن يستطع أحد من الحاضرين أن يظن بأنها كانت غير متفقة معه في أي شيء.

وإن أكثر تجربة مخيفة في حياتي ترتبط بمستر غلادستون حينما بلغت السابعة عشر من العمر، وكنت فتى خجولاً وشاذاً، أتى غلادستون ليزور عائلتي في نهاية الأسبوع. وكنت «الرجل» الوحيد في البيت، وبعد العشاء، حينما انسحبت السيدات، ظللت لوحدي رأساً لرأس مع العملاق. وكنت متحجراً لدرجة كبيرة لتنفيذ واجباتي كمضيف، ولم يفعل شيئاً لمساعدتي في ذلك. وقد جلس وقتاً طويلاً صامتاً كل الصمت، وأخيراً في صوته المنغم القوي، تنازل وأبدى ملاحظته الفريدة: «أن هذا النبيذ البورت Port جيد جداً ولكن لماذا قدموه لي في قدح نبيذ كلاريت Claret؟» ومنذ ذلك الحين، فقد واجهت

جماهير غوغائية مهتاجة، وقضاة غاضبين وحكومات معادية ولكني لم أشعر بالرعب الذي شعرته في تلك البرهة المستقرة.

كانت العقيدة الخلقية العميقة الأساس الذي ارتكز إليه نفوذ غلادستون السياسي. فقد كان يتمتع بكل المهارة التي يتصف بها سياسي حاذق، ولكنه كان مقتنعاً بأمانة أن كل مناورة من مناوراته كان يستمد إلهامه من أنبل المقاصد. ولابوشير Labouchere، كان يتفق بالسخرية الحادة لخصمه بقوله: «ككل سياسي يحمل في طيات نفسه أسراره، ولكنه يختلف عن الآخرين، باعتقاده بأن الرب وضعها هنالك». وهو دائماً يستشير بجد ضميره، وكان ضميره دائماً يعطيه بجد الجواب الملائم.

وقوة شخصيته تتمثل بحكاية ـ سواء كانت صادقة أو كاذبة ـ تتمثل في حكاية مقابلته مع رجل ثمل في اجتماع. والرجل كما يبدو، كان من الحزب السياسي المعاكس، وكان يقاطعه كثيراً. وأخيراً شُخص إليه المستر غلادستون ببصره، وقال هذه الكلمات: «هل أستطيع أن أطلب من السيد، الذي لم يقاطع ملاحظاتي مرة، بل تكرار بأدوات تعجبه، أن يمنحني ذلك المدى الوسيع من اللطف، الذي لو كنت أنا في مكانه، وهو في مكاني، لمنحته له دون تردد». ويقال ـ وأنا أصدق ذلك تماماً ـ بأن الرجل قد صحا من سكره بالصدمة النفسية التي تلقاها، وظل صامتاً بقية هذه الأمسية.

ومن الغريب كفاية، أن ما يقرب من نصف مواطنيه، بما فيهم الأغلبية الساحقة للموسرين كانوا يعتبرونه إما مجنوناً أو شريراً أو الاثنين معاً. وحينما كنت طفلاً، كان معظم الأطفال فيما أعلم محافظين، وقد أكدوا لي بحزم كحقيقة واقعة، بأن المستر غلادستون كان يوصي بعشرين قبعة عالية من مختلف تجار القبعات كل صباح، وأن السيدة غلادستون كانت تمر على هؤلاء الباعة لتبطل الطلب، (وهذا كان قبل أيام الهواتف). وقد ظن البروتستانت بأنه كان مرتبطاً سراً مع الفاتيكان، والأغنياء ينظرون إليه (باستثناءات قليلة) كما كان ينظر إلى المستر روزفلت Roosevelt من قبل أكثر الناس رجعية من

الأمريكان بأنه غني. ولكنه ظل صافياً رضياً، لأنه لم يشك أبداً بأن الرب كان بجانبه. وكان بالنسبة لنصف الأمة آله تقريباً.

أما لينين الذي تحدثت إليه طويلاً في موسكو سنة 1920 فقد كان بصورة سطحية، يختلف تماماً عن غلادستون، ومع ذلك، فإذا أخذنا بعين الاعتبار الفرق الزمني والمكاني والعقيدة، فالإثنان يتصفان بصفات عديدة مشتركة. ولنبدأ بذكر الفوارق بينهما: كان لينين قاسياً، وغلادستون لم يكن كذلك، لينين لم يشرع بأي احترام للتقاليد، بينما كان غلادستون على شعور كبير للاحترام، ولينين كان يعتبر كل الوسائل شرعية لتأمين ظفر حزبه، بينما كانت السياسة في نظر غلادستون تتصف ببعض القوانين التي يجب مراعاتها. وكل هذه الاختلافات، في رأيي، هي لصالح غلادستون، ووفقاً لذلك، كانت نتائج سياسة غلادستون مفيدة، بينما كانت نتائج لينين هدامة. وبالرغم من كل هذه الصفات غير المتشابهة، مع ذلك، فقد كانت نقاط تشابه عميقة تماماً. ولينين حسب نفسه ملحداً، ولكنه كان مخطئاً في ذلك. كان يظن بأن العالم تسيطر عليه الجدلية، وأنه كان إله في هذه الجدلية، وهو كغلادستون، كان يحسب نفسه العميل الإنساني للقوة الخارقة للإنسانية. وكانت خسارته وأعماله التي لا يراعى فيها الضمير تتصف إلى ذلك بالنسبة للوسائل لا بالنسبة للأهداف، ولم يكن يريد أن يشتري السلطة الشخصية على حساب الجحود. وكلا الرجلين استمدا قوتهما الشخصية من العقيدة الثابتة التي لا تهتز باستقامتها الخاصة. وكلا الرجلين، دعما لعقيدتيهما المتتاليتين، غامر في المسالك التي جعلتهما من جراء الجهل موضع سخرية شاملة ـ كغلادستون في نقد الكتاب المقدس ولينين في الفلسفة.

وأحسب أن بين الشخصين يقف غلادستون كالشخص الذي يظل أكثر انتقاشاً في الذاكرة. وأتخذ لذلك مقياساً ما يمكن أن يفكر فيه المرء في كليهما إذا صادف أحدهما في قطار دون معرفة شخصه. في ظروف كهذه أنا مقتنع بأن غلادستون سيدهشني كواحد من أبرز الرجال الذين لقيتهم وقد يجعلني في مظهر صامت من الموافقة على آرائه. أما لينين، فالبعكس يمكن

كما أظن، أنه قد بدا لي في الوقت نفسه متعصباً ضيق العقل وساخراً رخيصاً. وأنا لا أقول بأن هذا الحكم هو صحيح، وقد يكون غير صحيح لا بصورة إيجابية بل بما يحدث من الانطباعات. وحينما لقيت لينين، كان انطباعي عنه كرجل عظيم أقل بكثير مما توقعت، وأكثر انطباعاتي من هذا الاجتماع حيوية التعصب والقساوة المغولية. وحينما عرضت عليه سؤالاً يتعلق بالاشتراكية الزراعية أوضح لي بجذل كيف أنه حرض الفلاحين الفقراء ضد الأغنياء، «فبادروا حالاً إلى شنقهم إلى أقرب شجرة - ها! ها! ها!» وجعل ضحكه الصارخ عن فكرة أولئك القتلة دمي يجري بارداً في عروقي.

إن الصفات التي تجعل المرء زعيماً سياسياً كانت أقل وضوحاً في لينين مما هي في غلادستون. وأنني لا شك في أن يستطيع أن يصبح قائداً في أيام أهدئ من تلك الأيام. وسلطته ترتبط بالحقيقة التي مؤداها بأنه في أمة منهزمة ذاهلة، كان الوحيد تقريباً الذي لم يخامره الشك وبسط آمالاً بنوع جديد من النصر، بالرغم من الكارثة الأرضية، وكان يبدو بأنه يبرهن عن عقيدته بالتفكير البارد الذي يدعي بأن المنطق كان حليفه. وبهذه الطريقة فإن عواطف حلفاءه بدت لهم كما كانت تبدو له إنها مرتكزة إلى موافقة العلم، وأنها هي الوسيلة الحميمة التي يمكن بها إنقاذ العالم، ولا بد أن روبسبير Robespierre كان يتصف بشيء من هذه الصفة نفسها.

لقد تحدثت عن رجال بارزين بطريقة أو بأخرى. ولكن في الحقيقة الراهنة أثر في انطباعي رجال ونساء غير بارزين. والذي وجدته أكثر ما يكون انتقاشاً في الذاكرة هو نوع خاص من الصفة الخلقية، وهي صفة النسيان الذاتي، سواء في الحياة الخاصة أو الشؤون العامة، أو في وجدان الحقيقة. وقد كان لدي في وقت ما بستانياً الذي لا يقرأ ولا يكتب، ولكنه كان نموذجاً كاملاً من الطيبة البسيطة، كما أحب تولستوي أن يفسر الحياة بين القرويين. وثمة رجل لن أنساه بسبب طهارة قلبه وهو أ. د. موريل E. D. Morel. وكموظف للشحن في ليفربول Liverpool عرف الأهوال التي كان يرتكبها الملك ليوبولد King Leopold في استثمار الكونغو Congo. ولكي يجعل معرفته شاملة وجب عليه

أن يضحي بوظيفته ووسائل عيشه. وهو بمفرده أولاً، وبصورة متدرجة، بالرغم من معاكسة جميع الحكومات الأوربية، أثار الرأي العام وأجبر على الإصلاح. وهذا الاعتبار الجديد الذي كسبه لنفسه ضحى به في سبيل حركة السلم خلال الحرب التي أرسل أثناءها إلى السجن. وقد عاش حتى زمن قصير بعد تأليف أول حكومة للعمال التي استثناه منها رامزي مكدونالد Ramsay Macdonald على أمل أن يغض النظر عن سلوكه الماضي في حركة السلام. وقلما يأتي النجاح العالمي لأناس كهؤلاء، ولكنهم يلهمون الناس الحب والإعجاب في أولئك الذين يعرفونهم متفوقين في صفاتهم، على أولئك الذين يمتلكون قلوباً أقل صفاءاً منهم.

***

(12)

النعي* (1937)

بمناسبة موت الأيرل رسل الثالث (أوبرتراندرسل، كما يفضل أن يدعو نفسه) في سن التسعين، فقد انقطعت رابطة مع ماضٍ سحيق جداً. فجده، اللورد جون رسل، رئيس الوزراء في العصر الفيكتوري، زار نابليون في جزيرة إيلبا، وجده لأمه كان صديقاً لأرملة المدعى العرش Young Pretender's Widow. وفي شبابه ألف أثراً هاماً في المنطق الرياضي، ولكن موقفه الشاذ خلال الحرب العالمية الأولى أوحى بافتقار إلى حكم موزون الذي أثر بالعدوى بصورة متزايدة في آثاره الكتابية فيما بعد. ربما يعزى هذا على الأقل جزئياً بالأمر الواقع، بأنه لم يتمتع بمزايا التعليم في المدرسة العامة، ولكنه تعلم في البيت من لدن أساتذة خصوصيين حتى بلغ سن الثامنة عشر، حينما دخل كلية ترينيتي Trinity في كمبردج Cambridge، وأصبح المنافس Wrangler السابع سنة 1893 والزميل Fellow 1895. وخلال السنين الخمسة عشرة التي عقبت ذلك، أنتج المؤلفات التي كانت أساساً لشهرته في العالم المثقف وهي: أسس الهندسة، فلسفة ليبنتز، مبادئ الرياضيات، وبتعاونه مع الدكتور (أ. ن. وايتهد Dr. A. N. Whitehead) ألف كتاب مبادئ الرياضيات. والأثر الأخير، الذي كان هاماً جداً حين صدوره، مدين دون شك بالكثير لتفوق الدكتور وايتهد (وفيما بعد الأستاذ)، وهو إنسان كما تبين كتاباته التالية، كان يمتلك قوة استبصار وعمق روحي

---

* هذا النعي سينشر (أو لا ينشر) في صحيفة التايمز في 1 حزيران 1962 بمناسبة موتي المأسوف له والمتأخر. وقد طبع بطريقة تأبينية في مجلة ليستينير 1937.

مفقودة بشكل محسوس في رسل، لأن جدل رسل، وعبقريته ومهارته بالرغم من الدرجة التي هي عليه، فإنها تجهل الاعتبارات السامية التي تتجاوز المنطق الصرف.

والافتقار إلى العمق الروحي أصبح واضحاً بصورة مؤلمة خلال الحرب العالمية الأولى، حينما أيد رسل، بإصرار، (وهنا ننصفه) بأنه لم يقلل من الخطيئة التي ارتكبت نحو بلجيكا، بأن الحرب لكونها شراً، فمن الواجب على رجال السياسة أن ينهوها بأسرع ما يمكن وهذا ممكن أن يجري بوقوف البريطانيين موقف الحياد وتمكين الألمان من الظفر. ويجب أن يفرض بأن الدراسات الرياضية التي حفزته لاتخاذ وجهة نظر كمية قد جعلته يتجاهل قضية المبدأ الذي تنطوي عليه. وخلال الحرب كلها، استمر في التحريض على إنهائها، بأي شروط كانت. وقد حرمته كلية ترينيتي، بصورة خاصة، من كرسي محاضراتها، وأقام مدة شهور سنة 1918 في السجن.

أما في عام 1920 فقد قام بزيارة مختصرة إلى روسيا، ولم يكن تأثير حكومتها فيه لصالحها، وقام بزيارة أطول إلى الصين، حيث تمتع بعقلانية الحضارة التقليدية مع طعمها الباقي على قيد الحياة في القرن الثامن عشر. وفي السنين التالية صرفت كتاباته في الدفاع عن الاشتراكية، والإصلاح التربوي، والتبشير بنظام أخلاقي أقل قساوة فيما يتعلق بالزواج. وفي بعض الأحيان، مع ذلك، كان يعود إلى الموضوعات الأقل نظامية. وكتاباته التاريخية، بأسلوبها وبداهتها الساخرة، تخفي عن القراء غير المبالين سطحية المذهب العقلاني العتيق الذي ظل يبشر فيه حتى النهاية.

في الحرب العالمية الثانية لم يسهم بأي عمل عام، إذ لجأ إلى بلاد محايدة قبل نشوبها. وفي حديثه الخاص اعتاد أن يقول بأن القتلة المجانين قد استخدموا جيداً في قتل بعضهم بعضاً، وأن الناس العقلاء قد ابتعدوا عن هؤلاء المجانين إذ كانوا يقومون بأعمال القتل. ولحسن الحظ فإن هذه النظرة، التي تذكرنا ببنتام Bentham قد أصبحت نادرة في هذا العصر، الذي يعترف بأن البطولة لها قيمة مستقلة عن نفعها. وفي الحقيقة، فإن كثيراً مما كان يدعى قبلاً بالعالم

المتحضر يرين عليه الخراب، ولكن لا يوجد شخص صحيح الفكر يستطيع أن يقبل بأن أولئك الذين ماتوا في سبيل الحق في النضال الكبير قد ماتوا عبثاً.

وحياته، بالرغم من كل غرابتها، تتصف بالاتساق غير المألوف في زمنه، والذي يذكرنا بأولئك المتمردين العظاميين في أوائل القرن التاسع عشر. مبادؤه كانت غريبة، ولكن هي كما هي، كانت تتحكم بأعماله وفي حياته الخاصة لم يظهر شيئاً من المرارة التي كانت تشوه كتاباته، بل كان محدثاً جذاباً فصيحاً وغير خال من العطف الإنساني. فقد كان له كثيراً من الأصدقاء، ولكنه ظل على قيد الحياة تقريباً بعدهم جميعاً. ومع ذلك، بالنسبة لأولئك الذين ظلوا على قيد الحياة، كان يبدو في منتهى شيخوخته، مليئاً بالتمتع والمرح، ويعود ذلك بلا شك، إلى حد كبير، إلى صحته التي لا تتبدل. أما من الناحية السياسية خلال سنيه الأخيرة، فقد كان منعزلاً كما كان ميلتون بعد التجديد. وكان آخر الأحياء الباقين في عصر وافته المنية.

* * *

ثبت بالمصطلحات الأجنبية المستعملة في هذا الكتاب

Absolute Idea	الفكرة المطلقة	Fossils	مستحاثات
Adherents	أنصار	Idea	فكرة
Alchemy	السيمياء	Instrumentalism	الذرائعية
Anarchic Force	قوة فوضوية	Impious	الطلاح (البعد عن التقوى)
Antiquity	الماضي السحيق	Law of Inertia	قانون المسيره (القصور الذاتي)
Aristocratic	العظاميون	Lightning-Rod	عامود الصاعقة
Autocratic	الحكم المطلق	Manifest Destiny	القدر الواضح
Big-Endians	الانتهائيين الصغار	Mediocre	المنحط
Bigot	المتعصب	Millennium	الفردوس المفقود
Blasphemy	تجديف، كفر	Mobs	الرعاع
Categorical Imperative	الأمر المطلق	Myths	أساطير
Clergy	اكليروس	Omnipotent	مطلق القوة
Cocksure	مزهو	Pathological	مَرضَي
Collective Hysteria	الهيستيريا الجماعية	Pestilences	أوبئة
Cruelty	القساوة	Providence	عناية إلهية
Destructiveness	التهديم	Reality	حقيقة، واقع
Demonology	علم الشياطين	Scholastics	المدرسيون القروسطيون

Divine Will	إرادة إلهية	Sectarian	الطائفي
Drab	باهت	Simplicity	البساطة
Dogmatism	الدوغماتية أو التعصب	Skepticism	الشكوكية، مذهب الشك
Dutch Courage	العريدة المتفاخرة	Sloth	الكسل
Effete	عقيم	Snobbery	التظرف المتفاخر
Efficient Cause	السبب الفعال	Somber	مظلم
Empiricism	المذهب التقريبي	Sour Grapes	العجز عن بلوغ الشيء
Enthusiasm	حماس	Sublunary	دون القمر
Eschatology	نبوءات	Subversive Doctrines	عقائد هدامة
Exceptional Genius	العبقريات الخارقة	Superstition	الخرافة
Layman	غير الأخصائي	Stoic	رواقية
Farce	مهزلة	Systematic	النسقي
False	خاطئ	Tory	محافظ
Famine	مجاعة	Tribute	ثناء
Fanatics	متعصبون	Tyrand	الطاغية
Final Cause	السبب النهائي	Watchwords	الشعارات المأثورة
Fellow	زميل	Winner	حائز
Fellowships	زمالة		

المحتوى

علي مولا



ليس ثمة جائزة نوبل للفلسفة، ولكن جائزة نوبل للآداب قد منحت هذه السنة إلى برتراند رسل. وشروط القبول توضح بأن جائزة نوبل قد منحت لبرتراند رسل كمفكر كبير في الإنسانيات أكثر من برتراند رسل الذي مضى عليه جيل الآن كان قد أدى خدمة هامة لتدريس الأهمية التاريخية للمنطق الرياضي، ولجنة نوبل قد منحت هذه الجائزة خصيصاً وهي تعرف عمداً أنها تعطي جائزة في الآداب. ومن الملائم والمناسب أن يُعترف باللورد رسل بهذا الأسلوب اللطيف لسببين. ففي المكان الأول يمثل آخر تقليد طويل في الفلسفة البريطانية مر به جون ستيوارت مل، دافيد هيوم، والأسقف باركلي، إلى توماس هوبس وفرنسيس بيكون... وهنالك معنى آخر يستحق بموجبه برتراند رسل بكفاءة جائزة في الأدب. فقد وقر في أذهان بعض أعضاء اللجنة، على الأقل دون ريب، في أن بموجب ذلك التقليد العظيم كانت الفلسفة جزءاً ومرحلة من الأدب. والفلسفة كالأدب، هي شكل من أشكال الحديث. هي حديث يعنى بأوائل الأشياء وأواخرها أو بالتحليل الدقيق بفرضياتنا الأساسية المتعلقة بالمعرفة، وأهداف المعرفة وطبيعة السبب وطبيعة الطبيعة نفسها. وبرتراند رسل كان منطقياً أكثر منه صوفياً ومحللاً أكثر منه شاعراً. ولكن أولئك الذين يتذكرون بحثه الفصيح، الذي مضى عليه جيل كامل (عبادة الرجل الحر)، وأولئك الذين قرأوا عند نشره قبل مضي سنوات ثلاث كتابه (تاريخ الفلسفة الغربية) يعرفون بأي خيال عاطف يعالج آراء الفلاسفة الآخرين وبأي تألق في البدهية والحيوية يزين الموضوعات الفلسفية التي يعالجها.

أروين أدمان

رئيس دائرة الفلسفة ـ جامعة كولومبيا

نقلاً عن: ساترديي ريفيو أوف